أدبيات

نبع الآداب والثقافة المعاصرة

Looloo
www.dvd4arab.com

قادة الفكر الفلسفي

يوسف ميخائيل أسعد

مقـــدمة

إن الكثير من المثقفين غير المتخصصين فى الفلسفة يهابونها ، ويتحاشون تناول الكتب والمراجع الفلسفية . وحتى إذا هفا البعض منهم لتناول أحد الكتب الفلسفية ، فإنه سرعان ما يعزف عنه بسبب افتقاره إلى الخلفية الفلسفية التى يحتاج من يطلع على الموضوعات الفلسفية إلى إحرازها ، حتى يتسنى له استيعاب ما يتضمنه الكتاب الفلسفى الذى يتناوله بالقراءة من مصطلحات فلسفية . ناهيك عن أن الغالبية العظمى من كتب الفلسفة أو تاريخ الفلسفة تساق بطريقة تخصصية ، كما تكون مشحونة بالمصطلحات الفلسفية التى تعزف بغير المتخصص عن مواصلة القراءة .

من هنا نشأت فكرة هذا الكتاب حرصاً منا على أن يستفيد الشخص المثقف غير المتخصص فى مادة الفلسفة من الينابيع الفكرية الفلسفية المتباينة . والواقع أن ما انتحينا إليه فى هـذا الكتاب هو الربط الوثيق فيما بين حياة كل فيلسوف وبين ما أفرزه من فكر فلسفى . فمن الخطأ أن نتناسى أن الفيلسوف — كائناً من يكون — هو إنسان نشأ فى بيئة معينة وتفاعل معها بالإيجاب أو بالسلب ، أو بالإيجاب فى جوانب معينة ، وبالسلب فى جوانب أخرى . وبالتالى فإننا ركزنا على الجانب الحياتى من شخصية كل فيلسوف ممن عرضنا لهم من فلاسفة ، سواء كانوا يونانيين أم عرباً ، وسواء كانوا منتمين إلى أزمنة بعيدة ، إلى ما قبل الميلاد ، أم كانوا قريبين منا أو حتى معاصرين لنا .

Looloo
www.dvd4arab.com

ولقد حرصنا فى هذا الكتاب على أن نقدم أهم الشخصيات الفلسفية وأهم ما يتميز به كل فيلسوف ، بحيث إذا ما قام الشخص المثقف غير المتخصص بقراءة هذا الكتاب ، فإنه سوف يكون قد وقف على الخطوط العريضة لتاريخ الينابيع الفلسفية المتباينة ، وما تتضمنه من اتجاهات متباينة .

ولسوف يحس القارئ الذى يتناول هذا الكتاب أنه يعايش الفلاسفة أو أنه يعيش معهم فى جوهم الاجتماعى والنفسى الذى نشأوا وعاشوا فى إطاره ، وذلك لأننا حرصنا على التركيز على العمليات التفاعلية التى حدثت فى القوام الذهنى لكل فيلسوف .

والجدير بنا أن نذكر ونؤكد تلك العلاقة الوثيقة التى ارتبطت بها الفلسفة بالأدب من جهة ، وبعلم النفس من جهة ثانية ، وبالقيم الدينية والخلقية التى كانت تسود البيئات المتباينة التى نشأ فيها الفلاسفة المتباينون من جهة ثالثة . ناهيك عن ارتباط الفلسفة بالعلوم الوضعية المتباينة ، بل وارتباطها بالسياسة والعلاقات الاجتماعية أيضاً .

أخيراً نؤكد أن المشتغلين بالأدب ، وكذا المشتغلين بعلم النفس لابد لهم أن يطلعوا على هذه النوعية من الكتب التي تؤكد الرابطة بين الفلسفة والأدب وعلم النفس على السواء . ولعلنا نجرؤ فنقول إن الينابيع الفلسفية تعتبر جرعة لا غنى عنها للأديب وعالم النفس ، بل ولا غنى عنها لأى مثقف ولأى مشارك فى المسيرة الثقافية ، سواء بالتحصيل أم بالإبداع وتقديم الجديد فى المجال الثقافى الذى يعبر فيه عن مواهبه واستعداداته الثقافية .

يوسف ميخائيل أسعد

الفصل الأول

هوميـــروس

HOMER

(القرن التاسع ق م)

من الأخطاء الشائعة الاعتقاد أن ثمة تعارضاً فيما بين الأساطير والفلسفة : وقد تأسس هذا الاعتقاد الخاطئ على اعتبار أن الأساطير خرافة زائفة ، بينما الفلسفة فكر صائب ، أو أن الأساطير تعبير عن أخيلة وهمية ، بينما الفلسفة تتسم بالموضوعية . والواقع أن البنية الذهنية للبشرية تتسم بالتكامل . فمن الأساطير نبعت الفلسفة ، ومن الخرافة اقترب الإنسان من الواقع ، ومن لجة العاطفة بزغ العقل .

فمن يريد أن يتناول الفلسفة من حيث نشأتها باليونان ، فإن عليه أن يبدأ بالأساطير اليونانية ، وبالشخصيات التى نسجت تلك الأساطير . وأشهر تلك الشخصيات هوميروس وهزيود . فالشعر الذى نَظَمه هوميروس فى الإلياذة والأوذيسة لم يكن تعبيراً ذاتياً عما كان يحس به من حب أو كراهية ، أو من علاقة عاطفية بينه وبين أشخاص بعينهم ، بل كان منصباً على الوجود من حوله ، كما كان محاولة أسطورية لتفسير الكون .

ولا شك أن تلك المحاولات التى بذلها هوميروس فى تفسير الوجود بالشعر والأسطورة ، لم تكن محاولات ساذجة ، ولم تكن تعبيراً بدائياً يمكن أن يقتصر تناوله فى حدود حياته الشخصية كإنسان له مشاعره

Looloo
www.dvd4arab.com

الشخصية ، كما لم يكن تعبيراً عن طفولة الفكر اليونانى ، أو عن طفولة الإنسانية . فالواقع أن الطفولة الشخصية للمرء أو طفولة أمة من الأمم ، أو طفولة الإنسانية ، لابد وأن تتسم بالالتفاف حول الذات ، وعدم التطلع إلى الخارج البعيد ، كما أن الطفولة لا تستطيع أن تتطلع إلى الكون بأسره ، محاولة فى تطلعها ذاك ، أن تقدم نظرة شاملة للوجود ، أو أن تأتى بتفسير جامع مانع له .

فاذا يمكن أن نزعم إذن ؟ لابد أن هوميروس فى الإلياذة والأوذيسة لم يكن سوى ثمرة لحضارة يونانية سابقة بعيدة الغور وعميقة الجذور . ولا بد أن يكون هوميروس قد تخطى بكثير مراحل ثقافية سبقته ، أو بتعبير آخر لابد أن يكون قد مثّل نضوجاً ثقافياً معيناً بعد أن مرت الحضارة اليونانية بمراحل تطورية ، وبخطوات تعدت أفق العاطفة الشخصية الفردية إلى نوع آخر من العاطفة نستطيع أن نسميها « العاطفة الوجودية » المتمثلة فى الأساطير .

ولعلنا نستطيع أن نميز هنا بين الأسطورة والخرافة ، فثمة فرق شاسع بين التفسير الأسطورى للوجود كما ورد بالإلياذة والأوذيسة ، وبين القصص الخرافية ، كقصص الجن التى انتشرت فى العالم بأسره ، والتى تشبع نهم أخيلة الطفولة والبدائيين . فالأسطورة تقدم تفسيراً خيالياً للوجود ، وليست مجرد تفجرات تخيلية لتحقيق المستحيل ، وذلك بالحصول على غير الممكن ، أو قهر ما لا يمكن قهره والتغلب عليه .

فثمة إذن حضارة راسخة سبقت عهد هوميروس . وبالفعل فإن العلماء قد كشفوا النقاب فى عام ١٨٧١ عن آثار تشير إلى أن حضارة مادية عظيمة ازدهرت فى اليونان قبل هوميروس بثمانية قرون — وبخاصة فى

كريت — هى الحضارة المذكورة فى أساطيرهم وفى وقائع طروادة إلى أن تم تدميرها بأيدى الدوريين فى إغارتهم المشهورة حوالى عام ١١٠٠ قبل الميلاد على بلاد اليونان . وصار من المؤكد فى ضوء الدراسات التى تمت فى ضوء تلك الكشوف ، أن الحياة التى قام هوميروس بوصفها فى الإلياذة والأوذيسة ، بما تتسم به من ثراء وقوة وأبهة وترف ، إنما هى وليدة تطور استمر فترة طويلة .

ومن المرجح أن تكون هناك مؤلفات أخرى غير الإلياذة والأوذيسة قام هوميروس أو غيره بتأليفها . على أن أقدم ما عرف عن شواهد الفكر اليونانى هو هذان العملان ، وهما ينسبان إلى هوميروس منذ زمن بعيد . بيد أن هناك من يشكون فى وجود الرجل أصلاً ، وفى عزو القصتين جميعاً إليه . وثمة من النقاد المتأخرين من يؤكدون أن العملين عبارة عن مجموعة من القصائد التى قام بقرض شعرهما مجموعة متباينة من الشعراء حول موضوع واحد . فإذا كان هذا صحيحاً ، فالمرجح أن يكون هوميروس واحداً من هذه الزمرة من الشعراء ، ولكنه كان أشهرهم ، أو أنه كان أحدثهم عهداً ، أو أنه كان صاحب الفضل فى جمعها وتنسيقها وضمها فى عمل واحد منسجم ، أو أنه كان شخصاً صاحب ذاكرة فذة فحفظها وأنشدها ، فنسبت إليه باعتباره الحافظ لقوامها والجامع لأشتاتها ، ولا غرو فإن اسمه يعنى فى اللغة اليونانية « المنسّق » .

والواقع أن الإلياذة ترجع كما أثبت النقاد إلى القرن التاسع والنصف الأول من القرن الثامن قبل الميلاد . وفى ضوء هذا نستطيع أن نقرر أن هوميروس كان يعيش فى أواخر القرن التاسع وأوائل القرن الثامن قبل الميلاد إذا لم يكن شخصية أسطورية ولم يوجد فى الواقع . وسواء

www.dvd4arab.com

كان هوميروس شخصية أسطورية ، أم كان شخصية تاريخية ، فما لا شك فيه أنه يحتل مكانة بارزة فى التاريخ الثقافى اليونانى والعالمى على السواء . وليس مما يعيب هوميروس أو الشعراء الذين ضربوا فى إثره أو تعاونوا معه أنه انتحى إلى المنهج الأسطورى فى تفسير الوجود ، فنحن لا نوافق أستاذنا يوسف كرم الذى يقول عن هوميروس : « فإذا حكمنا على هذا العصر بالقصائد الهوميرية ، وضعناه فى مرتبة دنيئة من مراتب الفكر ، لما نجد فيها من سذاجة فى تصور الطبيعة والإنسان ، ومن إسراف فى تأنيس الآلهة واستهتار بالأخلاق ليس له مثيل » (تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٤) .

ودفاعاً عن هوميروس وغيره ممن سلكوا هذا الدرب من الأساطير التى فسروا بها الوجود نقول : ألا يكفيهم فخراً أنهم قاموا بتمهيد الطريق أمام الفلسفة ؟ وأنه لولاهم لما بزغت الفلسفة إلى الواقع على أيدى الفلاسفة الذين تشربوا تلك الأساطير وامتدوا بها من نطاق الخيال الأسطورى إلى نطاق الخيال الفلسفى العقلانى ؟ أما ما تتسم به هذه الأساطير الهوميرية من استهتار بالأخلاق ، فإن علينا أن نتذكر أن لكل بيئة اجتماعية ولكل عصر قيمه الأخلاقية . ومن الخطأ أن نقيس قيم الآخرين فى ضوء قيمنا نحن . والخليق بنا أن ننظر بنظرة نسبية إلى القيم الأخلاقية لا بنظرة إطلاقية .

وإذا نحن تدارسنا الإلياذة والأوذيسة أو قرأنا عنهما وما تضمناه من نزعة أرواحية animism عند هوميروس ، فإننا نجد أن الطبيعة عنده بمثابة كائن حى مريد ، فنجد مثلاً أن نهر زونتوس قد استشاط غضباً لأن أخيل ملأه بالجثث ، وكذا تشخيصه لليل والظلمات والموت والنوم والحب والشهوة ، وكذا تأليه الأرض وقوله إنها ولدت الجبال

الشاهقة والسماء المزدانة بالنجوم والكواكب ، وزواج الأرض من السماء المحيطة بها من كل جانب ، فنتج عن هذا الزواج إنجاب إقيانوس والأنهار ، وأن الإقيانوس هو المصدر الأساسى للأشياء .

ولعل السؤال الذى يطرح نفسه بإزاء هذه النزعة الأرواحية التى نجدها عنده : ألسنا نؤمن نحن أيضاً — ونحن على مشارف القرن الحادى والعشرين — بالأرواحية ؟ إننا حتى إذا اعتقدنا أن عالم الجوامد ليس مثليساً بأرواح مثل أرواحنا ، فإننا نعتقد على أية حال أن ثمة قوانين متباينة تحكم أنحاء عالم الجوامد ، وأن تلك القوانين يمكن أن تمثل لإرادة خاصة بكل نوع من أنواع الجوامد . ونحن فى كثير من الأحيان نخاطب الجوامد كما لو أنها تفهم عنا ؟ فالكون بأسره لا يسير اعتباطاً ، بل يسلك وفق قوانين خاصة . فإذا كانت تلك القوانين مثبتة فى جوهر الشىء ، أفلا يكون ذلك دليلاً على أن تلك القوانين التى هى من جوهر الشىء تقترب جداً من فكرة الروح ؟ فى الإنجيل مثلا عندما هاج البحر « قام يسوع (عيسى) وانتهره فهدأت الأمواج» (إنجيل متى ٨ عدد ٢٣—٢٦) والأمثلة كثيرة فى هذا الشأن ، وما يزال الكون مشحوناً بالأسرار التى يتعذر كشف النقاب عنها ، ويقول يوسف كرم فى هذا الشأن : « فعندنا أن الأساطير القديمة فى جملتها رموز تخفى وراءها مقاصد علمية إذا ترجمناها إلى لغتنا المعهودة بدت واضحة مقبولة » (المرجع السابق ص ٤) . فهو يريد أن ينفى عن تلك الأساطير ما تحمله من نزعة غيبية ، وأن يترجمها بلغة العلم العصرى ، وهذا ما لا نوافق عليه ، ونؤكد أننا فى عصرنا هذا ما نزال منخرطين فى الغيبيات . وهذا ليس مما يعيبنا ، لأن الغيبيات لها رصيد من الحقيقة الموضوعية ، ومن الحقيقة الذاتية المتعلقة بطبيعتنا الإنسانية .

Looloo
www.dvd4arab.com

والآلهة عند هوميروس يقتربون من سائر البشر ؛ فهم قاطنون فى قمة الأولمب يؤلفون حكومة ملكية على رأسها زيوس ويتلوه فى المقام سائر الآلهة والإلاهات ، وكلهم فى صور بشرية ، غير أن سائلاً إلهياً يجرى فى عروقهم فيكفل لهم الخلود ، وهم أقوى من الأبطال ، وأسرع حركة ، يظهرون للناس أو يختفون عنهم كما يشاءون ، ويقيمون فى قصور فخمة يقضون فيها حياة ناعمة فى ترف ، ويأكلون ويشربون ويتزاوجون ، وتجرحهم السهام والرماح فيتألمون ويصرخون . ولهم أنصارهم من بنى البشر ، فيدعونهم فى الخير والشر على السواء .

أما الإنسان عند هوميروس وغيره من الشعراء المعاصرين له فى بلاد اليونان فى تلك الفترة ، فإنه مركب من نفس وجسد . والجسد مكون من ماء وتراب ينحل إليهما بعد الموت . والنفس هواء لطيف متحد بالجسد ومتشكل بشكله ، وعند الموت فإنها تخرج من الجسد شبحاً دقيقاً لا يحسه الناس من حول الشخص الميت ، فتنزل إلى مملكة الأموات فى جوف الأرض ، وقد احتفظ بالشعور ، ولكنه يكون قد فقد القدرة على العمل ، أعنى الإرادة . فهو يظل فى ألم مقيم فى تلك المنطقة القاحلة ، ويقضى فيها حياة باهتة تافهة .

والأوذيسة أكثر تقديراً للفضيلة من الإلياذة . فهى إجمالا تمجد الرجل الحكيم الشجاع الصبور والزوجة الوفية والابن البار والخادم الأمين . بيد أن الإلياذة والأوذيسة تعبران فى الواقع عن القيم التى كانت شائعة ببلاد اليونان وقت تأليفهما . ولكن مما لا شك فيه أنهما تشكلان الركيزة التى انبثقت منها الفلسفة بما تتسم به من عقلانية . ولكن يجب أن نضع نصب أعيننا أن الفلسفة لم تتخلص من النزعة الأسطورية تخلصاً

تاماً ، كما سوف نرى فى فلسفات الكثير من الفلاسفة . فواقع الأمر أن الحياة الثقافية لدى البشرية تتسم بالتكامل ، وإن كانت تمر فى مراحل تبزغ خلالها خصائص جديدة ، بينما تختفى خصائص أخرى . ولكن الخصائص التى تختفى لا تتلاشى تماماً . فإذا كانت الأساطير هى التى ولدت الفلسفة ، فإن الفلسفة لم تتخلص تخلصاً تاماً من الأساطير . وإذا كانت الفلسفة قد ولدت العلم ، فإن العلم لم يتمكن من التخلص من الفلسفة ، بل بزغت فلسفة العلم التى ستظل قائمة ومتطورة باستمرار .

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

الفصل الثانى

هزيـــود

HESIOD

(القرن الثامن ق م)

فى القرن الثامن قبل الميلاد أيضاً ، ظهر شاعر كبير من نوع جديد هو هزيود . ويعتبر هذا الشاعر أقدم شاعر تعليمى ظهر فى بلاد اليونان ، وقد نشأ فى جو ريفى بعيداً عن بهرج الحياة ومغريات التحضر ، وكان تعليمه نابعاً من مسقط رأسه « إيوليك كيما » وموجهاً إلى أهالى قرية الفلاحين الفقراء المسماة « اسكرا » التى كانت تحت وطأة العبودية التى فرضتها طبقة النبلاء الجشعة عليها . ويعتبر هزيود أول شخصية أدبية لم يشك أحد فى وجودها . أما كتاباته فإنها تتسم بأول جهود حقيقية للكتابات المنظمة ، وهو ما نفتقده لدى هوميروس .

وأكثر من هـذا فإنه اتخذ موقفاً مضاداً بوضوح من هوميروس وشعره مؤكداً أنه لن يفوه « بالأكاذيب » ، بل سوف يعبر عن الحقيقة دون تزييف . ولقـد حاول فى كتاباته بصدد الآلهة ، أن يدخل شيئاً من التناسق بين الآلهة المتعددين ، وذلك بوضع تسلسل محدد ينتظمهم . وبالإضافة إلى هـذا فإنه أسهم بشكل واضح فى التأملات الكونية . ومن بين تلك التأملات مفاهيم جديدة مثل الشواش chaos والأثير ، وأيضاً مفهوم إله الحب Eros كما ذكرعنه أرسطو ذلك دون أن يدفع به ذلك إلى إهمال الشكل الأسطورى للآلهة .

أما فلسفة هزيود بصدد الحياة ، فهى متشائمة بشكل واضح . ويتضح هذا بجلاء فى أسطورة الحِقَب الخمس للعالم ، التى تعتبر نوعاً من الفلسفة البدائية للتاريخ ، وهى الفلسفة التى ترتكز على فكرة التدهور المستمر للإنسانية . وهو يؤكد فى فلسفته أن الحيـاء shame والعـدالة Justice قد هربا إلى الأولمب عندما لم يجدا مأوى لهما يأويان إليه على الأرض .

وعلى الرغم من أن هزيود كان مفعماً بالشكوك فى إمكان تحقيق العدالة بواسطة الحكام الآلهة للأرض ، فإنه كان أبعـد ما يكون عن أن يوصف بأنه كان مفكراً متحرراً .

ولقد ظل هزيود معتقداً طوال حياته فى أن البَرَكة الإلهية لايمكن أن تتأتى للمرء إلا إذا استمسك بالاجتهاد والمثابرة . ووجه هزيود اهتمامه إلى الأخلاق ، وأظهر فى قصة الصقر والبلبل ، أنه وفقاً لإرادة زيوس ، فإن العالم الإنسـانى والعـالم الحيوانى محكومان بقوانين متباينة ، فالعالم الحيوانى محكوم بالقوة العضلية ، أما العالم الإنسانى فإنه محكوم بالعدالة .

وهكذا نجـد أن هزيود بموقفه العقلى الجاد والمتأمل ، وحرصه على أن يعلن للناس عن الحق ، وعلى أن يعمل على تحسينهم خلقياً ، فإنه يكون بذلك قد وقف على الخط الفاصل بين حقبتين ، جاعلا من نفسـه المبشر بالتفكير التأملى . بيد أنه مع هذا ظل فى غمار الأفكار التقليدية لعهده . فنحن لانجد لديه أى محاولة ، سواء من الناحية النظرية أم من الناحية العملية للوقوف فى موقف المعارض للمجتمع المحيط به ، أو لفصم العرى معه .

ولقد نَظَم هزيود ديواناً شعرياً للفلاحين الموجودين فى بيئته أطلق عليه اسم « الأعمال والأيام » ضمَّنه حِكَماً وأمثالاً تسودها فكرة عامة هى فكرة العدالة . يقول هزيود فى ديوانه عن السلك والوحوش

والطيور يفترس بعضها بعضاً ، وذلك لأنها لم تخلق مجبولة على العدالة . أما الناس فقد أنعم عليهم زيوس بالعدالة ، وهى أفضل من أى شىء آخر . ويقول هزيود أيضاً : « إن الملوك الذين يقبلون الهدايا والرشاوى ، لا يقيمون العدل ؛ فعدالتهم زائفة وملتوية ، أما زيوس فإن أحكامه قويمة » . ويقول أيضاً : « من يوقع الضرر على غيره يجلب الشر على نفسه . إن عين زيوس بصيرة بكل شىء . فإذا كان الشخص الذى يحكم لصالحه هو الإنسان الشرير ، إذن فمن الخطأ أن يسلك الإنسان طريق الصلاح . ولكنى لا أعتقد أن يكون زيوس — وهو أحكم الحكماء — قد أقر ذلك . فالواقع أن ساعة العقاب آتية لا شك فى هذا ، وعندئذ يهب زيوس القوة للضعفاء ، بينما يضرب الأقوياء بالمذلة . إنه سوف يحط من قدر من يحب الظهور ، بينما يرفع من شأن المختفين عن الأنظار » .

وهناك ديوان آخر حول أصل الآلهة يرى بعض المحققين أنه مَنْحول وأنه قد دُوِّن فى عهد متأخر عن عهده بقرن أو أكثر ، وهو ديوان تعليمى أيضاً حاول فيه الشاعر أن يضمِّنه مجموعة من الأساطير والمعارف القديمة . وفى صدر الديوان تقرُّب وتضرُّع إلى آلهة الشعر لكى توحى له بما كان ، وما هو كائن ، وما سوف يكون ، وأن تبيح له بقوانين الأشياء قاطبة . وبعد ذلك مضى الشاعر فى ذكر الأشياء والآلهة وفق ترتيب يدل على أنه قد اهتم بمراعاة ما بينها من علاقات سببية ، ثم تدرج إلى النظام الذى يقوم على أساس أن الأصغر يصدر عن الأكبر . فالجبال قد انبثقت من الأرض ، كما انبثقت الأنهار من أقيانوس . وهكذا تصدر الأشياء بعضها عن بعض حتى ينتهى الشاعر إلى ذكر آلهة الأولمب وهم آخر المواليد . ذلك أنه اعتقد أن القوى الطبيعية قد سبقت

الآلهة الذين لم يخلقوا الطبيعة ، بل اقتصرت مهمتهم على مهمة القيام على سياستها وتوجيهها .

والواقع أن هذا الديوان يعتبر أول محاولة ظهرت باليونان تتعلق بالعلم الطبيعى ولكن فى صياغة أسطورية ، كما أن نصيب المخيلة فيه أكبر من نصيب العقل . كذا فإن الشاعر فى هذا الديوان يروى ويسرد دون أن يفسر ويعلل . ذلك أن الأساطير الرمزية كانت مألوفة عند اليونانيين الأقدمين .

على أنه خلال القرنين اللذين مضيا بعد هزيود ، فإن عملية معينة قد اكتملت ، وهى العملية التى كانت لها أهمية عظيمة فى قيام الفلسفة ، أعنى عملية تحرير الفرد . فى هذه الفترة امتد الشعب اليونانى بالأراضى التى كان يمتلكها إلى مساحات شاسعة ، كما ترتب على ما يسمى بالهجرة الدوربانية تأسيس المستعمرات الأولى على ساحل آسيا الصغرى وعلى جزر الأرخبيل . وعندئذ بدأت فترة ثانية من الاستعمار شملت البحر الأسود والبروبونتس وساحل طروادة ، كما نشأت مدن جديدة على الساحل الشمالى لإفريقيا . على أن الحركة كانت تتركز فى الغرب بصفة خاصة . ولقد نشأت منطقة جديدة من الثقافة الهلينية بجنوب إيطاليا وبصقلية مع قيام اليونان العظمى التى صدرت عنها مراكز جديدة فى كورسيكا وجنوب فرنسا واستانيا .

ولا شك أن هذه الحركة التى شملتها حركات الهجرة العظيمة ، والتى جعلت اليونانيين على صلة وثيقة بشعوب أجنبية عديدة ، وفتحت أعينهم بذلك على مناطق لم تكن معروفة لهم من قبل ، قد حملت إليهم تقاليد وعادات متباينة ، وأحدثت فى الوقت نفسه تغيرات اجتماعية وسياسية عميقة فى قوام الشعب الأصلى . وبينما كانت الهجرات العظيمة تشق

Looloo
www.looloo

طريقها ، فإن قوة النبلاء كانت آخذة فى التدهور . فالتغير التدريجى من نظام المقايضة إلى النظام النقدى قد عمل على إحلال النظام البورجوازى المنتعش والطموح ، محل النظام الأرستقراطى المرتكز على ملكية الأرض بالوراثة . والواقع أن الصراع كان عنيفاً ومريراً . وكثيراً ما كان يحدث فى أثناء صراع التجار مع النبلاء ، قيام شخص قوى من التجار بتولى السلطة كحاكم مطلق ، أو قيام الأحزاب المعارضة بتفويض السلطة لرجل مشهود له بالقدرة وبالإحساس بروح العدالة لحل النزاعات . وانتهت أخيراً هذه الحركات العاصفة إلى تشريع دستور ذى طبيعة أوليجارشية أو ديموقراطية . وهكذا خلق النظام السياسى الإغريقى بمعناه الدستورى ، الذى بمقتضاه صار المواطنون ينظرون بحماس إلى حريتهم ، كما كانوا مَشُوقين للمشاركة بإلحاح فى الحياة العامة ، بل ومتطلعين إلى التوسع فى هذا الصدد .

وما حدث فى نطاق السياسة ، حدث أيضاً فى نطاق الشعر . فالنزعة الفردية بدأت فى البزوغ وصارت أعلى صوتاً من صوت الجماهير ، مطالبة بالاعتراف بالفرد والفردية . على أن فردية الشعراء الهوميريين كانت متوارية خلف شعرهم . ولقد شاهدنا عند هزيود المحاولات الأولى للتعبير عن المشاعر والأفكار الشخصية ، ولكنها كانت محاولات مستحيية متهيبة .

ففى هذه المرحلة خلق الشعر الغنائى ، وهو الشعر الذى يحمل المشاعر الشخصية بأجلى معانيها ، بينما نجد أن الشعر الملحمى الذى كان يدبَّج فى إطار نزعة مادية هادئة ، كان يحكى المغامرات البطولية الرائعة التى اضطلعت بها الأجيال السابقة ، كما أن الشاعر الغنائى كان يعمد إلى صب خبراته الشخصية فى غنائه تحت تأثير دوافعه العاطفية . فعالَم الشاعر احتل

مكانة هامة جديدة . وكذا فإن الموقف من الطبيعة لم يعد مقتصراً على الملاحظة والوصف ، بل صار موقفاً وجدانياً ، فاهتم جميع شعراء هذه الحقبة بالتأثير وجدانياً فى معاصريهم ، كما اهتموا إلى جانب هذا بالجوانب الخلقية والتعليمية . ويتبدى هذا بجلاء فيما كانوا ينسجونه من قصص خرافى .

وكما حدث فى مجال السياسة والأدب ، حدث أيضاً فى المجال النفسى للأفراد . فلقد صار الفرد شاعراً بنفسه إلى حد بعيد ، كما صار شاعراً بما يحوزه من قوة وأهمية . ومن ثم فإنه أخذ فى تحطيم التقاليد التى كانت سائدة ، ويُحِلّ محلها تقاليد جديدة . ولعلنا نلاحظ أنه خلال القرنين السابع والثامن قبل الميلاد اجتاحت الديانة اليونانية موجة من هذا القبيل فظهر رجال دين وأنبياء ثائرون وحصلوا على مكانة هامة بين الناس . فالعبادات القديمة لم تعد تفى بالعلاقات الشخصية الشافية بين الفرد وخالقه وهذا كان راجعاً بلا شك إلى ما حدث من تغيرات فى قوام الشعب اليونانى . ولا شك أن عدم ضمان الاستقرار الاقتصادى وتهديد الحياة بسبب الثورات السياسية ، قد ترك أثراً عميقاً بإزاء الأمور الأرضية ، ودفع بالناس إلى التطلع إلى المسائل الروحية فيما بعد الموت ، أعنى الحياة الأخرى التى يمكن أن تكفل إحساساً بالأمن والديمومة فى غمار العالم الفانى . وهكذا يكون الشعب اليونانى قد استعد نفسياً وعقلياً لقيام الفلسفة فى ربوعه .

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

الفصل الثالث

طـــاليس

THALES

(٦٢٤ – ٥٤٦ ق م)

من ميليتوس ببلاد اليونان ، وهو من معاصرى سـولون Solon وكرويسس Croesus ، وأبوه كاربانى وأمه يونانية . ولقد انخرط فى جيش ملك ليديا فى حملته ضد الفرس ، وساعد جيشه فى اختراق صفوف جيش الأعداء ، وذلك بتحويل مجرى النهر . وكذا فإنه نصح الإيونيين بأن يشكلوا جبهة سياسية متحدة ضد تهديد الفرس لهم ، كما يقول هيرودوت. وطاليس هو أحد الحكماء السبعة ، ولكنه انفرد بالعناية بالعلم الطبيعى ، بينما عنى الباقون بالسياسة والأخلاق ، وقد تجول فى أنحاء الشرق وتبحر فى العلوم . ومما يذكر عنه أنه عمل كمهندس حربى فى خدمة قارون (آخر ملوك ليديا فى آسيا الصغرى) ، وبرهن على أن الزوايا المرسومة فى نصف الدائرة هى زوايا قائمة ، كما قام بعدة رحلات ، فزار مصر واستطاع أن يحسب طول الأهرامات بواسطة أطوال ظلالها ، كما أنه وقف على علوم البابليين . ولقد استطاع أن يتنبأ بموعد كسوف الشمس الذى حدث فى ٢٨ مايو عام ٥٨٥ ق م (وفقاً للتقويم الجولياني) ، كما قدم تفسيراً – وإن كان تفسيراً زائفاً – عن أسباب فيضان النيل .

وقام طاليس بصنع أداة يمكن بها تحديد أبعاد السفن التى تشاهد بالبحر ، ووجه انتباه البحارة إلى أن الدب الأصغر هو آمن موجّه لهم

فى تحديد الاتجاه نحو الشمال . وثمة أيضاً فروض هندسية قليلة أخرى بدائية تعزى إليه .

ولاشك فى أن هذه الدراسات الرياضية وحسه العلمى الذى أيقظته تلك الدراسات ، كان لهما أبعد الأثر فى محاولته لتفسير الأساس الأول الذى تقوم عليه الأشياء . وعلى الرغم من أنه أغضى عن التفسيرات الغيبية ، فإن إسهامه فى المجال الفيزيائى كان محدوداً بحدود المدى الضيق للرياضيات الإغريقية . فلقد اعتبر الماء الجوهر الذى صنع منه كل شىء ويتكون منه كل شىء . وأكثر من هذا فإنه اعتقد أن الأرض طافية على سطح الماء مثل قطعة من الخشب . وهذا الزعم جعل من الممكن تفسير أو تعليل ثبات الأرض فى مركز العالم . وقد ذكر أرسطو ذلك الفرض ذاكراً أنه لم يكن لديه شىء مما قام طاليس بكتابته ، والأرجح أن طاليس لم يكتب شيئاً عن ذلك . والواقع أن ما ذكره بعض الكتاب المتأخرين عن تلك الكتابات وما تتضمنه من نظريات قال بها طاليس ، هو فى الواقع منحول . فمن الواضح أن طاليس لم يقدم تفسيراً مفصلاً عن الطريقة التى خلقت بها الأشياء من الماء .

أما أثره فى الفلسفة فيكمن فى أنه وضع المسألة الطبيعية وضعاً نظرياً بعد أن كان الشعراء يقدمونها قبله فى قالب أدبى ، فشق بذلك للفلسفة طريقها ، فكان بذلك الرائد الأول للفكر الفلسفى ، لأنه تناول الطبيعة بالفكر النظرى . صحيح أن قوله بأن الماء هو أصل كل شىء كان مألوفاً عند الأقدمين ، ولكنه كان مسوقاً فى قالب غيبى أو أدبى . فلقد ورث بنا عبارة هوميروس أن أقيانوس المصدر الأول للأشياء ، ومن قبله ذكرت أسطورة بابلية : « فى البدء قبل أن تسمى السماء ، وقبل أن يعرف للأرض اسم ، كان المحيط وكان البحر » . وجاء فى قصة مصرية قديمة :

www.dvd4arab.com

« فى البدء كان المحيط المظلم أو الماء الأول حيث كان آتون وحده الإله الأول صانع الآلهة والبشر والأشياء » . وجاء فى التوراة : « فى البدء خلق الله السموات والأرض ، وكانت الأرض خاوية خالية ، وعلى وجه الغمر ظلام وروح الله يرف على وجه المياه » .

ويعادل هذه الأقوال قول علمائنا الآن إن تكوين العالم بدأ منذ أن تحولت الأبخرة الأولى إلى ماء . ولكن طاليس يمتاز بأنه دعم رأيه بالدليل فقال : « إن النبات والحيوان تغتذى بالرطوبة ، ومبدأ الرطوبة الماء ، فما منه يغتذى كل شىء يتكون منه بالضرورة ، ثم إن النبات والحيوان يولدان من الرطوبة . والجراثيم الحية رطبة ، وما منه يولد الشىء ، فهو مكون منه ، بل إن التراب يتكون من الماء ويطغى عليه شيئاً فشيئاً ، كما يشاهد فى الدلتا المصرية وفى أنهر أيونية حيث يتراكم الطمى عاماً بعد عام وما يشاهد فى هذه الأحوال الجزئية ينطبق على الأرض بالإجمال ، فإنها خرجت من الماء وصارت قرصاً طافياً على وجهه كجزيرة كبرى فى بحر عظيم ، وهى تستمد من هذا المحيط اللامتناهى العناصر الغاذية التى تفتقر إليها . فالماء أصل الأشياء » (يوسف كرم — تاريخ الفلسفة اليونانية ص ١٢ و ١٣) .

ومن المرجح أن يكون طاليس قد نظر إلى القوة المحركة فى ارتباطها بالمادة ، وهذا تبعاً للديانة الطبيعية القديمة مُناظر للروح الإنسانية فى ارتباطها بالجسد . ويتضح هذا أيضاً فى قوله بأن كل شىء مفعم بروح الله ، وأن للمغنطيس روحاً أيضاً ، أى حياة ، ما دام يجذب الحديد إليه . فطاليس اعتقد أن المادة مفعمة بالحياة وبها روح . وهذا الاعتقاد قد سرى بعد ذلك فى الفلسفات التالية التى تجعل المادة مفعمة بالحياة Hylopsychism .

وعلى الرغم من أن طاليس لم يميز بصراحة فيما بين المادة وبين القوى الخالقة باعتبارها آلهة أو روح العالم ، فإن ثمة قولاً آخر يذكره له أرسطو هو « أن العالم مملوء بالآلهة » . ويغلب أن يكون هذا القول معناه أنه مملوء بالأنفس ، أى أن كل فعل إنما هو من النفس ، وأن النفس مُنْبثة فى العالم أجمع ، فتكون المادة حية ويكون الماء المؤلفة منه الأشياء حاصلاً على قوة حيوية حاضرة فيه دائماً وإن لم تظهر دائماً ، وسيشترك فى هذا الرأى الطبيعيون الأولون .

والواقع أن أهمية طاليس تتمثل فى نظرته الوضعية إلى الوجود ، وفى أنه رد الكثرة والتنوع إلى شىء واحد ، ففتح الباب بذلك أمام الفلاسفة التالين بعده لتقديم تفسيراتهم التى وإن تباينت عن التفسير الذى قدمه ، فإنهم جميعاً اتفقوا معه فى المنهج الذى شقه واختطه لأول مرة فى التاريخ . وهو بدل أن يفسر تنوع الكائنات بتشخيص القوى الطبيعية والرواية عن الآلهة ، فإنه نظر إليها باعتبارها أشياء محسوسة ووضعية . وحاول الاستقراء والبرهنة . فهذا النظر وهذا المنهج — كما يقول يوسف كرم — هما الربح الذى عاد على الفلسفة .

ويدافع برتراند رسل عن فلسفة طاليس بقوله إن قول طاليس بأن كل شىء قد صدر عن الماء أو صنع منه ليس افتراضاً علمياً سخيفاً بأى حال . فمنذ بضع سنوات قليلة ذهب العلماء المعاصرون إلى القول بأن كل شىء قد صنع من الأيدروجين . والمعروف أن الأيدروجين يشكل ثلثى مكونات الماء . ويعتقد رسل أنه على الرغم من أن اليونانيين كانوا مندفعين وغير متروين فى فروضهم ، فإن المدرسة الميليسية التى تزعمها طاليس كانت على الأقل مستعدة لدراسة تلك الفروض بطريقة وضعية . ويقول رسل أيضاً إننا لا نعرف سوى القليل عن طاليس حتى

Lotus

يتسنى لنا تقييمه بطريقة مُرْضية . ولكن الفلاسفة الذين أتوا بعده فى ميليتوس معروفون أكثر منه . ومن الحق أن يقال إن بعض ما ذهبوا إليه من أفكار قد صدر عنه . فعلى الرغم من أن تفكيره العلمى وتفكيره الفلسفى قد اتسما بالفجاجة ، فإنهما على أية حال قد عملا على إثارة فكر وملاحظة الفلاسفة الذين تلوه .

وهناك كثير من القصص دارت حول طاليس ، وقد قام أرسطو بسرد واحدة من تلك القصص فى كتابه « السياسة » كما يقول رسل . فلقد أخذ مواطنوه يعيِّرونه بسبب فقره ، مؤكدين له أن الفلسفة التى يشتغل بها لا تورث سوى الفقر ، وأنها خلو من أية فائدة ، وأنها مجرد كلام لا يثمر ولا يشبع من جوع ، ولا يروى من عطش ، ولا يكسو عارياً ولا يعالج مريضاً . ووفقاً لهذه القصة فإنه علم بحذقه فى علم النجوم — وقد كان الوقت شتاء — أن الموسم التالى لمحصول الزيتون سوف يكون عظيماً . وحيث إن المال الذى كان فى حوزته قليل ، فإنه قام باستئجار جميع المعاصر الموجودة فى تشويس وميليتوس ، وكان استئجاره لها بمبالغ ضئيلة ، لأنها لم تكن تعمل فى ذلك الوقت . ولم يكن ثمة أحد مقبل على استئجارها سواه . وعندما حل وقت الحصاد ، أقبل الناس بمحصولهم لعصره دفعة واحدة ، فأخذ يماطلهم ويسوف دورهم فى العصر . فكانوا يزايدون وهو يرفع سعر العصر كما يشاء وإلا بار المحصول ، وبذا فإنه ربح أموالاً طائلة . وبعد أن جمع الثروة أعلن على الدنيا أن الفلاسفة يستطيعون إذا أرادوا أن يصيروا أغنياء ، فإنهم بعلمهم وحصافتهم يتمكنون من ذلك بسهولة ، ولكن طموحهم وأملهم يتعلق بشىء أعظم من المال .

ويتضح من هذه القصة التى أوردها أرسطو بكتابه « السياسة » أن ميليتوس ، وهى المدينة التى نشأ بها طاليس وعاش فيها ، كانت تقع بأسيا الصغرى ، وكانت مدينة تجارية مزدهرة ، وقد كانت تعج بعدد كبير من العبيد ، وشملها صراع طبقى مرير بين الأغنياء والفقراء فى مناخ كان يتسم بالحرية فى التعبير ، وقد أفعمت القلوب بعشق الحرية . وفى البداية فإن شعب ميليتوس انتصروا على الطبقة الأرستقراطية وقاموا بقتل زوجات وأطفال الأرستقراطيين ، ولكن أفراد هذه الطبقة الأرستقراطية أمسكوا بزمام الموقف من جديد وقاموا بحرق معارضيهم وهم أحياء ، وقاموا بإشعال النار فى خصومهم ، فصاروا بمثابة شموع بشرية محترقة . والواقع أن ظروفاً مشابهة قد عمت معظم مدن اليونان وآسيا الصغرى فى أيام طاليس .

ولقد مرت ميليتوس بتطورات اقتصادية وسياسية هامة خلال القرنين السابع والسادس قبل الميلاد ، شأنها فى ذلك شأن غيرها من مدن تجارية فى إيونيا . ففى البداية كانت القوة السياسية فى أيدى الطبقة الأرستقراطية للأرض . ولكن هذه الطبقة قد حلت محلها بالتدريج الطبقة الثرية الحاكمة من التجار . بيد أن هذه الطبقة بدورها قد انزاحت ليحل محلها طاغية اكتسب قوته بدعم من الحزب الديموقراطى ، كما كان يحدث كثيراً . وكانت هناك أيضاً علاقات هامة بين اليونان ومصر ، فكان ملك مصر يعتمد إلى حد بعيد على تجارة اليونان ، وكان يفتح مدناً معينة أمام التجارة اليونانية . وكانت أول إقامة لليونانيين فى مصر متمثلة فى قلعة احتلها حرس ميليسيانيون ، ولكن أحد البطالمة لم يحدث فى الفترة ما بين ٦١٠ و ٥٦٠ ق م . ففى هذه الفترة أقام ترميا والكثير

Looloo

من اليهود الفارين من وجه نبوخذ نصّر فى مصر . على أن مصر هى التى أثّرت بلا شك فى اليونانيين . أما اليهود فلم يؤثروا فيهم ، بل إن أرميا — كما يقول برتراند رسل — لم يشعر بشىء تجاه الإيونيين ، سوى الرعب منهم والتشكك فى نواياهم ، وفيما يضمرونه من شر له ولغيره من اليهود .

* * *

الفصل الرابع

انكسيمندريس

ANAXIMANDER

(٦١٠ — ٥٤٥ ق م)

هـذا الفيلسوف المتميز والمؤثر ، كان مواطناً معاصراً لطاليس ولكنه كان أصغر منه . أما أنه كان من أسرة عالية المقام ، فإنه يتضح من أنه قاد حملة ملطية إلى أبولونيا على البحر الأسود . ولقد كان يشار إليه بالبنان من جانب مواطنيه بفضل علمه بالفلك والجغرافيا . فاضطلع ببحوثه الخاصة بالدراسات الفلكية بفضل ما بثّه فيه طاليس من حماس للاضطلاع بها . أما نتائج بحوثه فقد ضمنها فى عمل ، ولكنه فقد منذ عهد بعيد .

وهكذا يعتبر أنكسيمندريس أقدم كاتب يونانى يسجل بحوثه بلغة منثورة ، كما أنه يعتبر أقدم من قام بالتأليف فى الفلسفة . ولقد بقيت هذه الجملة محفوظة من أعماله : « إن بداية الوجود انطلق من اللاتعين » ولكن طالما يزغ هذا اللاتعين ، فلابد أنه عائد إلى أصله اللامتعين » . ولم يقع أنكسيمندريس لدى بحثه بإزاء المادة الأصلية التى صدر عنها الوجود على واحد من العناصر الأربعة ، ولا على مادة توجد بين الهواء والنار ، أو بين الهواء والماء ، ولا على مزيج من هذه العناصر الفردية .

ولقد برهن أنكسيمندريس على أن المادة الأولى لا يمكن أن تكون الماء ، أو أى عنصر آخر معروف من المواد المعروفة ، فلو أن إحدى

Loolbo
www.dvd4arab.com

تلك المواد كانت المادة الأولى التى انبثق منها الوجود بأسره ، لكانت إذن قادرة على قهر باقى المواد الأخرى . ويقول أرسطو بصدد ذلك ، إنه قال إن هذه العناصر المعروفة تقف معارضة بعضها لبعض . فالهواء بارد ، والماء رطب ، والنار حارة . ومن ثم فلو أن إحدى تلك المواد كانت متناهية ، إذن لكانت المواد الأخرى قد توقفت عن الوجود . وعلى هذا فلابد من أن المادة الأولى حيادية فى هذا الصراع الكونى .

ويعتقد أنكسيمندريس أن ثمة حركة أزلية يرجع إليها فى سياقها منشأ العوالم المتباينة ، كما يعتقد أن العوالم لم تخلق ، بل تطورت ، كما كان هناك أيضاً تطور فى المملكة الحيوانية . فالكائنات الحية نشأت من العنصر الرطب ، بينما كان يتبخر بفعل أشعة الشمس . والإنسان — شأنه شأن كل الحيوانات الأخرى — قد انحدر من أصل سمكى . ولابد أنه قد استمد وجوده من حيوانات متباينة الأنواع . ذلك أنه فى ضوء طفولته الطويلة لم يكن له أن يستمر موجوداً أصلاً كما هو شأنه اليوم .

والواقع أن أنكسيمندريس كان شغوفاً بالتفكير العلمى . ويقال إنه أول شخص قام برسم خريطة ، وإنه رسم الأرض على هيئة اسطوانة ويقال أيضاً إنه زعم أن الشمس مساوية فى حجمها لحجم الأرض . ومهما يكن من أمر فما لا شك فيه أن انكسيمندريس كان أصيلاً فى فكره ، كما أنه كان ذا تفكير علمى ، ومتمسكاً بالعقلانية فى تفكيره . وكان مواطنوه فى ملطية يمجدونه لمشاركته الشخصية فى تقدم العلم .

ومما يذكر عنه أنه هو الذى اخترع المزولة ، والأرجح أنه أخذها عن البابليين ، إذ أنها كانت معروفة عندهم ، كما أنه صنع كرة فلكية ، ووضع خريطة استناداً إلى المعلومات التى كان يأتى بها اليونان إلى

ملطية من أنحاء العالم المعروف وقتئذ ، فرسم الأرض تحيط ببحر ويحيط بها بحر .

والمادة الأولى فى رأيه غير متناهية بمعنيين : أولاً : من حيث الكيف ، أى أنها لا متعينة ، وثانياً : من حيث الكم ، أى لا محدودة ، فهى كما يقول ثيوفراستوس وأرسطو إن أنكسيمندريس إما أنه قد ميز هذا العنصر غير المتعين واعتبره مغايراً لكل المواد ، وإما أنه لم يقدم تفسيراً تفصيلياً حول طبيعة هذا العنصر ، وهذا هو الأرجح . ولكنه رغب فقط فى تمييز أو تعيين تلك المادة التى لم تحمل أياً من الخصائص المميزة للعناصر المعروفة . ولكى يدعم أنكسيمندريس وجهة نظره ، فإنه قال إنه لو كانت تلك المادة متعينة ، لكانت إذن قد استهلكت نفسها فى عملية الخلق . فتلك « المادة المتعينة غير مستحدثة من جهة ، وغير قابلة للفساد من جهة ثانية ، كما أن حركتها أزلية أبدية من جهة ثالثة » .

ولقد نجم عن هذه الحركة « انفصال » مواد معينة منها . وفى البداية فإن الحار والبارد قد انفصلا عنها ، ومن هذين العنصرين نشأت الرطوبة ومن الرطوبة نشأت الأرض والهواء ، كما نشأت « دائرة النار » التى تحيط بالأرض مثل قوقعة مستديرة ، ثم انفجرت هذه الدائرة وشكلت دوائر مثل سيور العجلة . وهذه السيور مملوءة بالنار ، ولها فتحات . وهى تتحرك بواسطة التيارات الهوائية ، وتدور حول الأرض بزاوية تميل نحو الأفق . والنار تتدفق من الفتحات ، بينما هى تدور وتتجدد باستمرار بواسطة التبخر من الأرض . وبذا تظهر الكواكب وهى تزحف خلال فضاء السماوات .

والواقع أن هذه الفكرة تبدو غريبة بالنسبة لنا تماماً ، ولكنها فى

Looloo
www.looloo.net

الواقع المحاولة الأولى كما نعلم لتقديم تفسير آلى للحركة المنتظمة للكواكب ، وهو التفسير الذى مهد للنظرية التى تلت ذلك بصدد الكواكب . فلقد تصور انكسيمندريس الأرض كأسطوانة قطرها ثلاثة أضعاف طولها . ولقد قال بفكرة جريئة هى أنها تسبح بحرية فى وسط الكون . وحيث إنها تسبح فى المسافة المتوسطة من حدود العالم ، فقد تعتبر إذن فى حالة سكون .

ويعتقد أنكسيمندريس أن الأرض كانت فى البداية فى حالة سيولة ، وبعد ذلك وبالتدريج أخذت تجف ، ومن ثم فإنها أفعمت بالكائنات الحية . وكان الناس فى بداية الأمر مغلَّفين بغطاءات تشبه قشر السمك ، كما كانوا يعيشون فى الماء ، ولم يزحفوا إلى اليابسة إلا بعد أن تطوروا بدرجة كافية تسمح لهم بأن يحموا أنفسهم على اليابسة . ويؤكد ثيوفراستوس أن انكسيمندريس قال بمراحل فترية متعاقبة بين الخلق والفناء فى الكون ، ومن ثم تكون هناك عوالم متوالية بغير بداية أو نهاية . وبالإضافة إلى هذا فإن أنكسيمندريس قال بوجود متزامن لنظم كونية لعوالم لانهائية فى الفضاء غير المحدود .

فالتطور إذن هو قانون عام شامل للوجود . فالأشياء تخرج من ذلك الكيان اللانهائى وغير المحدد ، ثم تنحل وتعود إليه ويتكرر الوجود والانحلال إلى مالا نهاية . فمن الأشياء ما «يشرق ويُغرب فى آجال بعيدة» هى العوالم التى لا تحصى ، ومنها ما يتكون ويفسد فى أوقات قصيرة «ويعوض بعضها البعض على مر الزمان» وهى الجزئيات مثل الحرارة تشرب ماء الأرض ، فيرد البخار هذا الماء للأرض مطراً . وهكذا إلى مالا نهاية . فالحركة دائمة والموجودات متغيرة ، والمادة اللامتناهية وغير المحددة باقية . فهى أزلية وأبدية وغير قابلة للاندثار .

فأنكسيمندريس يفسر تكوين الأشياء وانحلالها تفسيراً آلياً محضاً ، أى بمجرد اجتماع عناصر أو شروط مادية وافتراقها بتأثير الحركة دون علة فاعلة متمايزة ، ودون وجود غاية تصبو إليها ، أو هدف تريد تحقيقه . وهو فى تصوره لهذا التكوين والتفرُّق يكاد يقترب من تصور كثير من العلماء المحدثين (لابلاس مثلا) ، ويكاد يقول بمذهب التطور فى عالم الحياة ، بل يكاد يقول بقانون الجاذبية لولا أن رأيه يرجع — على حد تعبير أرسطو — إلى أن الأرض المستقرة فى مركز العالم تشبه رجلاً يهلك جوعاً ، لأنه لايجد سبباً يحمله على الأكل من طبق دون آخر من أطباق تحيط به على مسافة واحدة . وهوعندما يمد الوجود إلى غير حد فى المكان وفى الزمان فيقول بعوالم لاتحصى وبدورات وجودية تتكرر إلى مالا نهاية ، فإنما يكون صادراً فى ذلك عن مخيلة تأبى أن تتمثل حداً للمادة ، وخلاء لايوجد به أى شىء . وهذا القول الأخير قديم وربما نشأ من النظر فى حركات الأفلاك التى تتجدد باستمرار وتتأيد بتحول الأجسام بعضها إلى بعض وتكرار الفصول بشكل منتظم .

وعلى أية حال فإننا نجد أن أنكسيمندريس يؤمن بوجود ضرورة مطلقة وقانوناً كلياً يسيطر على الوجود بأسره ، وهو يفسر كيف أن الوجود لم يبدأ ولن ينتهى — وهذه عقيدة شائعة بين فلاسفة اليونان — يسميها الإسلاميون بالدهرية لقولها إن الدهر دائم لا أول له ولا آخر — غير أن أنكسيمندريس مع إنكاره على طاليس أن يكون المبدأ الأول شيئاً معيناً متمثلاً فى الماء ، فإنه قد وضع مبادئ عديدة معينة هى هذه الأضداد الموجودة فى اللامتناهى وغير المتعين دون أن يبين أصله .

فهذه المادة اللامتناهية وغير المحددة ، هى المادة غير المتعينة التى

Looloo
www.looloo.com

تنبثق منها جميع المواد المتعينة التى نألفها هى أصل الوجود ؛ وهى محكومة بقانون التطور والأضداد . وهذه المواد المتعينة والتى نألفها تستحيل إلى بعضها البعض . فهذه المواد التى تنشأ عن المادة غير المتعينة تتلاشى بدورها كما هو محدد لها، وذلك — حسب تعبير أنكسيمندريس — تعوض بعضها بعضاً، وتعمل على إرضاء بعضها بعضاً، وذلك لتعويض عن عدم تحرى العدالة .

والواقع أن فكرة العدالة — سواء فيما يتعلق بالوجود الكونى، أم بالنسبة للوجود الإنسانى — تلعب دوراً هاماً، سواء فى الديانة اليونانية أم فى الفلسفة اليونانية . وهما اللذان يصعب على الإنسان الحديث فهمهما. وحتى لفظ « عدالة » نفسه الذى نستخدمه لتقريب المعنى ، لا يفى بالغرض المقصود ، ولكن من الصعب أن نعثر على كلمة أخرى بديلة تفى بالغرض أفضل منها . وما يعنيه أنكسيمندريس لتحقيق العدالة، أن من المحتم أن تكون ثمة نسبة محددة من النار ، ومن الأرض ، ومن الماء بالعالم ، ولكن كل واحد من هذه العناصر (يتصوره كإله) يحاول دائباً توسيع مملكته . ولكن ثمة نوعاً من الحتمية التى يفرضها قانون طبيعى يعمل على تحقيق التوازن فيما بينها . فعندما توجد النار مثلاً ، يوجد أيضاً الرماد الذى هو الأرض . والواقع أن هذا المفهوم المتعلق بالعدالة — أعنى عدم تخطى الحدود الثابتة أبدياً — كان من أكثر المعتقدات اليونانية عمقاً وتأصلاً فى العقول والقلوب . وحتى الآلهة اليونانيين كانوا خاضعين للعدالة ، شأنهم فى ذلك شأن الناس . بيد أن هذه القوة العليا ذاتها لم تكن مشخصة، ولم تكن إلهاً مشخَّصاً ، ولم يكونوا يعتبرونها ضمن الآلهة ، بل كانت المبدأ الذى يخضع له الجميع بمن فى ذلك آلهتهم أيضاً .

وفى ضوء ما ذهب إليه أنكسيمندريس وغيره من الفلاسفة اليونانيين، نجد أن العوالم قد نشأت نتيجة الحركة الأزلية . وهى غير مخلوقة كما نعتقد نحن، بل نشأت نتيجة التطور . والتطور هو القانون الشامل لجميع الكائنات الحية وغير الحية . ولا يسيِّره إله أو يتحكم فيه أو يحمله على تحقيق مقاصده ، بل هو ينشأ بذاته ولذاته .

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

الفصل الخامس

انكسيمانس

ANAXIMENES

(٥٥٠ ؟ — ٤٨٠ ؟ ق م)

هو تلميذ أنكسيمندريس وأقل منه توفيقاً فى العلوم وأقل منه مستوى فى الخيال . بيد أنه أحرز تقدماً هاماً فى بعض المجالات . وهو الثالث فى ترتيب فلاسفة ملطية التى تزعمها طاليس وجاء بعده أنكسيمندريس ، وأخيراً جاء أنكسيمانس الذى لانعرف تاريخ ميلاده وتاريخ وفاته بالضبط ، ولكنه أحرز شهرته قبل عام ٤٩٤ ق م ، إذ أن تلك السنة هى التى هاجم فيها الفرس ملطية ونسفوها فى سياق قمعهم للثورة الأيونية .

وأنكسيمانس ينكر تأثره بأنكسيمندريس ، وكتابته التى أجراها فى نثر أيونى لم يتبق منها سوى شذرات قليلة ، وهو فى نظريته الفيزيائية يختلف عن أنكسيمندريس فى أن مادته الأولى ليست شيئاً معيناً فحسب ، بل إنه اشترك مع طاليس فى القول بمادة ذات خصائص محددة . بيد أنه يتفق مع أنكسيمندريس فى أنه وقع لهذا الغرض على مادة يبدو أنها تشتمل على الخصائص الحقيقية للمادة الأولى التى وقع عليها أنكسيمندريس أعنى أنها بغير حدود فى رأيه ، كما أنها فى حركة دائمة . فهاتان الخصيصتان توجدان فى الهواء . فهو ليس منتشراً بذاته فى « اللاحدود » فحسب ، بل إنه أيضاً فى حركة دائمة وفى تغير مستمر ، وبذا فإن

الهواء (تبعاً للاعتقاد القديم الذى يذهب إلى أن الروح متوازية مع قوة الحياة) ، يكون بذلك هو سبب كل لون من ألوان الحياة ، وسبب كل حركة تتبدى لدى الكائنات الحية . فكما أن أرواحنا المصنوعة من الهواء تجعل لنا قواماً قائماً بذاته ، كذا فإن النفس والهواء يشملان الدنيا .

ومن خلال أزلية الحركة ولا نهائيتها ، فإن الهواء يخضع للتغير ، وهو تغير من نوعين : الأول : التخلخل أو الفقدان ، والثانى : التكثف أو الانضغاط . والعملية الأولى هى فى الوقت نفسه عملية تسخين ، بينما تعتبر العملية الثانية فى الوقت نفسه عملية تبريد . فبواسطة التخلخل يصير الهواء ناراً ، وبواسطة التكثيف يستحيل الهواء تدريجياً إلى سحب ، ثم إلى ماء ثم إلى تراب ، ثم أخيراً إلى صخور . ومن المحتمل أن يكون أنكسيمانس قد استمد نظريته هذه من ملاحظته للعمليات الجوية ومن عملية التنفس .

وفى سياق عملية الخلق ، تكونت الأرض أولاً ، وهى فى رأى أنكسيمانس مسطحة مثل سطح المائدة ، ومن ثم فإنها مسنودة بواسطة الهواء . أما الأبخرة التى تتولد منها ، فإنها تتخلخل وتصير ناراً ، وبعض أجزاء تلك النار ينضغط بعضه فى بعض بواسطة الهواء فيصير نجوماً . والنجوم ذات أشكال مشابهة لشكل الأرض ، وهى تدور حولها ، وعائمة على الهواء (مالم يكن هذا منطبقاً بإزاء الكواكب فحسب) فى اتجاه جانبى مثل قبعة موضوعة بطريقة منحرفة شيئاً ما على الرأس .

والواقع أن أنكسيمانس هو أول من أدرك أن القمر يستمد ضوءه من الشمس ، كما أنه قدم تفسيراً طبيعياً لكسوف الشمس وخسوف القمر ، وقد ذهب إلى أنهما يحدثان بواسطة أجرام عائمة للأرض وهى

Looloo
www.dvd4arab.com

تدور فى الكون . ولقد لاحظ أيضاً قوس قزح والوميض الفوسفورى الذى يبدو فى البحر . وقد فسر قوس قزح بأنه من تأثير أشعة الشمس فى سحابة سميكة فلا تستطيع أشعتها أن تخترقها . وتبعاً لمصدر موثوق من مصادر التاريخ اليونانى فإن أنكسيمانس — شأنه شأن أنكسيمندريس — قد أخذ بنظرية الخلق المتتابع للدنيا بعد تحطمها ، فيحدث الخلق فالفناء، ثم الخلق فالفناء إلى ما لا نهاية .

ويرى برتراند رسل أن تفسير أنكسيمانس للوجود بالهواء وبتخلخله وتكثفه يشمل كل شىء من جهة ، كما أنه فسر به تباين المواد بعضها عن بعض فى ضوء الكم فحسب ، أعنى درجة كثافة الهواء فحسب من جهة أخرى . وعلى ذلك — كما يقول يوسف كرم — فإن تفسيره للعالم بعلة واحدة تعمل على نحو آلى ، وجعله الدنيا بمثابة كائن حى يتنفس ، كما يقول رسل ، فإنه يكون بذلك قد تقدم تقدماً كبيراً بالمذهب الآلى نحو الوحدة والبساطة — وهما غاية هذا المذهب المنطقية — إلى أن تبلور تماماً على يد ديموقريطس .

والواقع أن المدرسة الملطية هامة من الوجهة الفلسفية ، ليس فقط فى ضوء ما أنجزته ، بل فى ضوء محاولاتها فى التفسير أيضاً . وهى قد بزغت إلى الوجود بفضل احتكاك العقل اليونانى ببابل ومصر . ولاشك فى أن ملطية كانت مدينة تجارية غنية ، وقد تخففت من التعصب والخرافات البدائية باحتكاكها بشعوب كثيرة . ومهما كانت التفسيرات التى انتحى إليها الفلاسفة الثلاثة : طاليس وأنكسيمندريس وأنكسيمانس فى ملطية فجة ، فإنها تعبر عن تغير أساسى قوى ، وعن نزوح بعيد عن التصورات الأسطورية ، وعن امتداد نحو تفسير طبيعى وعلمى للعالم . فنجد أن إله الحب Eros الذى هو شخص حى عند هوميروس ، وهو

رسول الآلهة ، قد استحال فى مدرسة ملطية إلى ظاهرة جوية تجد لها تفسيراً طبيعياً .

فالمدرسة الملطية — كما يقول يوسف كرم — إذ توجهت إلى العالم المحسوس ، تحاول معرفته بالملاحظة والاستدلال ، قد وضعت أسس العلم الطبيعى ، وهى إذ اعتبرت المادة قديمة حية أو متحركة بذاتها ، وتخيلتها تتحول إلى صور الوجود المختلفة بموجب ضرورة طبيعية ، أى بقانون ثابت ، فإنها تكون قد وضعت بذلك أسس الأحادية المادية المعروفة فى الفلسفة الحديثة ، والتى ترد الأشياء إلى جوهر مادى واحد، وتفسرها بتطور هذا الجوهر فى الشكل والكم ليس غير . وبهذه النظرية سيقول أيضاً هرقليطس .

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

الفصل السادس

هـــرقليطس

HERACLITUS

(٥٤٤ – ٤٨٤ ق م)

ولد فى أفسس التى صارت بعد خراب ملطية على أيدى الفرس (٤٩٤ ق م) ، أقوى مدن آسيا الصغرى ، وضمت فى نطاقها مزار أرتميس ، الذى كان رمزاً خالداً لاندماج الثقافة الشرقية مع الثقافة اليونانية . وكانت أسرة هرقليطس واحدة من أعرق الأسر ، وكان موقفه فى الحياة العامة متمشياً مع تقاليد أسرته . وكان فى الوقت نفسه – باعتباره واحداً من سلالة الطبقة الأرستقراطية – معارضاً لحكم الاستبدادى الذى ظل متحكماً فى مدينته ومسقط رأسه مدة طويلة ، كما أنه كان مناهضاً للديمقراطية التى كان يحس بالنفور من أنشطتها ، ومن ثم فإنه فضل الاعتكاف فى مزار أرتميس . وهو كشخصية ذات عقلية جادة وعميقة ، كان ممتلئاً بالاحتقار لأنشطة وآراء الناس المحيطين به ، إذ أنه لم يجد ما يشبع نهمه العقلى حتى لدى أكثرهم حكمة . ومن ثم فإنه اختط لنفسه خطاً مستقلاً فى البحث والتأمل . ولقد عمد إلى تدوين نتائج تأملاته فى عمل له (بلا عنوان) دون أن يضمنه أى تفسير تفصيلى ، فكان مفعماً بالتشبيهات ، ونادراً ما كان يتضمن بلاغة لفظية ، مما جعله مفعماً بالغموض .

ولقد أكسبه هذا المنهج اسماً مستعاراً هو « الغامض » ، وهو نفسه

اعتقد أن علو مكانة الفكر الذى توصل إليه ، لابد من أن ينتحى هذا المنحى وهذا يجلى لنا عن عقليته ، تلك العقلية التى كانت تعمل لديه بواسطة الحدس intuition أكثر من تقديمه لتصورات ذهنية ، وهى العقلية التى كانت كَلِفة بالمركبات الذهنية أكثر من تحليل الفكر المركب إلى وحداته الدقيقة . وقد قال هو نفسه عن أسلوبه : « إنه لا يفصح عن الفكر ولا يخفيه ، بل يشير إليه » . والواقع أن الشذرات المائة والثلاثين التى بقيت لنا من كتابه ، تدل على ذلك دلالة كافية . كما أن ازدراءه للعلم الجزئى تركه جاهلاً بالطبيعة جهلاً فاضحاً ، وهبط به إلى صفوف العامة . فقد اعتقد مثلاً أن غروب الشمس هو انطفاؤها فى الماء ، وأنها تتجدد كل يوم ، وأن قطرها قدم واحدة كما يبدو للبصر ، وغير ذلك من الأوهام ، أما فلسفته فعميقة قوية ، وهى التى خلدت اسمه وكان لها أثر بعيد .

وكان هرقليطس يباعد بينه وبين الناس ، وكان يحتقر العامة ومعتقداتها الدينية ، وعباداتها السخيفة ، ومعارفها التقليدية ، كما كان ينقم على هوميروس وهزيود لأنهما اتبعا الخرافات والأضاليل ، ويستخرج من أقوالهما ما يدل على جهلهما وعبثهما ، فيشبههما تارة بالأطفال ، وأخرى بالكلاب ، وثالثة بالحمير ، بل إن كبرياءه تعدت العامة إلى العلماء ، فكان يزدرى « العلم الجزئى الذى لا يثقف العقل » ، ونعى على فيثاغورس وأكسانوفان لاشتغالهما به . فهرقليطس لم يحسب ولم يرسم ولم يجر التجارب ، ولكنه كان يعتبر العلم الجدير به هو التفكير العميق فى المعانى الكلية ، ويخلع عليها أسلوباً فخماً مبهماً كثير الرمز والتشبيه .

Looloo
www.dvd4arab.com

وكان ينعى أيضاً على أهل مدينته أفسس فيقول : « لعل الأفسسيين يصنعون خيراً إذا هم قاموا بشنق أنفسهم ، أعنى شنق كل رجل راشد بينهم نفسه ، وأن يتركوا المدينة للصبية الصغار الذين لم تنبت لحاهم بعد ، وذلك لأنهم حكموا على هرمودورس (صديق هرقليطس) بالطرد وهو أفضل رجل بينهم قائلين « إننا لانريد أن يكون بيننا أعظم الرجال » . والواقع أن احتقاره للبشرية قد قاده إلى الاعتقاد فى أن القوة وحدها هى التى سوف تجبر الناس على أن يتصرفوا بما يحقق لهم الخير . وهو يقول : « إن كل السائمة تُدفع بالضرب إلى المراعى الخضراء » . ويقول أيضاً : « إن الحمير تفضل العلف على الذهب » .

وعلى الرغم من أن هرقليطس كان إيونياً ، فإنه لايعد ضمن فلاسفة ملطية . ولقد كان ناسكاً ، ولكن من نوع معين . لقد اعتبر النار هى المادة الأصلية التى انبثق منها الوجود . فكل شىء شأنه شأن اللهيب يولد نتيجة موت شىء آخر . « والنار التى يقصدها هرقليطس ليست النار التى ندركها بالحواس ، بل هى نار إلهية لطيفة جداً وأثيرية . إنها نسمة حارة حية عاقلة أزلية أبدية تملأ العالم . ولكن يعتريها بعض الوهن فتصير ناراً محسوسة ، ويتكاثف بعض النار فيصير بحراً ، ويتكاثف بعض البحر فيصير أرضاً . وترتفع من الأرض والبحر أبخرة رطبة تتراكم سحباً فتلتهب وتنقدح منها البروق وتعود ناراً ، أو تنطفئ هذه السحب فتكون العاصفة وتعود النار إلى البحر . وتتكرر الدورات . فالتغير يجرى فى طريقين متعارضين : طريق إلى أسفل ، وطريق إلى أعلى ، مع بقاء كمية المادة الأولى أو النار واحدة . ومن تقابل هذين التيارين يتولد النبات والحيوان على وجه الأرض . غير أن النار تخلص شيئاً فشيئاً مما تحولت إليه ، فيأتى وقت لايبقى فيه سوى النار ، وهذا

هو « الدور التام أو السنة الكبرى » التى تتكرر إلى غير نهاية بموجب قانون ذاتى ضرورى (لوغوس) . فالمعادلة متصلة من الأشياء إلى النار ، ومن النار إلى الأشياء ، كما يستبدل الذهب بالسلع وتستبدل السلع بالذهب » . (وتلك الأشياء المتزاوجة هى أشياء كلية وأشياء ليست كلية ، وكذا ما يلتحم بعضه مع بعض ، وما يفترق بعضه عن بعض ، وكذا ما ينسجم بعضه مع بعض ، وما يتنافر بعضه من بعض) . فالواحد مكون من جميع الأشياء ، وجميع الأشياء تصدر عن الواحد .

بيد أن هرقليطس يتحدث فى بعض الأحيان كما لو أن الواحد أكثر أهمية وتأصلاً من الانقسام ، فيقول مثلاً : « إن الخير والشر متحدان » ، وأيضاً : « بالنسبة لله ، فإن جميع الأشياء سديدة وجيدة وصحيحة ، ولكن الناس يعتقدون أن بعض الأشياء خطأ ، وأن بعضها الآخر صحيح » . ويقول أيضاً : « إن الطريق الصاعد والطريق النازل هما طريق واحد ولا يختلفان بعضهما عن بعض. ويقول أيضاً : « إن الله هو النهار والليل ، هو الشتاء والصيف ، هو الحرب والسلام ، هو الشبع والجوع ، ولكنه يتخذ أشكالاً متباينة ، شأنه شأن النار عندما تختلط بالتوابل ، فإنها تتخذ لها أسماء تبعاً لمذاق كل منها » .

على أن الوحدة لاتتوافر إذا لم تترابط هذه الأضداد بعضها مع بعض « فالأضداد إذن جيدة لنا ». والواقع أن هذا المذهب يتضمن بذور فلسفة هجل التى تبدأ بالتركيب فيما بين الأضداد .

والواقع أن ميتافيزيقا هرقليطس محكومة بمفهوم العدالة الكونية التى تحول دون تناحر الأضداد ، والحيلولة دون الانتصار الكامل لأى من الأطراف المتضادة . « فجميع الأشياء يستعاض بها عن النار ، كما يستعاض بالنار عن جميع الأشياء ، تماماً كما نستعاض بالذهب

Looloo
www.looloo.com

بالسلع ، والسلع بالذهب » . ويقول هرقليطس أيضاً : « إن النار تعيش موت الهواء ، والهواء يعيش موت النار ، والماء يعيش موت الأرض ، والأرض تعيش موت الماء » . ويقول أيضاً : « إن الشمس لن تتخطى حدودها . وإذا هى فعلت ذلك فإن أرينيز Erinyes أعنى خادمات العدالة سوف يوقفنها عند حدودها . ويقول هرقليطس أيضاً : « يجب علينا أن نعلم أن الحرب مجال بين كل الأشياء ، وأن المعاناة هى العدالة » .

ويتحدث هرقليطس عن الله مراراً وتكراراً باعتبار أنه متميز من الآلهة ، فيقول : « إن طريق الإنسان خلو من الحكمة ، ولكن طريق الله مفعم بها » . ويقول أيضاً : « إن الإنسان طفل فى نظر الله ، وأحكم حكماء بنى الإنسان ، هو بمثابة قرد إذا ما قورن بالله ، تماماً كما نجد أن أفضل القرود جميعاً هو قبيح إذا ما قورن بالإنسان » . ويقول أيضاً : « إن الله بلا شك هو تجسيد للعدالة الكونية » .

والواقع أن المذهب القائل إن كل شىء فى تغير دائم ، هو أكثر آراء هرقليطس شهرة ، وهو أكثرها تأكيداً بواسطة تلاميذه كما يقرر أفلاطون ذلك فى محاوراته . فيقول هرقليطس : « إنك لا تستطيع أن تنزل إلى نفس النهر مرتين ، وذلك لأن مياهاً جديدة تمر به بصفة دائمة » . ويقول أيضاً : « إن الشمس جديدة كل يوم » .

واعتقاده فى التغير الشامل يتجلى فى عبارته المشهورة : « إن كل الأشياء فى تغير مستمر » . بيد أن الشكوك — كما يقول رسل — تحوم حول صدق هذه العبارة وأمثالها ، وأن أفلاطون وأرسطو قد نخلاها لدحض آرائه .

وبرغم هذا فإن مقولة : « الأشياء فى تغير متصل » بمثابة قوله الأكبر وملخص مذهبه . وهو يمثل له بتغير مياه النهر باستمرار من جهة وباضطرام النار ، وهى أحب إليه من تغير مياه النهر ، وذلك لأن النار أسرع حركة وأدل على التغير ، ولأنه يرى فى النار المبدأ الأول الذى تصدر عنه الأشياء وترجع إليه ، ولولا التغير لم يكن شىء ، فإن الاستقرار موت وعدم . والتغير — كما قلنا — صراع بين الأضداد ليحل بعضها محل بعض « والشقاق أبو الأشياء وملكها » . فلولا المرض لما اشتهينا الصحة ، ولولا العمل لما نعمنا بالراحة ، ولولا الخطر لما كانت الشجاعة ، ولولا الشر لما كان الخير . فالخير والشر ، والكون والفساد ، أمور تتلازم وتنسجم فى النظام العام بحيث يمتنع تعيين خصائص ثابتة للأشياء « فماء البحر أنقى وأكدر ماء يشربه السمك ولا يستسيغه الإنسان ، هو نافع للأول وضار بالثانى » .

ولكن على الرغم من هذا فإن هرقليطس برغم اعتقاده فى التغير ، فإنه سمح بشىء معين يظل ثابتاً هو الأزلية (فى تقابلها مع الأبدية) . ولكن ما يقول به بارمنيدس لا يوجد عند هرقليطس ، ولكن فى فلسفته نجد أن النار المركزية لا تموت أبداً . بيد أن النار هى أيضاً شىء متغير باستمرار ، ولكن استمرار بقائها يتبدى فى ذات عملية التغير وليس فى مادتها ، وبالرغم من أن هـذا الرأى يجب عدم عزوه إلى هرقليطس .

والواقع أن هرقليطس — شأنه شأن اكسينوفان — قد بدأ من ملاحظة الطبيعة ، وقد فهم الطبيعة باعتبارها كلاً منسجماً ومتّسقاً . وفى ضوء هذا الاعتبار فإنها لم تنخرط فى الوجود ، وسوف لا تتوقف عن الوجود . وبينما وجد اكسينوفان جوهر العالم فى الأرضية ، فإن

Looloo
www.Looloo.com

هرقليطس على النحو نفسه وجد ذلك الجوهر فى مبدأ روحى هو اللوغوس . ولكنه ظل فى موقف قريب من الفلاسفة الأيونيين الأقدمين من حيث إنه قال إن هذا العقل الخاص بالعالم مرتبط ارتباطاً مباشراً بقوام مادى محدد هو النار . ولكن بينما نجد أن الألوهية عند اكسينوفان قد اتخذت لها عرشاً فى السكون المهيب ، وفى الثبات وعدم التغير ، فإنها صارت عند هرقليطس فى تغير الأشياء بلا توقف ، وفى عدم ثبات الأشياء المفردة . وهذا التغير المستمر هو القانون العام للوجود . وهرقليطس لم يستطع أن يشاهد العالم إلا بكونه شيئاً فى تغير لا يتوقف وأنه آخذ بصفة مستمرة فى الخضوع للتعديلات الجديدة المستمرة . فكل شىء يتدفق وليس من شىء يظل على ما هو عليه « فنحن موجودون وغير موجودين » .

فهرقليطس — كما يقول يوسف كرم — يقول بوحدة الوجود مثل فلاسفة ملطية ، ويمتاز بشعوره القوى بالتغير ، وأن الفكرتين لتستتبعان الشك حتماً ، فوحدة الوجود تعنى شيئاً واحداً هو الموجود ، وأن ما عداه مظاهر وظواهر . والتغير يعنى أن كل موجود جزئى ، فهو كذا وليس كذا فى آن واحد ، أو هو نقطة تتلاقى عندها الأضداد وتتنازعها ، فيمتنع وصفه بخصائص دائمة ضرورية ويمتنع العلم . فلا عجب أن يقوم لهرقليطس أتباع من السوفسطائيين يذهبون فى سبيل الشك إلى أقصى حد ، ولو أنه هو لم يكن يقصد إلى هذه النتيجة ، فإنه إذ قال باللوغوس ، أراد أن يضع حقيقة مطلقة فوق التغير المحسوس وعلماً يقينياً فى الجوهر الأوحد ، وفى العقل الذى يدركه ، ولكن تاريخ الفلسفة يعلمنا أن منطق المذهب أقوى من مقاصد صاحبه ،

فهرقليطس — سواء أراد أم لم يرد — هو الجد الأول للشك فى تاريخ الفلسفة اليونانية .

ولا شك فى أن التغيرات التالية للفلسفة الإيلية وبخاصة ميتافيزيقا بارمنيدس ، ليست مجرد استمرار لأفكار اكسينوفان ، بل إنها تفهم على نحو أفضل إذا نحن تناولناها من زاوية رد الفعل ضد الأفكار الأساسية التى قال بها هرقليطس .

وبالنسبة لروح الإنسان فإن هرقليطس اعتبرها جزءاً من النار الإلهية . وكلما كانت هذه النار أكثر نقاء ، كانت روح الإنسان أكثر احتمالاً . يقول هرقليطس : « كلما كانت روح الشخص أكثر جفافاً ، فإنه يكون أكثر حكمة وكمالاً » . وحيث إن الروح التى هى نار خاضعة للتحولات المستمرة ، فإنها يجب أن تجدد نفسها بواسطة الضوء والهواء الموجودين خارجنا من خلال الحواس والتنفس . وعندما تغادر الروح الجسد ، فإنها لا تتلاشى ، بل تعود من حيث أتت ، أعنى إلى نار العالم .

بيد أن فيزياء هرقليطس لم تدع مجالاً للقول بخلود شخصى للمرء ، ويجب علينا ألا ننخدع بتعبيراته الرمزية بإزاء الحياة والموت ، وهى العبارات التى استعارها من لغة المعتقدات الدينية . ومن جهة أخرى فإن الفيلسوف كان متسقاً تماماً مع فلسفته عندما أدرك أنه وهو فى قلب تغير الوجود الشخصى ، فإن القانون العام يكون هو القانون الدائم ، وأن ينوط القيمة للفهم بالعقل الموجّه إلى العام والشامل ، معلناً أن العينين والأذنين لدى الجاهل إنما هما « شهود أردياء » . ولقد صاغ هرقليطس هذا المبدأ من أجل السلوك الشخصى العملى ، ويقول : « إن جميع القوانين البشرية تغتذى بالقانون الإلهى » ، وعلينا أن نطبق هذا

www.dvd4arab.com

القانون الإلهى ، وأن نقمع الشهوات بحماس أكثر من حماسنا لإطفاء الحريق . فمن ثقة المرء فى النظام الإلهى للعالم تنبع القناعة التى يعلن هرقليطس أنها الخير الأسمى ، وهو كان مقتنعاً بأن سعادة المرء تعتمد على سياسته لنفسه ، وكذا فإن سعادة المجتمع تعتمد على الخضوع الكامل للقوانين ، ومن الواجب على الجماهير أن تدافع عن قوانينها كما تدافع عن بيوتها . ولكن فيلسوفنا الأرستقراطى قد اتخذ له موقفاً هو أن إرادة أحد الأفراد يمكن أن تشكل أيضاً قانوناً ، ولقد ألقى باللائمة وأبدى كل المرارة ضد الديموقراطية التى نفت صديقه هرمودورس .

ولقد عمد هرقليطس بصراحة تامة إلى إبداء الاعتراض على الآراء الدينية لعهده وعلى ما اعتاده الناس من الممارسات الديونيسية العربيدة ، وأيضاً ضد عبادة الأوثان وضد الأضحيات الدموية التى كانت متبعة فى الديانة الشعبية. والواقع أن هرقليطس كان أول فيلسوف يقف على الطابع الرمزى للديانة ، وهذا سمح له بأن يدرك ما تعنيه العبادات الشعبية .

وأخيراً فإن هرقليطس — شأنه شأن اكسينوفان — كان مدركاً لما يمكن أن تصل إليه المعرفة البشرية من حدود لا تتجاوزها . ومما لا شك فيه أنه وقف على نسبية الأفكار الإنسانية . وهو لم يتقبل القيم الخلقية على علاتها ، وهى القيم التى لا تجد لها ما يبررها إلا فى نطاق عالم الناس ، وأن التناقضات التى يمكن أن توجد فيما بينها يمكن أن تحل شأنها شأن جميع الأشياء الأخرى فى الانسجام العالمى المطلق ، أعنى الله .

وخلاصة القول إن هرقليطس هو أعمق وأقوى فيلسوف بين الفلاسفة الذين أتوا قبل سقراط . ويمكن تلخيص أفكاره الأساسية المتعلقة بوحدة الوجود فى الوحدة والتغير الأزلى الأبدى وبمتعة قوانين النظام العالمى .

* * *

الفصل السابع

فيثـــاغورس

PYTHAGORAS

(القرن السادس ق م)

يذهب برتراند رسل إلى أن فيثاغورس واحد من أهم الشخصيات التى تركت بصمتها على الفكر البشرى . وهو يعزو اعتقاده هذا إلى عاملين أساسيين :

الأول : خاص بالرياضيات ، فهو الذى أخرج الرياضيات من حيز الممارسة العملية كفن عملى ، إلى حيز التجريد . ولا غرو فإن تلاميذ المدارس ما يزالون يذكرون اسمه كلما بدأوا فى تعلم الهندسة لأول مرة فى حياتهم . أما العامل الثانى فهو تأثير الرياضيات فى الفلسفة . ففلاسفة الرياضيات جميعاً مدينون لأستاذهم الأول فيثاغورس الذى جعل للرياضيات ذلك التأثير البالغ فى الفكر الفلسفى .

وفيثاغورس واحد من مواطنى جزيرة ساموس التى ازدهرت فى القرن السادس قبل الميلاد. ويقول البعض إنه ابن أحد المواطنين المشهورين يدعى منيسارخوس ، وبعضهم الآخر يزعمون أنه ابن الإله أبوللو . وكانت ساموس على أيامه محكومة تحت إمرة طاغية يسمى بوليكريتس الذى استأثر بثراء فاحش وبأسطول بحرى كبير . يقال إن فيثاغورس كره الأوضاع السائدة فى ساموس وأنه قام بزيارة مصر وتعلم الكثير من الحكمة فى مصر . ولما ناهز الأربعين قصد إلى إيطاليا الجنوبية ، وكان

Loolpo
www.dvd4arab.com

المهاجرون اليونان قد بلغوا فيها درجة عالية من المدنية والثقافة، ونزل ثغر أقروطونا، حيث كانت هناك مدرسة طبية شهيرة، وما لبث أن عُرف بالعلم والفضل. فطلب إليه مجلس الشيوخ فيما يذكر أن يعظ الشعب، ففعل، فذاع اسمه، وأقبل عليه المريدون من مختلف مدن إيطاليا الجنوبية وصقلية، وحتى من روما، فأنشأ فرقة دينية علمية تشبه الأورفية Orphism، أو هي أخذت عنها، ثم أثرت فيها، وكانت فرقته مفتوحة للرجال والنساء من اليونان والأجانب على السواء، يعيش أعضاؤها في عفة وبساطة بموجب قانون ينص على الملبس والمأكل والصلاة والترتيل والدرس والرياضة البدنية، فكانوا منظمين تنظيماً دقيقاً يصدعون بما يؤمرون به غير ناظرين إلا إلى «أن المعلم قد قال». وكان المعلم متشبعاً بعاطفة دينية قوية، ومقتنعاً بفكرة جليلة هي أن العلم وسيلة فعالة لتهذيب الأخلاق وتقديس النفس، فجعل من العلم رياضة دينية إلى جانب الشعائر، ووجه تلاميذه هذه الوجهة، فاشتغلوا بالرياضيات والفلك والموسيقى والطب وشرح هوميروس وهزيود.

والواقع أن المعلومات المتجمعة حول فيثاغورس والفيثاغورية من المصادر المتباينة، قليلة للغاية، بحيث لا نستطيع أن نرى في فيثاغورس سوى شبح هائل يسير عبر التاريخ. ولدينا مصدران عن تاريخ حياته، ولكنهما كتبا بواسطة شخصين من أتباع الأفلاطونية الحديثة هما بورفوريوس وأيامبليخوس، ولا يعدو ما قاما بكتابته سوى تكرار للأساطير التي حيكت حول شخصيته، والتي نجد بواكيرها في البقايا المبعثرة فيما قام أرسطو بكتابته تحت عنوان «حول الفيثاغوريين»، والتي نجدها بعد ذلك باستفاضة بعد عهد الفيثاغوريين الجدد. ولكن لدينا مع هذا، إلى

جانب هذه البقايا، شواهد قديمة قليلة تحمل الوزن الأكبر، ذلك لأن الباعث على تدوينها كان الروح النقدية.

وهكذا نجد اكسينوفان — وهو أحد معاصري فيثاغورس ويصغره بعشر سنوات فقط — وقد أخذ يستهزئ به بسبب ما ذهب إليه من اعتقاد في تناسخ الأرواح. ومن جهة أخرى نجد أن هرقليطس يوجه إليه اتهاماً بالانفعالية. ناهيك عن الاتهامات الأخرى التي وجهها هرقليطس إليه في عبارات قاسية، ولكنها اتهامات لا تقوم في معظمها على أسس متينة. وبعد حوالي نصف قرن من موت فيثاغورس، نجد المؤرخ الشهير هيرودوت يصفه بأنه ليس الأضعف من بين السوفسطائيين اليونان، وهو يقدم شهادة واضحة وصريحة، برغم أنه لم يذكر اسم فيثاغورس بأنه قد دعا إلى مذهب يقول بتناسخ الأرواح، وقد زعم خطأ أنه استقاه من المصريين، مع أنهم لم يقولوا في الواقع بشيء من ذلك.

ويعتقد رسل أن فيثاغورس واحد من أكثر الشخصيات التاريخية إثارة للاهتمام والحيرة في الوقت نفسه. فما نسب إليه ليس فقط خليطاً معقداً من الحقيقة والزيف، بل إنه يشير إلى سيكولوجية عجيبة كان يمتاز بها هذا الرجل. فهو يجمع بين العقلية المنطقية الرياضية العميقة، وبين النزوع إلى التدين العميق وإلى النسك والزهد الدينيين العميقين. فالعجيب أنه استطاع أن يجمع في سياق واحد بين جفاف الرياضيات وتجردها عن العاطفة، وبين العواطف الجياشة التي يتسم بها النسك والتدين العميق.

فلقد أنشأ فيثاغورس ديناً، أو قل بتعبير أدق مذهباً، كان يدور بصفة رئيسية حول تناسخ الأرواح، واعتبار أكل البقول خطيئة.

Looloo
www.dvd4arab.com

وكان مذهبه مجسداً فى مجموعة من الأوامر الدينية . وفيما يلى مجموعة من تلك الوصايا الفيثاغورية :

يجب عدم تناول البقول فى الأكل — يجب عدم التقاط ما يسقط منك إلى الأرض — لا تلمس ديكاً لونه أبيض — لا تكسر رغيف الخبز — لاتخط فوق قضيب على شكل صليب — لاتحرك النار بقطعة من الحديد — لا تأكل من رغيف صحيح — لا تلتقط حلقة معدنية — لا تجلس فوق أحد المكاييل — لا تأكل قلب أى حيوان — لا تمش بالطرق الواسعة — لا تدع طائر السنونو يعشش فى سقفك — عندما ترفع الإناء من فوق النار لا تترك أثره على الرماد ، بل اعمل على ملاشاة ذلك الأثر — لاتتطلع إلى المرآة وجوارك نور — عندما تستيقظ من نومك طبِّق الفراش الذى كنت نائماً عليه وامح أثر نومك عليه .

ومن الملاحظ بوضوح أن تأثر اليونان ممثلين فى فيثاغورس والفيثاغوريين بالأفكار الشرقية ، كان من جرّاء وقوفهم على تلك الأفكار والمعتقدات الدينية ، فتبدلت أفكارهم ومعتقداتهم ، واصطنعوا إلى جانب الديانة الأهلية ديانات سرية . متوخين غاية جديدة هى الاتصال بالآلهة والمشاركة فى سعادتهم ، متخذين سبيلاً إلى تحقيقها ممارسة طقوس معينة يعتقد فيها الصلاحية لذلك . وأهم تلك الديانات «الأورفية» نسبة إلى شاعر من أهل تراقيا اسمه أورفيوس Orpheus يستحيل علينا معرفة حياته وآرائه ومنشأ نحلته لكثرة ما روى عنه من الأخبار المتضاربة ، وما أضيف إليه من الكتابات المتناقضة . ولكن التاريخ عرف الأورفية أول ما عرفها فى القرن السادس ذائعة ذيوعاً قوياً ، وبالأخص فى إيطاليا الجنوبية وصقلية .

ولقد قامت الأورفية على أسطورة مؤداها أن زيوس وهب ديونيسوس (إله الحب ، وهو ابنه من ابنته برسفون) السلطان على العالم ، وهو

ما يزال طفلاً ، فغارت منه هيرا زوجة زيوس وألّبت عليه طائفة من الآلهة الأشداء هم « الطيطان » فكان ديونيسوس يستحيل صوراً مختلفة ويردهم عنه إلى أن انقلب ثوراً فقتلوه وقطعوه وأكلوه . غير أن الإلهة بلاس (مينرفا) استطاعت أن تختطف قلبه ، فبعث من هذا القلب ديونيسوس الجديد ، وصعق زيوس الطيطان وخرج البشر من رمادهم .

فالإنسان مركب من عنصرين متعارضين : من العنصر الطيطانى ، وهو مبدأ الشر ، ومن دم ديونيسوس ، وهو مبدأ الخير ، ويجب عليه أن يتطهر من الشر ، وهذا أمر عسير لا تكفى له حياة أرضية واحدة ، بل لا بد من سلسلة ولادات تحتل مدة التطهير والتكفير خلالها آلاف السنين . فرتبوا على هذه العقيدة طقوساً كانوا يقيمونها ليلاً ، منها التطهر بالاستحمام باللبن أو بالماء تضاف إليه مادة تلونه بلون اللبن ، وتقدمة القرابين غير الدموية ، وتمثيل قصة ديونيسوس بما فى ذلك تقطيع ثور وأكل لحمه نيئاً ، وتلاوة صلوات بينها وبين كتاب الموتى المعروف عند المصريين مشابهات كثيرة .

والفرق بين الأورفية والفيثاغورية ، هو أن طريقة التطهر فى الأورفية كانت طريقة طقسية بحتة باتباع مجموعة من الطقوس . أما طريقة التطهر فى الفيثاغورية فقد كانت طريقة عقلانية بالإضافة إلى ممارسة مجموعة من الطقوس أيضاً . ولقد اعتبر الفيثاغوريون أن الناس مِلْك للآلهة . ومن ثم فإن الحياة هى شىء جاد للغاية ، ويتطلب الأمر لكى يحياها المرء إخضاع نفسه لتدريب منتظم . وهذا هو السبب الذى يستدعى فرض فترة طويلة من الصمت على الملتحقين بالمدرسة حديثاً ، والانتظام فى سلك الفيثاغورية ، كما يتطلب الأمر أيضاً فحص المرء لضميره يومياً بانتظام

Looloo
www.looloo.com

هذا ما يقال بالإجمال عن فيثاغورس وفرقته ، وليس من المستطاع زيادة البيان دون الاستهداف للخطأ ، فإن آثار رجال العصر الأول قد فقدت جميعاً . وكل ما ينسب لفيثاغورس من أشعار ذهبية ومن كتب ثلاثة هى المهذب والسياسى والطبيعى وهو منحول يرجع تاريخه إلى العصر الثانى . كذلك الكتب المعزوة إلى تلاميذه الأولين (وأشهرهم فيلولاوس) منحولة أيضاً أو مشكوك فيها إلى حد بعيد . أما أقوال الفيثاغورية الجديدة عن المدرسة القديمة ، فيجب أن تقابل بغاية الحذر ، لما فيها من ميل ظاهر إلى الغريب الشاذ ، ومن تأويل شخصى . يزاد على ذلك أنها تضيف إلى الفيثاغورية الأولى أفكاراً وأموراً لم تعرف إلا بعدها ، منها الأفلاطونى والرواقى ، بل والبوذى أيضاً . وحتى هيرودوت — وقد عاش فى الأوساط الفيثاغورية فى إيطاليا الجنوبية وصقلية بعد وفاة فيثاغورس بنصف قرن — فإنه يخلط فى كلامه عنه وعن جمعيته . ذلك أن مخيلة الأتباع والأنصار كانت قد تناولت فيثاغورس ونسجت حوله الأساطير ، فقالوا إنه ابن أبولون أو هرمس ، ورووا عنه من الخوارق كل عجيب غريب .

أما الجمعية فيروى عنها أشياء كثيرة أشهرها أنها كانت تحرّم أكل الحيوان وبعض النبات ، ويقال إن هذا التحريم لم يكن مطلقاً . ويذكر أنها كانت سرية يتعارف أفرادها بإشارات خاصة ، ويتعهدون بكتمان تعاليمها الدينى منها والعلمى ، وأنهم أعدموا واحداً منهم غرقاً لإفشائه سراً هندسياً . وليس ما يمنع من تصديق هذه السرية ، لا سيما أن أرسطو نفسه فى عرضه للمذهب ، لا يميز بين ما كان لفيثاغورس فيه من نصيب وما لتلاميذه ، بل يذكرهم جملةً بقوله : « الذين يدعون بالفيثاغوريين » أو « المدرسة الإيطالية » ، مما يدل على أن الجمعية كانت وحدة توارت

وراءها شخصيات أفرادها ، حتى تسربت آراؤهم ومكتشفاتهم إلى الخارج ، فاندمجت فى الثقافة اليونانية خالصة من كل شخصية .

ويعتقد كورنفورد أن الفيثاغورية كانت حركة إصلاحية داخلة فى نطاق النحلة الأورفية ، والنحلة الأورفية ذاتها كانت حركة إصلاح فى ديانة ديونيسس . ولقد كانت تعاليم الأورفية قائمة على الزهد ، ولكن أفرادها كانوا يعاقرون الخمر للشعور بالنشوة عند الاتحاد بالله ، كما كانوا يعتقدون أنهم بهذه الطريقة يحوزون معرفة سرية لا يستطيع المرء أن يحصل عليها بالوسائل الطبيعية ، ولقد دخل هذا الجانب النسكى فى الفلسفة اليونانية بواسطة فيثاغورس الذى يعد أحد مصلحى الأورفية ، كما كان أورفيوس أحد مصلحى ديانة ديونيسس . ولقد تسربت العناصر الأورفية الفيثاغورية إلى فلسفة أفلاطون ، كما استمر اعتمال تلك العناصر فى قوام معظم الفلسفة التالية التى ارتبطت بالدين من قريب أو من بعيد .

ويعتقد فيثاغورس أن جميع الأشياء هى أعداد ، ولقد اكتشف أهمية الأعداد فى الموسيقى ، كما أنه رد الأشكال والأجسام إلى الأعداد . فالوجود فى جوهره أرقام ليس غير . وعدد واحد صحيح يرمز لله . ويجب ألا ينظر إلى عقيدة التناسخ فى الفيثاغورية باعتبار أنها مسألة ثانوية ، أو أنها مجرد إضافة ملحقة بالفيثاغورية . ذلك أن ما يميز الفلسفة الفيثاغورية هو نمط الحياة الذى كان يتبعه أتباع فيثاغورس . ويبدو فيثاغورس فى الواقع شخصاً خارقاً للطبيعة كما ورد فى كتابات فيلسوف على شاكلته هو أمبادقليس . فهو يعزو معرفته الخارقة إلى قدرته على الاحتفاظ فى ذهنه بخبرات عشرين أو ثلاثين من حالات وجود سابقة عاشها بالتناسخ . والواقع أن فيثاغورس نفسه — كما يبدو — لم يقم

Looloo
www.dvd4arab.com

بكتابة أى شيء ، ولكن تلاميذه كانوا يتلقفون أقواله وأحكامه ويتناقلونها دون مناقشتها أو تعديلها .

ومن المأثور عنهم قولهم إن لحركات الأفلاك نغمات ، وحجتهم فى ذلك أن الجسم إذا تحرك بشيء من السرعة ، فإنه يحدث صوتاً هو صوت اهتزاز الهواء أو الأثير ، فلابد أن يكون لحركات الأفلاك فى الأثير العلوى أصوات . وتتفاوت سرعة الأفلاك بتفاوت مسافاتها ، كما تتفاوت فى العود سرعة الاهتزازات بتفاوت أطوال الأوتار ، فلا بد أن يكون فى السماء ألحان كألحان العود ، وإن كنا لا نشعر بها فإنما ذلك لأننا نحسها باتصال مستمر . فالصوت لا يشعر به المرء إلا بالإضافة إلى السكون . ولا يبعد أنهم كانوا يخرجون من هذا القول إلى مثل ما خرج إليه إخوان الصفا حيث قالوا : « إذا تفكر ذو اللب تبين له أن فى نغمات تلك الحركات لذة وسروراً مثل ما فى نغمات أوتار العيدان فى هذا العالم ، فعند ذلك تشوقت نفسه إلى الصعود إلى هناك والاستماع لها والنظر إليها ، فاجتهد يا أخى فى تصفية نفسك وتخليصها من بحر الهيولى وأسر الطبيعة وعبودية الشهوات الجسمانية ، فإن هذه هى المانعة لها من الصعود إلى هناك بعد الموت » .

وبالنسبة لرأى الفيثاغوريين فى النفس ، فقد وصلت إلينا عنهم أقوال متباينة بلزائها . فنحن — والكلام ليوسف كرم — نجد عند أفلاطون رأياً لبعضهم ، يقول إن النفس نوع من النغم . ومعنى ذلك أن الكائن الحى مركب من كيفيات متضادة (الحار والبارد ، واليابس والرطب) . والنغم هو توافق الأضداد وتناسبها بحيث تدوم الحياة ما دام هذا النغم وتتعدم بانعدامه . وهذه من غير شك نظرية أطباء الفرقة — أو نفر منهم — صدروا فيها عن فكرتهم العامة « العالم عدد

ونغم » . وبذا خالفوا أموراً جوهرية فى مذهبهم بقولهم إن النغم نتيجة توافق الأضداد . فإذا كانت النفس نغماً ، لزم من جهة أخرى أن ليس لها وجود سابق على عناصر البدن ، بينما تؤمن الفيثاغورية بالتناسخ . على أن أرسطو إذ يذكر هذه النظرية لا يعزوها إلى الفيثاغوريين ، بل يعزو إليهم قولين :

أولاً : إن النفس هى هذه الذرات المتطايرة فى الهواء ، والتى تَعْرِق عن إدراك الحواس ، فلا تشاهد إلا من خلال شعاع الشمس وتتحرك دائماً حتى عند سكون الهواء . فكأن أصحاب هذا الرأى أرادوا أن يفسروا الحركة الذاتية فى الحيوان ، فذهبوا إلى أن هذه الذرات المتحركة دائماً تدخل جسمه وتحركه . ولعلهم ظنوا أن هذا التصور يفسر أيضاً كيف أن المولود يجد ساعة ميلاده نفساً تحل فيه . وهم على كل حال يتابعون معاصريهم فيتصورون النفس مادية ، برغم أنهم جعلوها مادة لطيفة جداً .

ثانياً : إن النفس هى المبدأ الذى تتحرك به هذه الذرات ، وهو قول يخيل إلينا أنه رأيهم الحق — كما يقول يوسف كرم — وهو أرقى من القولين السابقين وجامع لها بحيث تكون النفس عندهم مبدأ أو علة توافق الأضداد فى البدن ، وعلة حركته أيضاً .

ويقول ديكايارشوش Dikaiarchos إن فيثاغورس كان يقول لتلاميذه فى البداية إن الروح شيء خالد ، وإنها تستحيل إلى أنواع أخرى من الكائنات الحية . وأكثر من هذا فإن كل شيء يدخل إلى حيز الوجود يولد مرة أخرى فى مدارات عَجَلة معينة ، وأن لا شيء على الإطلاق جديد بشكل مطلق ، وأن جميع الأحياء تولد وبها حياة فى ذاتها ومن ثم يجب أن تعامل باعتبارها أقرباء لنا . ويقال إن فيثاغورس — شأنه شأن القديس فرانسس — كان يقوم بوعظ الحيوانات .

Tadeo

ويعتقد فيثاغورس أننا غرباء فى هذا العالم ، وأن الجسد هو قبر للروح ، ومن ثم يجب علينا أن ننشد الهروب بقتل الشهوات ، وذلك لأننا من ممتلكات الله وسائمته ، وهو راعينا ، وبغير أمره ليس لنا الحق فى محاولة الهرب . وفى هذه الدنيا يوجد ثلاثة أنواع من الناس ، تماماً كما أن هناك ثلاثة أنواع من الناس الذين ينتمون إلى ألعاب الأولمب . فالطبقة الدنيا من هذه الطبقات الثلاث تتشكل من أولئك الذين يأتون للشراء والبيع ، والطبقة التالية التى تعلوها تتشكل من هؤلاء الذين يتنافسون . أما الطبقة العليا فإنها تتشكل من أولئك الذين يقومون ببساطة بالمشاهدة والمتابعة . فأعظم نشاط إذن يتمثل فى العلم الذى لا يرمى إلى نفع ، أى العلم المجرد . ومن ثم فإن الشخص الذى يكرس نفسه لذلك العلم الخالص هو الفيلسوف الحقيقى ، وهو الشخص الذى تخلص بالفعل من « عجلة الميلاد » .

أما عقيدة الفيثاغوريين المتعلقة بالألوهية ، فلم تصل إلينا نصوص صريحة بإزائها . أما ما يذكر من أنهم كانوا يضعون « الواحد » فوق الأعداد والموجودات ، ويجعلونه مصدرها جميعاً ، فتأويل أفلاطونى ، وكل ما يمكن أن يقال هو أنهم طهروا الدين الشعبى من أدرانه ، ونزهوا الآلهة عما ألحقت بهم مخيلة العامة من نقائص .

والواقع أن للفيثاغورية مغزى خلقياً مغايراً للقيم التى نأخذ نحن بها فى العالم الحديث . فلقد نجم عن تشبثهم بالتأمل باعتباره أعظم الفضائل مع ارتباطه بالرياضيات أن صاروا يعتبرون المشاهدة من بعيد ، أفضل من الممارسة الفعلية . فنحن اليوم ننظر إلى لاعب كرة القدم فى الملعب بنظرة تقدير أكثر من نظرتنا إلى المتفرج من الجمهور . وكذا فإننا نقدر رجل السياسة أو عضو مجلس الشعب أكثر من تقديرنا

للمواطن العادى الذى يُصْدر أحكاماً سياسية وهو قابع فى بيته ، أما فيثاغورس والفيثاغوريون فإنهم قلبوا الآية واعتقدوا أن التفكير المتجرد من الممارسة هو أرقى مستوى يمكن أن يصل إليه المرء . وبتعبير آخر فإن الفكر أفضل من الممارسة ، والتأمل العميق أفضل من إنجاز الأعمال والمهام المتباينة .

أما بالنسبة لمكانة المرأة بمقارنتها بمكانة الرجل عند الفيثاغوريين ، فإننا نجد أن فيثاغورس لدى إنشائه لجمعيته ، قد فتح مجال العضوية أمام الرجال والنساء على قدم المساواة دون تفرقة فيما بينهم ، وكانت الملكية على المشاع فيما بينهم جميعاً ، كما كان الجميع يسلكون وفق نفس الطرائق السلوكية دون تمييز بين الجنسين . وحتى المكتشفات العلمية والرياضية ، كانت تعتبر مكتشفات جمعية ، ولكنها كانت تعزى روحياً إلى توجيهات فيثاغورس حتى بعد موته . وكان المخالف لهذا أو للقواعد التى كانت الجمعية تسلك وفقها يحكم عليه بالموت كما قلنا . وقصة هيباسوس ، وهو أحد أفراد الجمعية الذى اتهم بالفسق معروفة ، فقد أغرق فى سفينة ، وقيل إن تلك السفينة قد تحطمت بسبب غضب الآلهة عليه .

وعلينا أن نتساءل : هل اقتصر اهتمام الفيثاغوريين على العلوم التأملية وبالأخص الرياضيات ؟ الواقع أنهم اهتموا بالعلوم الجزئية أيضاً ، وقد أثروا أكبر تأثير فى مدرسة أقروطونا وحولوها إلى مذهبهم ، كما شيدوا نظريتهم الطبية فى ضوء تناسب الأضداد ، فقالوا إن مبدأ الحياة هو الحار ملطفاً بالبارد أو بالهواء الخارجى ، وذلك يجذب الشهيق ويدفع الزفير . فإذا اختلت النسبة بينهما حدث المرض ، وإذا زاد الاختلال كان الموت . فالحياة والصحة تناسب وتناسق ، والمرض والموت اختلال التناسب ،

www.dvd4arab.com

أى إفراط أو تفريط عن القدر الملائم . والتطبيب ليس سوى حفظ التناسب أو إعادته ، وقد طبق الفيثاغوريون هذا الرأى تطبيقاً عاماً ، فقالوا مثلاً إن المناخ الأحسن هو مناخ المنطقة المعتدلة . ومما يذكر لهم قولهم : ليست النفس فى القلب (وكان هذا اعتقاد القدماء) ، وإنما هى فى الدماغ . والدماغ هو مركز التفكير الذى يصل إليه بواسطة قنوات دقيقة التأثير موجودة على أعضاء الحواس . ويقال إن فيثاغورس أثبت رأيه بالتجربة بالتشريح ، مؤكداً أن كل اضطراب فى المخ يفسد الوظائف الحاسة .

ويقول زيلر Zeller إن أساس الطب العلمى باليونان قد أرسى على أيدى الفيثاغوريين فى كروتونيا بمدرسة كروتونيا الطبية ، وقد ازدهرت هذه المدرسة قبل أبقراط بفترة زمنية طويلة . والواقع أن الفيثاغوريين الأولين كانوا أطباء أيضاً ، وقد سجلوا نظرياتهم كتابة ونشروها ، بينما ظل الفيثاغوريون المتمسكون بنظرية التناسخ يخبئون نظرياتهم ولا يكشفون النقاب عنها . وأول طبيب فيثاغورى لم يسجل طبه كتابة هو ديموسيدس الذى مارس الطب فى أثينا وأجنة ، كما عمل فى خدمة الطاغية بوليكريتس وفى قصر الملك الفارسى داريوس ، حيث أبدى نجاحاً فاق ما أحرزه الأطباء المصريون فى ذلك الوقت . أما أول طبيب فيثاغورى قام بنشر الكتب العلمية فهو الكاميون ، وقد كان طبيباً وفيلسوفاً فى الوقت نفسه ، وهذا الطابع المزدوج يبدو فى كتاباته التى وجهها إلى أصدقائه . ومن الواضح أنه انطلق فى بحوثه من ملاحظاته الواقعية . ومن الممكن اعتباره أول من عمل بالفسيولوجيا . ولقد أدرك أن المخ هو العضو المركزى المسئول عن الحياة العقلية ، وذلك انطلاقاً من تشريحه لبعض الحيوانات .

وفى مجال الجراحة فإنه تجرأ وأجرى عملية استئصال لعين مريض فاسدة . وفى مجال علم النفس أيضاً فإنه أرسى الخطوات الأولى لهذا العلم وذلك بأن قام بالتمييز بين الإدراك الحسى وبين التفكير ، وهو العملية — أى التفكير — التى يختص بها الإنسان دون سائر الموجودات . وفى نطاق التفكير فإنه قام بالتمييز فيما بين الذاكرة والفكر والمعرفة . وفى مجال الفلك فإنه اعتبر أن الشمس عبارة عن أسطوانة مسطحة ، ومن ثم فإنه لم يعرف شيئاً عن الشكل الكروى للنجوم ، وحيث إنه أدرك أنها تتحرك بتلقائية واستمرارية ، فإنه اعتبر أنها مفعمة بالحياة . ولقد أبدى أرسطو تقديراً له ونسب إليه القول بتناسخ الأرواح .

وبالنسبة لتصورهم للعالم ، فإنهم لم يقدموا بإزائه رأياً جديداً ، بل نقلوا عن أنكيمندريس وبالأخص عن أنكسيمانس ، فتصوروا العالم كائناً حياً أو حيواناً كبيراً يستوعب بالتنفس خلاء لامتناهياً فيما وراء العالم هو عبارة عن هواء غاية فى اللطافة ضرورى للفصل بين الأشياء وتمييزها بعضها من بعض ، ومنعها من أن تتصل فتكون شيئاً واحداً . وقالوا بعوالم كثيرة ولكن فى عدد متناه . وجعلوا الأشياء تحدث بالتكثف والتخلخل لا بتحول بعضها إلى بعض ، لأن الأعداد نظام ثابت متجانس ، وقالوا بالدورات وعودة الأشياء هى نفسها فى آجال طويلة « السنة الكبرى » إلى غير نهاية . ويروى فى هذا الصدد أن أوديموس تلميذ أرسطو قال مخاطباً تلاميذه : « إذا صدقنا الفيثاغوريين فسيجىء يوم نجتمع فيه ثانية فى هذا المكان ، فتجلسون كما أنتم لتستمعوا إلىّ وأتحدث أنا إليكم كما أفعل الآن » .

وامتاز الفيثاغوريون فى علم الفلك وصاروا فيه أيضاً عن اعتباراتهم الرياضية ، فقضوا يصورون العالم [illegible] الاعتبارات غير

Looloc

حافلين بالواقع ، كأنما كانت مهمتهم تكوين العالم لا تمثيله وتفسيره ، فقالوا مثلاً : « العدد الكامل هو العشرة لأنه مؤلف من الأعداد جميعاً وحاصل على خصائصها جميعاً . فيلزم أن تكون الأجرام السماوية المتحركة عشرة (لأن العالم كامل وحاصل على خصائص الموجود الكامل) . ولكن لما كان المعروف المنظور منها تسعة فقط ، فقد جعلوا أرضاً غير منظورة مقابلة لأرضنا إلى أسفل ليكملوا العدد عشرة . كذلك ذهبوا إلى أن مركز العالم يجب أن يكون مضيئاً بذاته ، لأن الضوء خير من الظلمة ، ويجب أن يكون ساكناً ، لأن السكون خير من الحركة . فليست الأرض مركز العالم ، وهي مظلمة وفيها نقائص كثيرة ، ولكن مركز الكون « نار مركزية » غير منظورة ، لأنها واقعة أيضاً إلى أسفل أرضنا . والمأهول من الأرض في اعتقادهم هو نصفها الأعلى ، ولم يفتهم أن يعينوا لكل من النار المركزية والأرض الأخرى شأناً في نظام العالم : النار المركزية تمد الشمس بحرارتها ، فتعكس الشمس الحرارة على الأرضيين وعلى القمر . والأرض الأخرى تفسر الكسوف والخسوف بتوسطها بين النار المركزية وبين القمر أو الشمس . ومهما يكن من قيمة استدلالهم ، فإن تنحيتهم الأرض عن مركز العالم كان ثورة على التصور القديم . وثمة ثورة أخرى هي قولهم بكروية الأرض ، ولم يبلغ إلينا سبب هذا القول ، وقد يكون أن الدائرة خير الأشكال لكمال انتظام جميع أجزائها بالنسبة للمركز كما هو معروف عنهم .

وبديهي أن الخيال والعاطفة الدينية كانا يدعمان التصورات التي كانوا يترسمونها . فالفيثاغوريون — كما يقول يوسف كرم — اخترعوا النار المركزية ووضعوها في وسط العالم ومجدوها وأسموها أم الآلهة وقلعة زيوس والهيكل وموقد العالم والمصدر الأول لكل حياة وكل حركة .

على أن المتأخرين منهم لم يترددوا في العدول عن القول بالنار المركزية والأرض الأخرى بعد أن بلغ الإسكندر الهند ، ولم تظهر لا هذه ولا تلك . وقام واحد منهم هو أرسطرخوس من علماء القرن الثالث ق م ، فاستبدل الشمس بالنار المركزية ، فتم له الرأي المعوَّل عليه الآن ، ولكنه لم يصادف قبولاً عند أهل زمانه ، فبقي في بطون الكتب إلى أن قرأه كوبرنيكوس في شيشرون فوضع نظريته .

فالفيثاغورية — في رأي يوسف كرم — نهضة عظيمة متعددة الوجهات . فهي نحلة دينية كانت أصدق نظراً في الدين من الأورفية ، وهي مذهب فلسفي يعد أول محاولة للارتفاع عن المادة التي وقف عندها فلاسفة أيونية ولفهم العالم بقوانين واضحة وأعداد معينة ، وهي مدرسة علمية عنيت بالرياضة والموسيقى والفلك والطب ، وعرفت بضع قضايا حسابية وهندسية ، ووضعت في الهندسة ألفاظاً اصطلاحية ، وهي هيئة سياسية كانت ترمي إلى إقرار النظام في هذه الحياة الدنيا . ولعلنا نضيف إلى هذا أن الفيثاغورية كانت نقطة انطلاق جوهرية لأفلاطون وأرسطو وغيرهما من فلاسفة .

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

الفصل الثامن

اكسينوفان

XENOPHANES

(٥٧٠ – ٤٧٥ ق م)

ولد اكسينوفان فى قولوفون من أعمال إيونية بالقرب من أفسس ، وهاجر من بلاده وقد ناهز الخامسة والعشرين عندما غزا الفرس مسقط رأسه فى عام ٥٤٦ ق م . وبعد أن قضى شطراً طويلاً من حياته فى الرحيل إلى مالطة وفاروس وميسانا وكاتانيا وسيراكوزا ، حيث كان المتندى الأدبى والفنى للملك هيرو ، تعرف على الشعراء سيمونيدس وسندار وأخيلوس وأبيشارموس ، واستقر أخيراً فى محل إقامة دائم فى إيليا بجنوب إيطاليا .

وربما يكون اكسينوفان هو الفيلسوف الإيونى الوحيد الذى لم يكن من سلالة النبلاء . ومن ثم فإنه كان عرضة لهزء وسخرية الملك هيرو بسبب فقره ، إذ إنه كان يتكسب قوته كشاعر للقصائد الملحمية . ولعله صار شاعراً نتيجة انخراطه فى هذا المناخ الشعرى . والواقع أن إحساسه القوى بالواقع قد نقله من مجال الشعر الملحمى وما ينطوى عليه من أساطير إلى التاريخ ، وقد أشاد فى قصيدتين سرديتين بنشأة قولوفون وإيليا . ونجد فى بعض فصول هيرودوت تلخيصاً لقصيدته الثانية .

ولقد وقف اكسينوفان بعين ثاقبة على غرائب المخلوقات المختلفة التى شاهدها فى أسفاره ، كما وقف على العادات والتقاليد المتباينة وعلى

غرائب الطبيعة . وشاهد فى محاجر سيراقوزا وفى مالطة وفاروس حفائر حيوانات بحرية ، فاستولت على اهتمامه ، واستنبط من هذه الأشياء التى عثر عليها نتائج هامة حول تغيرات سطح الأرض وأصل الحياة .

وبالإضافة إلى هذا فإنه لاحظ بفكر نقدى ثاقب حياة وأنشطة وعقلية مواطنيه . وجرياً وراء مزاجه الهجائى ، فإنه أخذ يهجو فى قصائده الهجائية كل ما تبدى له مخيفاً . ولم يقتصر فى هجومه وهجائه على ما بالغت فيه الحضارة ، مثل وسائل الترف النسوية التى انغمس فيها مواطنوه ، بل إنه تجرأ بالتطاول على أكثر الثقات قدسية لدى الإغريق ، أعنى هوميروس وهزيود ، وقد نعى عليهما تقديم الآلهة فى صورة بشرية ، كما أنه ألقى باللائمة بغير رحمة على الأهمية المبالغ فيها التى أناطها الجميع فى ذلك الوقت بالممارسات الرياضية . فقال ساخراً من تكريم الناس للمصارعين : « إن حكمتنا خير وأبقى من قوة الرجال والخيل » . وكذا فإنه كان يتهكم على فيثاغورس والنحلة الأورفية بسبب الاعتقاد فى التناسخ ، فقال عن فيثاغورس مستهزئاً : « إنه مر ذات يوم برجل يضرب كلباً فأخذته الشفقة فصاح وهو ينتحب : امسك عن ضربه يا هذا ، إنها نفس صديق لى ، لقد عرفته من صوته » . ولم يفته أن ينعى على العبارة التشنجية لديونيسس ، كما تهكم على الساحر إبيمينيدس وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على تفوقه فى مستوى الذكاء وعلى نصاعة عقله واقتناعه بفكره الشخصى واعتماده عليه .

ويقال بالإجمال إنه ارتفع بعقله فوق حكايات قدماء الشعراء ، وصرف جهده إلى القول بنظام أسمى من التجربة المحسوسة ومن الرأى العام الجاهل المتقلقل . وأهم أقواله : « إن الناس هم الذين استحدثوا الآلهة وأضافوا إليها عواطفهم وصورتهم وهيئتهم ، فالأحباش يقولون

www.dvd4arab.com

عن آلهتهم إنهم سود فطس الأنوف ، ويقول أهل تراقية إن آلهتهم زرق العيون حمر الشعر ، ولو استطاعت الثيران والخيل لصورت الآلهة على مثالها . وقد وصفهم هوميروس وهزيود بما هو عند الناس موضوع تحقير وملامة . ألا إنه لا يوجد غير إله واحد أرفع الموجودات السماوية والأرضية . وهو ليس مركباً على هيئتنا ولا مفكراً مثل تفكيرنا ولا متحركاً ولكنه ثابت ، كله بصر وكله فكر وكله سمع يحرك الكل بقوة عقله وبلا عناء » .

فهذا كلام قوى فى التنزيه والتوحيد ، لم يعهد له مثيل فى اليونان . غير أن أرسطو يذكر « أن اكسينوفان نظر إلى مجموع العالم وقال إن الأشياء جميعاً عالم واحد ودعا هذا العالم « الله » ولم يقل شيئاً واضحاً ، ولم يبين إن كان العالم عنده واحداً من حيث الصورة أو من حيث المادة» فكأنه كان حلولياً أو كأنه أخذ « وحدة الوجود » عن فلاسفة وطنه إيونية ، وتصور الوجود تصوراً روحياً . وعلى أى حال فلعبارته قيمتها فى ذاتها ، وهى جديرة بأن تجعل منه واضع « العلم الإلهى » .

والواقع أن اكسينوفان قد قدم فلسفة متسقة مفعمة بالثقة بالنفس بإزاء الحياة والعالم ، مما أكسبه موقعاً قوياً . وهكذا نجد أن اكسينوفان المؤرخ قد استحال إلى فيلسوف للتاريخ ، كما استحال اكسينوفان الدارس للأعراق البشرية إلى فيلسوف دينى ، كما استحال وهو المراقب للطبيعة إلى فيلسوف للطبيعة . والواقع أن هذا الفيلسوف كان ينظر إلى كل هذا بنظرة كلية متسقة . فمن خلال تعقد الظواهر نجد أن عينيه قد أخذت تدرك الوحدة الروحية للكون . وكان شعره بأسره تعبيراً عما اقتنع به واعتقد فيه . وحتى فى أشعاره الخفيفة التى كان يلقيها فى حفلات الغداء ، كان يهاجم الأساطير التى كانت سائدة قبله ، كما كان يدعو

إلى حياة متوجة بالنقاء والتقوى والعدالة . وكذا فإنه كان يحبذ متع الحياة غير الضارة ، كما أبدى احتقاراً للنذالة والبخل . وأخيراً فإنه فى قصيدة له بعنوان « حول الطبيعة » نجده قد جسد اقتناعاته الشخصية بإزاء طبيعة العالم .

والفكرة الأساسية فى هذه الفلسفة كانت وحدة كل شىء ، أعنى وحدة « الواحد الكلى » **All-one** . وهذا الواحد الكلى هو فى الوقت نفسه الإله الذى ليست له بداية ولا نهاية ، وهو دائماً مطابق لنفسه ، وبالتالى فإنه غير قابل للتغير . وهذا « الإله الأحد » ليس منفصلاً عن العالم ، بل إنه غير منفصل بطبيعته عن العالم ، وهو مختلف تماماً عن الآلهة التى يتصورها الناس على النحو الذى قدمه الشعراء لهم . ويؤكد اكسينوفان أن « انحطاط هوميروس بقدر الآلهة » لا يمكن أن يضمن تجريد الإله من الخصائص البشرية . فالواقع — كما يقول اكسينوفان — إن الإله ليس شبيهاً بالبشر ، لا من حيث الشكل ولا من حيث الفكر . فهو ثابت لا يتحرك بصفة دائمة وساكن فى نفس الوضع ، وليس من طبيعته أن يذهب من مكان لآخر . فكله بصر وكله سمع وكله فكر ، وهو يعمل بغير جهد على تحريك كل شىء بقوة عقله . وهذا الإله مكتف بذاته وليس فى حاجة إلى أى شىء . وليس من الممكن تصور آلهة عديدة ذات سيادة وخضوع بعضها لبعض فى الوقت نفسه . على أننا لا نعرف بالتفصيل ما ذهب إليه اكسينوفان بإزاء علاقة هذا الإله بعالم الأشياء المنظورة ، ولكن المؤكد أن هذه العلاقة كانت علاقة تلازم ، ومن ثم يجب أن نعرف فلسفته بأنها تذهب إلى وحدة الوجود **Pantheism** . وليس هناك ما يشير إلى أنه ذهب إلى القول بأن الوجود الظاهرى للأشياء وفناءها مجرد وهم . بيد أن كلامه يشير إلى أنه قد ميز فيما بين

Looloo
www.dvd4arab.com

الفكر والإدراك الحسى ، وأنه أدرك الخاصية النسبية للمدركات الحية .

أما بخصوص آرائه بإزاء العالم والإنسان فإنه كان واضحاً . ولقد كان تصوره للعالم بدائياً جداً . فعلى الرغم من أنه نحا النحو نفسه الذى انتحاه أناكسيمانس قبله ، فإنه جرد الإلهة إريس من شخصيتها الأسطورية وقدم تفسيراً طبيعياً لقوس قزح ، ولكن مع ذلك فإنه تخيل أن النجوم عبارة عن سحب ملتهبة تشع نوراً خلال الليل مثل الفحم ، بينما تنطفئ فى النهار . ثم إنه تصور الأرض ممتدة إلى أسفل إلى اللانهاية . وبالنسبة لما لاحظه بصدد الأحافير الحيوانية ، فإنه ذهب إلى أنها كانت فى الأصل مغطاة بالماء ، وأن الكائنات الحية قد خلقت من الطين الذى تشكل بواسطة التراب والماء . أما البحر فقد اعتبره مصدر جميع الماء ، وأنه مصدر الرياح أيضاً .

والواقع أن اكسينوفان قد حظى بأهمية عظيمة فى مجال علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) . فلقد تصور مفهوماً حول التقدم العقلى فى مسيرة تطور الإنسانية ، وبينما كان ينظر الناس من حوله إلى المنجزات الحضارية الهامة ، مثل الزراعة وفلاحة الكروم واكتشاف النار وغير ذلك من وسائل وطرق استخدامها باعتبارها عطايا من الآلهة المحسنين ، فإنه كان أول مفكر يعتبرها إبداعات شخصية صدرت عن الناس .

وليس من شك فى أن تناوله للدين قد أظهر ما كان يتمتع به من فكر ثاقب ، فلقد رأى فى هذا المضمار أيضاً الإبداع الإنسانى . فالأشكال المتباينة من الدين تتحدد باختلاف الشعور . والواقع أن هذه الفلسفة الدينية التى تقوم على فكرة وحدة العالم وعلى عدم انفصال الله عن الطبيعة تظل من أهم إنجازات اكسينوفان .

* * *

الفصل التاسع

بارمنيـــدس

PARMENIDES

(٥٤٠ — ٤٧٠ ق م)

ولد فى إيليا من أسرة نبيلة وغنية ، وقد قدَّم لمدينته مسقط رأسه دستوراً ممتازاً ، ولكن واحداً من الفيثاغوريين يسمى إميتياس أغراه بأن يهجر النشاط السياسى وأن يكرِّس نشاطه بأسْرِه للفلسفة . فأطاعه بارمنيدس وقد كان يُكِنّ له احتراماً وتقديراً كبيرين حتى بعد موته . ويقال إنه تتلمذ على يد اكسينوفان ، ومن المحقق أنه تأثر به إلى حد بعيد . وتبعاً لما ذكره أفلاطون ، فإن سقراط فى شبابه فى عام ٤٥٠ ق م تقريباً قابل بارمنيدس الذى كان رجلاً مسناً فى ذلك الوقت وأجرى معه حواراً وتعلم منه الكثير . وسواء كان ما ذكره أفلاطون قد وقع بالفعل أم لا ، فإننا نستطيع أن نستنتج على الأقل أن أفلاطون نفسه قد تأثر بتعاليم بارمنيدس .

والواقع أن إيليا كانت تقع بجنوب إيطاليا وصقلية ، وقد نشأ فيهما فلاسفة كانوا يميلون إلى النسك والتدين أكثر من فلاسفة إيونية الذين كانوا بوجه عام ينتحون إلى العلم والنزعة الشكية . بيد أن الرياضيات قد ازدهرت بتأثير فيثاغورس فى ماجنيا جراشيا (اليونان العظمى) أكثر من ازدهارها فى إيونية ، علماً بأن الرياضيات فى ذلك الوقت كانت ممتزجة بالنزعة النسكية ، ولقد كان بارمنيدس متأثراً بفيثاغورس ولكن مدى تأثره به تتضارب الآراء حوله .

Looloo
www.dvd4arab.com

ويرى برتراند رسل أن ما يجعل بارمنيدس شخصية هامة من الناحية التاريخية ، هو أنه ابتكر شكلاً من الفكر الميتافيزيقى يمكن أن نجده فى شكل أو آخر عند الميتافيزيقيين الذين أتوا بعده بمن فى ذلك هجل . وكثيراً ما يقال إنه أول من وضع اللبنات الأولى للمنطق ، ولكن رسل يقول إن ماكشف النقاب عنه حقاً هو الميتافيزيقا القائمة على أساس المنطق .

ويبدى تأثر بارمنيدس بأستاذه اكسينوفان فى إيمانه بوحدة الوجود ، وقد وضع كتابه « فى الطبيعة » شعراً ، فكان أول من نَظَم الشعر فى الفلسفة . وينقسم هذا الكتاب إلى قسمين : الأول : فى الحقيقة ، أى الفلسفة ، والثانى : فى الظن ، أى العلم الطبيعى . ذلك أن المعرفة عنده نوعان : عقلية وهى ثابتة كاملة ، وظنّية وهى قائمة على العرف وظواهر الحواس . فالحكيم يأخذ بالأولى ويعوّل عليها كل التعويل ، ثم يُلمّ بالأخرى ليقف على مخاطرها ويحاربها بكل قواه . فهو يعتبر الحواس وما تقدمه من إحساسات غرَّارة خداعة . ومن ثم فإن الأشياء التى يمكن إدراكها بالحواس وهمية ، والشىء الوحيد الحقيقى هو « الواحد » ، وهو غير المحدود وغير القابل للانقسام .

على أن الواحد عند بارمنيدس ليس شأنه كالشأن عند هرقليطس « وحدة بين أضداد » ، ذلك أن بارمنيدس لا يعترف بوجود أضداد ، فيبدو أنه ذهب — كما يعتقد رسل — إلى أن « البارد » مثلاً لا يعنى سوى « ليس حاراً » ، وأن الظلام لا يعنى سوى « انعدام الضوء » . فتصور بارمنيدس « للواحد » ليس كتصورنا « لله » ، بل يبدو أن تصوره للواحد باعتباره شيئاً مادياً وله امتداد ، وذلك لأنه يتحدث

عنه كجسم كروى . بيد أن ذلك الواحد غير قابل للقسمة ، وذلك لأن جماعه موجود فى كل مكان .

ويقسم بارمنيدس فلسفته إلى قسمين أساسيين : الأول : « طريق الحقيقة » ، والثانى : « طريق الرأى » . وعلى المرء ألا يلقى بالاً إلى « طريق الرأى » . أما « طريق الحقيقة » فإن نقاطه الأساسية تتحدد فيما يلى :

« إنك لا تستطيع أن تعرف ما ليس موجوداً . فمثل تلك المعرفة مستحيلة ، كما أنك لا تستطيع أن تعبر عما ليس موجوداً . ذلك أن الفكر بإزاء الشىء ووجود ذلك الشىء لا ينفصلان » .

« إذن كيف يتسنى انخراط شىء ما فى الوجود فى المستقبل ؟ أو كيف يتسنى لمثل ذلك الشىء أن يوجد ؟ فإذا هو انخرط فى الوجود ، إذن فلا يكون موجوداً ، ثم إنه لا يكون موجوداً إذا هو صار موجوداً فى المستقبل ، إذن الصيرورة تنعدم كما أن الاختفاء من الوجود من المستحيلات » .

« إن الشىء الذى يمكن تصوره بالذهن والذى من أجله يوجد ذلك التصور هما شىء واحد ، وذلك « لأنك لا تستطيع أن تعثر على فكر بغير أن يكون هناك شىء كرصيد لذلك الفكر الذى يعبر عنه » .

ويحاول رسل أن يكشف النقاب عن فحوى هذه الفلسفة بقوله : « إنك عندما تفكر فإنك تفكر فى شىء ما . فعندما تستخدم اسماً ، فيجب أن يكون اسماً لشىء ما . ومن هنا فإن الفكر واللغة يتطلبان وجود أشياء خارج نطاقهما . وحيث إنك تستطيع أن تفكر فى شىء ما أو أن تتحدث عنه فى وقت أو آخر ، فإن أى شىء يمكن أن تفكر

Loolec www.dvd4arab.com

فيه أو أن تتحدث عنه لا بد أن يكون موجوداً فى جميع الأوقات . ويترتب على هذا استحالة وجود أى تغير ، إذ أن التغير يتبدى فى أشياء تنخرط فى الوجود أو تتوقف عن الوجود » .

ويرى رسل أن هذا هو أول مثال فى الفلسفة لبرهان مستمد من الفكر واللغة بإزاء العالم ككل . وعلى الرغم من أن من غير الممكن قبوله على علاته ، فإن من الجدير أن نبحث عما يمكن أن يتضمنه من وجاهة يمكن أن نتقبله منه .

يقول رسل إننا نستطيع أن نقدم هذا التصور على النحو التالى : إذا لم تكن اللغة التى ننطق بها مجرد لغو ، فإن الكلمات يجب إذن أن تعنى شيئاً ، ويجب ألا تكون بوجه عام معانى لكلمات أخرى ، بل يجب أن تعنى شيئاً موجوداً ، سواء تحدثنا عنه أم لا ، افترض مثلاً أنك تتحدث عن (جورج واشنطن) ، فما لم يكن هناك شخصية تاريخية تحمل هذا الاسم ، فيبدو أن يكون النطق بذلك الاسم مجرد لغو ، كما أن الجمل التى تتضمن هذا الاسم تكون خالية من المعنى . فبارمنيدس يعتقد أن جورج واشنطون لم يوجد فى الماضى فحسب ، بل إنه على نحو ما يكون بالضرورة موجوداً طالما أننا استطعنا استخدام اسمه استخداماً صحيحاً . وهذا يبدو بوضوح أنه غير حقيقى ، ولكن كيف يتسنى لنا تحديد ما ذهب إليه بارمنيدس ؟

يقول رسل : « دعنا نتناول شخصاً خيالياً وليكن (هملت) . ولنتناول العبارة القائلة : « كان هملت واحداً من أمراء الدانمرك » . إن هذه العبارة تشير إلى شىء حقيقى بمعنى ما ، ولكنها ليست كذلك بالمعنى التاريخى . ولعل العبارة الصحيحة تكون هى : « يقول شكسبير إن هملت كان أميراً دانمركياً » أو بالأحرى « يقول شكسبير :

إنه كان هناك أمير دانمركى يسمى هملت » . فهنا فى هذه العبارة لم يعد هناك شىء خيالى . ذلك أن شكسبير والدانمرك والصوت (هملت) حقيقيون ، ولكن الصوت (هملت) أو كلمة (هملت) ليست اسماً لشخص مشخَّص ، حيث لا يوجد أحد فى الواقع بهذا الاسم كان أميراً دانمركياً . ذلك أن (هملت) هو اسم لشخص خيالى . فالأحرى أن يقال : « لقد تخيل شكسبير أن (هملت) هو اسم لشخص حقيقى » .

على أننا فى الواقع فى غالبية الحالات لا نتحدث عن كلمات ، بل نتحدث عما تحمله الكلمات من معان . وهذا يعود بنا إلى القضية التى أثارها بارمنيدس ، وهى أن الكلمة إذا استخدمت بطريقة صحيحة ، فيجب أن تحمل معنى خاصاً بشىء ، ولا تحمل معنى للاشىء . وعلى هذا فإن ما تشير إليه الكلمة من معنى يجب أن يكون وجوداً على وجه ما من الوجود .

وبارمنيدس يعتقد أن للكلمات معنى دائماً . فهذا هو فى الواقع أساس مناقشته التى يعتقد أنها غير قابلة للدحض . ولكن على الرغم من أن القاموس أو دائرة المعارف تقدم ما يمكن أن يسمى المعنى الرسمى أو المعترف به اجتماعياً للكلمة ، فليس ثمة شخصان يستخدمان الكلمة نفسها ويكون فى ذهن كل منهما معنى متطابق لما فى ذهن الآخر .

ويؤكد بارمنيدس أنه حيث إننا نستطيع الآن أن نعرف ما ينظر إليه بشكل عام على أنه ماض ، فإنه فى الواقع لا يمكن أن يكون ماضياً بل يجب على نحو ما أن يكون موجوداً الآن . ومن ثم فإنه يستنتج أنه لا يوجد شىء ما اسمه التغير . فما ذكرناه بصدد جورج واشنطن وثيق الصلة بهذه القضية ، ولقد يقال بمعنى ما إنه ليس لدينا معرفة بالماضى .

www.dvd4arab.com

وعندما نتذكر ، فإن التذكر يحدث الآن ، ولا يكون متطابقاً مع الحدث الذى يتم تذكره . ولكن التذكر يحمل وصفاً لحدث وقع فى الماضى ، وبالنسبة للأهداف العملية لا يكون من الضرورى أن نميز فيما بين الوصف وبين ما يقوم ذلك الوصف بوصفه .

ويُظهر هذا البرهان بأسره كيف أن من الميسور استخلاص نتائج ميتافيزيقية من اللغة ، وأن الطريق الوحيد لتجنب البراهين الزائفة من هذا النوع يتم بتنحية الدراسة المنطقية والسيكولوجية عما تردى فيه معظم الميتافيزيقيين .

وما قبلته الفلسفة فى مراحلها التالية حتى الأزمنة الحديثة من بارمنيدس ليس استحالة حدوث أى تغير ، وهو أمر كان بادى التناقض جداً ، بل ماظل مقبولاً هو عدم فناء المادة . صحيح أن كلمة « مادة » لم تذكر فى كتابات من تلوه مباشرة ، ولكن « المفهوم » الخاص بالمادة قد قدم بالفعل فى بحوثهم . فزعموا أن « المادة — كائنة ما كانت — تظل مستمرة فى الوجود وإن اتخذت أوصافاً متباينة » . فهذا المفهوم قد صار ، بل وظل قائماً لأكثر من ألفَىْ سنة ، باعتباره واحداً من المفاهيم الأساسية للفلسفة وعلم النفس والفيزياء واللاهوت .

يقول يوسف كرم : « إن ميزة بارمنيدس هى أنه فيلسوف الوجود المحض ، فتجاوز عالم الظواهر وعالم الأعداد والأشكال ، وبلغ إلى الموضوع الأول للعقل وهو الوجود . ولقد بهره معنى الوجود فلم يعد يرى غير أمر واحد هو « إن ماهو موجود فهو موجود ولا يمكن ألا يوجد » وأن « الوجود موجود واللاوجود ليس موجوداً ولا مخرج من هذه الفكرة أبداً » . فكان أول فيلسوف جرد مبدأ الذاتية ومبدأ عدم التناقض وأعلنهما صراحة وجعل منهما أساس العقل الذى لا يتزعزع فى نفس

الوقت الذى كان هرقليطس يهوى فيه على هذا الأساس بكل قوته . ولئن لم يفطن بارمنيدس إلى أن الوجود والواحد يقالان على أنحاء عدة ، ولم يفرق بين معانيهما المختلفة فعُذْره أن هذه المعانى لم تكن قد تبلورت بعد وأنها لن تتميز إلا على يد أرسطو . وحسبه فخراً أنه ارتفع إلى مبادئ الوجود ومبادئ العقل بقوة لم يُسبق إليهما ، فأنشأ الفلسفة الأولى أو الميتافيزيقا واستحق أن يدعوه أفلاطون « بارمنيدس الكبير » .

على أن بارمنيدس — والكلام ليوسف كرم أيضاً — « اضطر إلى أن يتبع الظواهر المحسوسة ، وقال إن الأشياء واحد فى العقل كثير فى الحس : فانتقل من يقين العقل إلى ظن الحواس ، ومن الفلسفة إلى العلم الطبيعى ، يحاول أن يفسر الظواهر وأن يورد ما يبلغ إليه الظن فيها ، فقبل الوجود واللاوجود فى آن واحد وهو يعلم أن هذا طريق معارض للعقل ، ولكنه يعلم أيضاً أنه أهون عند العقل من طريق الذين يعتقدون « أن الوجود واللاوجود شىء واحد ، ثم إنهما ليسا شيئاً واحداً » ، مشيراً بذلك فيما يلوح إلى معاصره هرقليطس . فتصور بارمنيدس الوجود الكامل غير المنقسم كرة مادية كما تصور الفيثاغوريون العدد ممتداً ، وشرع يسرد آراء تذكّر بقصص هزيود وأقوال انكسيمندريس وأنكسيانس . فهل كان بارمنيدس جاداً فى هذا القسم الثانى من الكتاب ، أم أنه كان مغلوباً على أمره كما يقول أرسطو ، أم أنه بجمعه بين خيال هزيود وعلم الإيونيين أراد أن يسخر من العلم الطبيعى ومن أصحابه ، وأن يؤيد بالخُلف القسم الأول . فبين أن العالم المحسوس لا يفسر بغير ما يقتضيه التغير من اجتماع الوجود واللاوجود ، وأن هذا الاجتماع غير معقول وأن التغير وهم » .

Looloo
www.alvodarab.com

وهذا المذهب الأحادى monist — كما يقول زيلر — وهو الذى يتضمن هذا التقسيم الحاد للعقل الإنسانى إلى جهازين متعارضين أحدهما مخوَّل بالسيادة على القسم الآخر ، مع نبذه بلا سند كاف لعالم الحواس لصالح وجود مجرد ليس من سبيل للوقوف عليه إلا بالفكر ، قد مهد الطريق أمام الثنائية الميتافيزيقية التى وجدت أكثر تعبير ناضج لها فى نظرية أفلاطون المتعلقة بالأفكار .

وإذا نحن عقدنا مقارنة فيما بين هرقليطس وبارمنيدس ، فإننا نجد — كما يقول زيلر أيضاً — أن الفيلسوفين جميعاً قد أبديا عدم الثقة فيما تقدمه الحواس من شواهد ، وقد حاول كل منهما بطريقته الخاصة أن يصحح تلك الشواهد من خلال الفكر ، ولكنهما اتخذا طريقين متضادين. فبالنسبة لهرقليطس فإننا نجد أنه ذهب إلى أن الحواس تقدم صوراً زائفة لكيان دائم ، وقد قال بأن المادة دائمة التغير الممثَّلة فى النار هى الحقيقة الحليقة بالثقة خلف الشواهد المحسوسة . أما بارمنيدس فإنه زعم أن خداع الحواس يتبدى فى البزوغ إلى الوجود وانتهاء ذلك الوجود ، وقد زعم أن الوجود غير القابل للتغير يكمن خلف تلك الشواهد الحسية. ويتمثل هذا التعارض أيضاً فى فلسفة اللغة التى تماشى فكرهم التالد . فبالنسبة لهرقليطس فإن الكلمات مسميات لأشياء تفصح عن طبيعتها ، ومن ثم فإنها ضرورة طبيعية ، ولكن الكلمات عند بارمنيدس عبارة عن أسماء موضوعة ومصطنعة ، ومن ثم فإنها اصطلاحية . وكلاهما يقيم تقابلاً فيما بين الكلمات words وبين « الكلمة » Word أو اللوغوس ، أعنى وحدة الفكر والوجود واللغة . وبغض النظر عن عزوف محاولة جَعْل بارمنيدس صاحب منطق بحت نتيجة موقفه أو فلسفته الميتافيزيقية عن الصواب ، فإن فيلسوف إيليا قد استطاع أن يبرز نقاط الضعف فى

فلسفة هرقليطس ، وبصفة خاصة الحاجة إلى أساس يتسنى على أساسه تفسير السبب فى أن النار الكونية تتغير بحيث تستحيل إلى أشكال أخرى. وهرقليطس نفسه لم يستطع أن يكشف النقاب عن أى سبب لذلك . وهكذا فإننا نجد أن بارمنيدس قد توصل مع اكسينوفان إلى خلاصة مؤداها أن الوجود لا يقبل التحول بأى حال من الأحوال ، وأكثر من ذلك رفضه منطقياً لعالم الإحساس الذى يناظر النبذ الخُلقى للمحسوسات فى الدوائر الأورفية الفيثاغورية .

ولاشك فى أن المفهوم الفارغ حول الوجود الذى أخذ به بارمنيدس يظهر إلى أين يؤدى المفهوم المنطقى البحت الذى ينكر كل حق فى الإدراك والخبرة الحسية. فثمة إذن مايبرر ماذهب إليه أفلاطون وأرسطو من إطلاقهم على المدرسة الإيلية نعت « المقاطعين لمسيرة العالم » ، وأيضاً « العلماء غير الطبيعيين »، ولكن برغم هذا فإن فلسفة بارمنيدس كانت ذات أهمية كبيرة للفلاسفة الذين أتوا بعده . فلاشك أن التعارض الميتافيزيقى الأساسى فيما بين الوجود والصيرورة كما قدمهما بارمنيدس وهرقليطس قد أدى إلى قيام النظم التوفيقية التى نشأت فى القرن الخامس قبل الميلاد لدى كل من أمبادقليس وأنكساغوراس والذريين الذين أنكروا جميعاً مع بارمنيدس بإزاء مادتهم الأساسية إمكان وجود صيرورة مطلقة وتلاشٍ ، ولكنهم قرروا فى اتفاق مع هرقليطس وجود قابلية نسبية للتغير ، وارتباطاً وانفصال بين هذه المواد فى الموجودات الفردية .

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

الفصل العاشر

زينـــون الأيلى

ZENO

(القرن الرابع ق م)

هو تلميذ بارمنيدس ، من إيليا ، انتهت حياته البطولية بيد طاغية كان زينون يناهضه . وكان بارمنيدس يفضله على سائر تلاميذه . وتبعاً لما ذكره أفلاطون فإنه كان أصغر من أستاذه بخمسة وعشرين عاماً ، وتبعاً لما ذكره أبولودورس فإنه كان أصغر من أستاذه بأربعين عاماً . وحسب رواية أفلاطون فإنه وضع كتاباً فى شبابه قصد به إلى تأييد مذهب معلمه ضد الذين سخروا منه وحاولوا أن يبينوا أن القول بالوحدة يستتبع نتائج مضحكة ومناقضة له ، وهؤلاء هم الفيثاغوريون الذين يؤلفون العالم من أعداد أى من وحدات منفصلة . فحارب أصحاب الكثرة بأن ألزمهم المحالات وبيَّن أن لمذهبهم نتائج أدعى للضحك . فهو قد نهج منهجاً جدلياً بحتاً يقوم على برهان الخُلْف ويرمى إلى إفحام الخصم . ولم يصل إلينا من المعلومات ما يكفى لتكوين فكرة مضبوطة عن كتابه وترتيب أقواله ، ولكن أرسطو أورد بعض حججه فى امتناع الكثرة والحركة .

فى كتابه الذى ذكرناه والذى كان فى لغة نثرية قام بالدفاع عن تعاليم أستاذه بارمنيدس بطريق غير مباشر ، وذلك بدحض المفهوم الشائع عن العالم بطريقة جدلية ، مما حدا بأرسطو أن ينعته بأنه مكتشف الديالكتيك .

ولقد قدم زينون براهينه لدحض الكثرة من جهة ، ولدحض الحركة من جهة أخرى . أما براهينه ضد الكثرة فإنها تتلخص فيما يلى :

أولاً — إن الوجود إذا كان كثيراً ، فإنه يجب أن يكون صغيراً بشكل لانهائى وكبيراً بشكل لانهائى أيضاً . فهو يكون صغيراً بشكل لانهائى ، وذلك لأن الوحدات التى يتكون منها يجب أن تكون غير قابلة للقسمة ، وبالتالى فإنها تكون خالية من الكتلة . أما أن يكون الوجود كبيراً بشكل لانهائى فلأن كل قسم من أقسامه يجب أن يكون مسبوقاً قبل قسمته بقسم أكبر منه إلى مالانهاية .

ثانياً — والوجود يجب أن يكون محدوداً وغير محدود فى العدد . فيجب أن يكون محدوداً ، وذلك لأن من غير الممكن أن تكون هناك أشياء أكثر من الموجود بالفعل . ويجب أن يكون غير محدود فى العدد ، وذلك لأنه تكون هناك كثرة ، فإن كل زوج من الأشياء يجب أن يتضمن شيئاً ثالثاً بينهما ، وأن يكون بين هذا الشىء الثالث وبين كل من الاثنين شىء رابع ، وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية .

ثالثاً — إذا كان كل شىء يحتل مساحة ما ، فإنه يجب هو نفسه أن يكون نفس المساحة وأن يكون أيضاً مساحة هذه المساحة .

رابعاً — إذا كانت كيلة الذرة تحدث صوتاً عندما يتم تفريغها ، فإن كل حبة وكل جزء من الحبة يجب أن يحدث صوتاً ما إذا ألقى به ، وهو ما لا يحدث فى الواقع صوتاً .

أما البراهين التى يقدمها زينون لدحض الحركة فإنها على النحو التالى :

أولاً — إنه لكى يقطع جسم ما مسافة معينة ، فإن عليه أن يقطع نصف المسافة أولاً . ولكى يقطع نصف المسافة فإن عليه أن يقطع نصف

Looloo
www.dvd4arab.com

النصف ، أى ربعها ، ثم ثُمن المسافة ، ثم واحداً على ١٦ ، إلخ . ويترتب على هذا بالقطع امتناع البدء فى الحركة .

ثانياً — والحجة الثانية تسمى « أخيل » . وأخيل ذو القدمين الخفيفين لا يستطيع أن يسبق سلحفاة قد سبقته بمسافة قصيرة . ذلك أنه لدى بلوغه النقطة « ألف » التى كانت السلحفاة عندها وقت بداية السباق ، فإن السلحفاة تكون قد تقدمت إلى النقطة « ب » ، وعندما يبلغ النقطة « ب » فإنها تكون قد تقدمت إلى النقطة « ج » وهكذا دواليك ، وهكذا فإن الحركة لا يمكن أن تصل إلى منتهاها ، وبالتالى فإن أخيل لا يستطيع أن يلحق بالسلحفاة .

ثالثاً — إن السهم المارق يكون فى الواقع ثابتاً ، إذ أنه فى كل لحظة يكون فى مكان واحد وفى نفس الحيز ، ومن ثم فإنه يكون ثابتاً غير متحرك فى كل لحظة من لحظات طيرانه ، وأيضاً فى خلال الوقت بأسره .

رابعاً — والحجة الرابعة تسمى بالملعب وتقوم كذلك على فرض أن الزمان مؤلف من آنات غير متجزئة ، وأن المكان مركب من نقط غير منقسمة ، وتتلخص كما يلى :

لنفرض وجود ثلاث مجموعات كل منها مؤلف من أربع وحدات أو نقط ، والثلاث مجموعات متوازية فى ملعب ، الواحد يشغل نصف الملعب إلى اليمين ، والآخر يشغل نصفه إلى اليسار ، والثالث فى الوسط . ولنفرض أن الأول والثانى يتحركان بسرعة واحدة ، كل منهما إلى الجهة المقابلة ، بينما الثالث ساكن فى مكانه ، فإن الواحد منهما يصل إلى نهاية الآخر فى نصف الزمن الذى يقضيه للوصول إلى نهاية المجموعة الساكنة ، أى أن الانتقال من إحدى نقط المجموعة الساكنة إلى النقطة

التى تليها يتم فى وقت هو ضعف الوقت الذى يتم فيه الانتقال من إحدى نقط المجموعة المتحركة إلى النقطة التى تليها ، فتقطع الحركة نفس المسافة (من حيث إن طول المجموعات واحد) فى زمن معين ، وفى ضعف هذا الزمن فيكون نصف الزمن مساوياً لضعفه ، وهذا خُلْف ، وإذن فالحركة وَهْم .

ولكن زينون — كما يقول يوسف كرم — يتجاهل أن كل واحدة من المجموعتين المتحركتين توفر بحركتها نصف المسافة على الآخر ، بينما المجموعة الساكنة تبقيها على حالها ، وأن هذا هو سبب الفرق فى الزمن ، كما أنه يتجاهل أن المكان والزمان والحركة أشياء متصلة وأنها مع قبولها للقسمة إلى مالا نهاية ليست مقسمة بالفعل إلى أجزاء غير متناهية . نقول إنه يتجاهل ، ولا نرميه بالجهل ، لأنه لم يقصد إلى نقد المقدار المتصل — والمقدار عند بارمنيدس أستاذه خاصية من خواص الوجود — بل إلى نقد المقدار المنفصل كما توهمه الفيثاغوريون ، فجاءت حجته « لهواً جِدِّياً » على حد تعبير أفلاطون ، ولكنها جاءت أمراً جديداً فى الفلسفة ، فإنه لم يستعمل الجدل عَرَضاً وطبعاً على ما يتفق لسليقة العقل ، وإنما قصد إليه قصداً ، ووضعه فى صيغة فنية ، فكان أول واضع لعلم الجدل كما قلنا ، وكانت حججه داعية لتحليل معانى الامتداد والزمان والمكان والعدد والحركة واللانهاية عند أفلاطون ، وبالأخص عند أرسطو .

والواقع أن زينون كان منتمياً إلى المدرسة الإيلية التى اهتمت بالتأكيد على أنه لا يوجد شىء يسمى التغير . ولاشك أن وجهة النظر العادية تقول إن هناك أشياء فى العالم ، وأن تلك الأشياء تتغير وقابلة للتغير . فمثلا هناك سهم يوجد الآن هنا ويوجد هناك لدى إطلاقه .

www.dvd4arab.com

ولكن الفلاسفة أو قل بعضهم قد انقسموا إلى فريقين متضادين بإزاء الوجود والتغير . فالفلاسفة الإيليون قالوا إن هناك أشياء ولكن لاتوجد تغيرات . أما هرقليطس وبرجسون فإنهما قالا إنهناك تغيرات ولكن لاتوجد أشياء . فالإيليون قالوا إن هناك سهماً ولكن لايوجد انطلاق للسهم . أما هرقليطس وبرجسون فإنهما قالا : بل هناك انطلاق دون أن يكون هناك سهم . ولقد عمد كل فريق من الفريقين المتنابذين بتقديم حجته بتفنيد حجج الفريق الآخر . فالفريق المؤيد « للسكون » يقول إن من الخطل أن يقال إنه لايوجد سهم . أما فريق « الحركة » فإنه يقول إن من الخطل أن يقال إنه لا توجد حركة .

ورسل يعتقد أن زينون يعترف ضمناً بفحوى نظرية برجسون المتعلقة بالتغير . فهو يذهب ضمناً إلى أن الشيء — أى شيء — يكون خاضعاً لعملية تغير مستمرة حتى ولو اقتصر على تغيير وضعه ، فلابد أن يحدث فى قوام الشيء الداخلى حالة من التغير . فالشيء فى كل لحظة لابد أن يكون مختلفاً فى صميمه عما كان عليه قبلاً . فهو يؤكد أن السهم فى كل لحظة يكون هو ذاته حيثما يكون ، فيظل على حاله طالما أنه لايتحرك من موضعه . ومن ثم فإنه ينتهى إلى القول إنه لا توجد حالة تسمى حالة الحركة .

* * *

الفصل الحادى عشر

مليســـوس

MELISSUS

هو إيونى من ساموس ، كان أمير البحر وقاد أسطول ساموس وحطم أسطول أثينا بقيادة بركليس سنة ٤٤٢ ، فكان يجمع بين العلم والعمل كمعظم فلاسفة العصر الأول الذين كانوا يفكرون فى الوجود ويشتغلون بالسياسة والاقتصاد والفنون العملية . وضع كتاباً فى عام ٤٤١ ق م بعنوان « فى الطبيعة ، أى فى الوجود » شرح فيه مذهب بارمنيدس فى الوجود ودافع عنه . ويبدو أنه اتخذ موقفاً مناهضاً لموقف أمبادقليس ولبوكيبس . فهو لم يتخذ موقف زينون فى مناهضته للفيثاغوريين ، بل وقف ضد مواطنيه الإيونيين ، فهو ممثل المذهب الإيلى فى إيونية وآخر رجاله .

ولقد تذرع بنفس البراهين التى تذرع بها بارمنيدس بصدد أبدية وأزلية الوجود وعدم قابليته للزوال ، ولكنه تباين عنه فى القول بأن الوجود ليست له بداية أو نهاية ، بمعنى أنه لا نهائى . ولقد استعان فى تأكيد ذلك بإنكاره لوجود الخلاء . واستعان بهذا التصور أيضاً فى البرهنة ضد الزعم بوجود الكثرة فى الأشياء ، ذلك أنه كان ملتزماً جداً بتعاليم بارمنيدس القائلة بوحدة الوجود وعدم قابليته للانقسام . وقد أنكر أيضاً الحركة وكل تغير يمكن أن يحدث فى تركيب الأشياء وفى نظام أجزائها ، إذ أن كل تغير يعنى زوال الوجود وخلق وجود جديد .

www.dvd4arab.com

وكنتيجة تترتب على هذا فإنه أنكر أيضاً انقسام المواد واختلاطها بعضها ببعض . وفى برهانه ضد وجود الخلاء والحركة فإنه استخدم مرة أخرى فكرة عدم إمكان تصور وجود مكان خال خلواً تاماً ، مما يتعذر معه وجود حركة أو تكثُّف .

وهو شأنه شأن بارمنيدس أيضاً فى أنه نبذ شواهد الحواس ، ومن ثم فإنه اعترض على ما يتبدى فى الأشياء من تغيرات عما كان عليه مظهرها السابق ، وأن ذلك التغير لم يكن ممكناً إذا كانت قد تشكلت كما بدت فى بداية الأمر . أما بالنسبة للآلهة فإنه أنكر إمكان التوصل إلى أى معرفة خاصة بها ، وأعلن استحالة ذلك . وكان متفقاً فى ذلك مع فيثاغورس الذى كان معاصراً له فى أغلب الظن .

وتتلخص مناقشته للمذاهب الإيونية القائلة بالكثرة والتغير كما يلى : لو كانت الأشياء وكيفياتها حقيقية على ما تبدو فى الحس ، ولو كان هناك حقاً تراب وماء ونار وذهب وحديد وأبيض وأسود ، لوجب أن يبقى كل منها على حاله بدون تغير ، إذ أن ما يتغير يبطل أن يكون هو هو ، وكيف نصدق أن شيئاً هو بارد بعد أن نكون قد صدقنا أنه حار ؟ ولو صح التغير لكان معناه أن الوجود ينعدم وأن اللاوجود يظهر ، ولكن الطبيعيين أنفسهم يقولون إن شيئاً لا يخرج من لا شىء ، ولا يعود إلى لا شىء ، فقولهم يرتد عليهم ، والمعرفة الحسية التى يعتمدون عليها كاذبة فإنها ترينا الوجود كثرة متغيرة ، والحق الواضح فى العقل أن الوجود واحد متجانس ثابت .

ويتلخص برهانه على هذه القضية فى الأقوال الآتية : كل ما يحدث فله مبدأ ، وإذن كل ما لا يحدث فليس له مبدأ ، وليس

الوجود حادثاً وإلا كان حادثاً من اللاوجود وهذا مُحلَف ، وإذن فليس للوجود مبدأ وليس له نهاية فهو لا متناه . واللامتناهى واحد فقط ، إذ يمتنع أن يوجد شىء خارج اللامتناهى ، وهو ساكن من حيث إنه لا يوجد مكان خارجه يتحرك إليه ، وهو ثابت ، لأنه إن تغير فقد باين نفسه ولم يعد واحداً ، وإذن فالوجود واحد لامتناه ساكن ثابت .

يقول يوسف كرم : « ليس فى هذه الأقوال من جديد سوى أن مليسوس يجعل الوجود لامتناهياً ، وكان بارمنيدس قد ذهب إلى أنه متناه . وقد اعتقد مليسوس أن المطلق من حيث الزمان ، أى القديم ، مطلق كذلك من حيث المكان ، أى لامتناه ، فعاد إلى رأى الإيونيين ولكنه لم يبرهن على صحة الانتقال من المعنى الأول إلى الثانى وأخذ لفظ المبدأ على وجهين فغلط أو غالط ، إذ أن ما ليس يحدث وليس له مبدأ زمانى قد يكون له مبدأ من حيث المقدار ، أى حد وبداية فى المكان ، كذلك نراه يخرج من اللاتناهى إلى السكون مع أنه يمكن تصور الوجود اللامتناهى يتحرك فى مكانه . ثم هو يفترق عن بارمنيدس فى نقطة أخرى هى أنه جرَّد الوجود من الجسمية الكثيفة ليسلب عنه التجزئة ويصون وحدته دون أن يبيِّن كيف يصح ألا ينقسم اللامتناهى فى المكان مهما كان لطيفاً . وهناك فرق آخر يقرِّبه من اكسينوفان هو أنه يضيف للوجود حياة عاقلة ، فدل بهذا على ميله إلى وجود روحانى أرق من وجود بارمنيدس .

وبعد أن عرضنا للفلسفة الإيلية ممثلة فى اكسينوفان بما اتسم به من ميل نقدى للعقل وللاهتمامات اللاهوتية ، فإنه يبدو ممهداً الطريق لبارمنيدس الذى أرسى القوام الصلب والعميق للعقيدة المركزية لهذه

Lolico

المدرسة . وبعده جاء زينون وملیسوس اللذان يمكن اعتبارهما دعامتين تقويان البناء الذى شيده بارمنيدس ، وقد استعانا بفن جديد هو الفن الديالتيكى ، أى الفن الجدلى ، للدفاع عن هذه المدرسة ضد هجوم مناهضيها دون الإفلات من مصيدة الجدل البحت ، ومن ثَمَّ فإن هذه المدرسة قد مهدت الطريق ضد إرادتها إلى حد بعيد للسوفسطائية التى اندحرت فى النهاية بفضل المنطق الأفلاطونى الأرسطى .

* * *

الفصل الثانى عشر

امبـــادقليس

EMPEDOCLES

(٤٩٥ — ٤٣٥ ق م)

هناك ثلاثة فلاسفة متعاصرين ، هم : أنكساغورس وإمبادقليس وديموقريطس ، متأثرين بالإيلية والفيثاغورية ، ويشتركون فى القول بأن أصل الأشياء كثرة حقيقية ، وأنه لا يوجد تحول من مادة إلى أخرى ، وإنما الأشياء تأليفات مختلفة من أصول ثابتة ، بينما يفترقون فى تصور هذه الأصول وطرائق انضمامها وانفصالها . ولما كان الأول — أعنى انكساغورس — قد تأخر فى نشر آرائه عن الثانى مع أنه أقدم منه ، وكان من جهة أخرى قد عمَّر بعده وتفلسف فى أثينا واستقر فيها منذ ذلك الحين إلى زمن طويل ، فقد أجَّلنا الحديث عنه ، فنبدأ أولاً بإمبادقليس ، ونتْبعه بديموقريطس ، ثم نعرض له بعد ذلك .

وإمبادقليس شخصيته شبيهة جداً بشخصية فيثاغورس ، فهو مزيج من كونه فيلسوفاً ومتنبئاً ورجل علم ومشعوذاً ، وإن كان يجمع هذه الملامح الشخصية بشكل أقوى مما كان عليه حال فيثاغورس . وقد ذاع صيته فى حوالى عام ٤٤٠ ق م ، وبذا فإنه كان أحد المعاصرين لبارمنيدس ، بالرغم من أن مذهبه كان ذا صلة بمذهب هرقليطس فى بعض الجوانب .

نشأ إمبادقليس فى إغريغنتا ، وقد كانت من أعظم مدن صقلية

Looloo
www.looloo.com

عمراناً ، وفى أسرة من أوسع أسر المدينة ثروة ونفوذاً ، وكان هو من أنبغ أهل زمانه ، اشتهر بالفلسفة والطب والشعر والخطابة . وقال أرسطو عنه إنه منشىء علم البيان . وقد أشبه فيثاغورس فى كثير من النواحى ، فكان قوى العاطفة الدينية إلى حد ادعاء النبوة بل الألوهية ، واستخدم علمه فى سبيل الخير ، فصدَّق الناس دعواه ، وكانوا يتسابقون إليه جماعات أينما حل « يسأله البعض أن يهديهم إلى طريق الصلاح ، ويطلب إليه آخرون أن يكشف لهم الغيب ، ويتوسل إليه غيرهم حتى يُسْمعهم الكلمة التى تشفى من المرض » على حد قوله هو ، وزاد فى احترام الناس له وتعلقهم به أنه كان يعطف على الشعب ويسعى لتحقيق المساواة بينهم ، ويبذل ماله فى الإحسان ، فعُرض عليه أن يتوَّج ملكاً على المدينة فأبى ، وعاون على إقامة الديموقراطية ودافع عنها ، ثم حَدَته الغيرة على الخير إلى الهجرة ، فجاب صقلية وإيطاليا الجنوبية وعبر البحر إلى المورة ، ويقال إنه أُجبر على النفى خارج بلاده إلى المورة حيث مات هناك .

وثمة فى الواقع العديد من الأساطير التى حيكت حول طريقة وفاته ، وأشهر تلك الأساطير حول زعمه بأنه يستطيع أن يلقى بنفسه فى فرن أتنا ويظل حياً ، ففعل ولكنه احترق ولقى نَحْبه . ويعتقد زلر أن شخصية إمبادقليس شبيهة بشخصية فاوست ، ولا يتسنى فهم شخصيته إلا إذا أخذنا فى اعتبارنا أن تلك الشخصية مركَّبة من ثنائية أحد قطبيها يتمثل فى العاطفة الجياشة نحو البحوث العلمية ، أما القطب الثانى فهو عاطفته الجياشة نحو الارتفاع بنفسه فوق الطبيعة والناس والتسامى إلى مراقى الروحانية . ويعتقد برتراند رسل أن إمبادقليس فى شبابه كان من أتباع الأورفية ، وأنه قبل نفيه كان كَلِفاً بالسياسة والعلم ، وأنه لم يدَّع النبوة

إلا بعد أن نفى بعيداً عن مسقط رأسه . ومن الأساطير التى حيكت حول شخصيته أنه قد اضطلع ببعض المعجزات ، فكانت تلك المعجزات تتم على يديه بالسحر أحياناً وبالعلم أحياناً أخرى . فكان بمقدوره أن يتحكم فى الرياح ، ويقال إنه أقام امرأة من القبر بعد موتها بثلاثين يوماً .

وإمبادقليس شأنه شأن بارمنيدس من حيث إنه كتب مؤلفاته فى لغة منثورة . ولقد أشاد به لوكريتيوس الذى كان متأثراً به باعتباره شاعراً عظيماً . بيد أن رأى لوكريتيوس هذا لا يعتد به كثيراً أو تحوم الشكوك حوله ، لأن شذرات قليلة من أقواله قد تبقت من شعره .

والعلم عند إمبادقليس لم يكن مجرد الوقوف على ما فى الطبيعة من خواص ، بل إنه كان يستهدف أولاً وقبل كل شىء التحكم فى العالم الطبيعى وإخضاعه لخدمة الناس من حوله . ولقد شابَهَ فى ذلك صانعى المعجزات والسحرة ، وذلك لأنه قد عُزِيت إليه الكثير من الأعمال الباهرة . فشهد تلميذه جورجياس بما عمله من معجزات وأعمال خارقة للطبيعة . والواقع أن إمبادقليس قد اعتقد أنه أرفع من سائر البشر . فمن حيث دائرة الميلاد كطبيب وشاعر وقائد للجماهير ، فإنه — كما كان يزعم — قد بلغ آخر وأعلى مرتبة ، ولم يكن أمامه بعدها سوى العودة إلى النطاق المفعم بالبركة حيث الآلهة ، ولكنه فى حياته على الأرض كان ما يزال تائهاً ، شأنه شأن إله خالد بين أناس مائتين . ولقد كان يتبعه آلاف الأشخاص عندما كان يمر من خلال إحدى المدن ، وكانوا يرفعون إليه الصلوات ويطلبون منه أن يُظهرهم على الطريق المؤدى إلى الخلاص .

أما المعلومات المتعلقة بالطبيعة والتى استطاع أن يجوزها فقد أفضى بها إلى تلميذه باوسانياس ، بالرغم من أنها كانت وعياً روحانياً سامياً ،

www.dvd4arab.com

ومن ثَمَّ فإن حيازتها كانت تتطلب « الإيمان » بها . فلكى يتسنى للمرء استقبال هذه المعرفة والإفادة منها ، فإنه يكون بحاجة إلى عقل نقى وقوى وربما عمد إمبادقليس إلى التكتم والحفاظ على علمه فى سرية جرياً وراء الفيثاغوريين ، وذلك فى أثناء البوح بعلمه لتلاميذه ومريديه . ولقد ضمن تعاليمه فى قصيدتين .

ويذهب زيلر إلى أن تفسير إمبادقليس للطبيعة يعبر عن محاولة للعثور على نقطة التقاء فيما بين هرقليطس وبارمنيدس ، أعنى بين التغير الأزلى والثبات الأزلى . فبارمنيدس كان محقاً عندما قال إنه لا يوجد شىء كالتحول المطلق والتلاشى التام . بيد أن هرقليطس كان أيضاً محقاً عندما قال إن الأشياء المفردة خاضعة بصفة دائمة للتغير . فما يسمى بالخلق والفناء هو فى الواقع امتزاج وانفصال يحدث بين المواد الأساسية ، وهو عملية أزلية لا يعتريها التغير .

ويرى رسل أن من الواجب علينا أن نتناول العلم والدين عند إمبادقليس فى انفصال الواحد منهما عن الآخر ، وذلك لعدم اتساقهما بعضهما مع بعض .

ولعل أهم إسهاماته العلمية — كما يرى رسل — اكتشافه أن الهواء مادة لها قوامها الذاتى المنفصل . ولقد برهن على ذلك بملاحظة أن البلاَّص أو أى آنية مشابهة إذا ما وضعت مقلوبة فى الماء ، فإن الماء لا يدخل فيه . ويقول فى هذا الصدد :

« عندما تقوم إحدى البنات باللعب بجرَّتها وتحاول تغطيسها فى الماء بأن تقلبها على فوهتها وتضغط عليها فى الماء ، فإنها تجد مقاومة ولاينساب الماء فى الجرَّة ، وذلك بسبب ضغط الهواء الموجود بها واعتراضه طريق

الماء . ولكن إذا تمكن الهواء من الخروج عند جعل الجرة بفوهتها إلى فوق ، فإن الماء يدخل ويحل محل الهواء » . ولقد وردت هذه الفقرة فى أثناء شرح إمبادقليس لعملية التنفس .

واكتشف إمبادقليس مثالاً واحداً على الأقل يدلل به على القوة المركزية ، وذلك إذا ما عمدنا إلى إدارة كوب من الماء حول نفسه ، فإن الماء لا ينسكب منه .

ويتضح من كلام إمبادقليس فى كتاباته أنه كان واقفاً على أن ثمة حياة جنسية لدى النباتات ، كما أن لديه نظرية — وإن كانت مفعمة بالخيال — بإزاء التطور والبقاء للأصلح . ففى البداية « كانت هناك قبائل من مخلوقات فانية مبعثرة هنا وهناك ، وكانت مفعمة بكل ما يمكن تخيله من أشكال . فكانت هناك رءوس بلا رقاب ، وأذرع بلا أكتاف ، وأعين بلا جباه ، كما كانت ثمة أطراف تبحث عن أحياء تتحد بها . فهذه الأشياء اتصلت بعضها ببعض كما اتفق ، فكانت هناك مخلوقات شائهة برءوس لا تحصى ، وكانت هناك مخلوقات ذات أوجه وصدور كثيرة بحيث كانت تتطلع فى اتجاهات متباينة ، وكانت هناك مخلوقات بأجساد ثيران ووجوه رجال ، كما كانت هناك مخلوقات أخرى بأوجه ثيران وأجساد آدميين . وكانت هناك مخلوقات آدمية مُخَنَّثية تجمع فى نطاقها طبائع الرجال والنساء ، ولكنها كانت عقيمة . وفى النهاية لم يظل موجوداً سوى أشكال معينة من المخلوقات .

وفيما يتعلق بنشأة المخلوقات فإن النباتات والحيوانات قد نشأت من الأرض . ولكن حيث إن اتحاد العناصر قد نشأ تدريجياً بواسطة الحُب ، كذا فإنه فى خلق الكائنات الحية اعتقد إمبادقليس أن ثمة تقدماً تدريجياً قد حدث فى هذا المجال لاستحداث مخلوقات كاملة . وفى البداية كانت

www.dvd4arab.com

ثمة أطراف منفصلة قد بزغت من الأرض، وعندما تقابلت تلك الأطراف بعضها مع بعض فإنها اتحدت فى أشكال تمسخية، وكذا عندما خلقت الحيوانات والناس الحاليين، فإنهم كانوا فى البداية عبارة عن كتل بلا شكل متعين، ولم تتخذ تلك الكتل أشكالها وتركيباتها الحالية إلا مع الوقت. ويبدو أن إمبادقليس قد اضطلع بدراسة عميقة للكائنات الحية، كما قدم تخمينات حول التناسل والنمو وبصدد التركيب الأولى للعظام واللحم ولعملية التنفس (التى اعتقد أنها تتم جزئياً بواسطة الجلد)، كما أنه عرض لغير ذلك من ظواهر حيوية. وحاول أن يقدم تفسيراً لأنشطة الحواس، وذلك بواسطة نظريته بصدد المسام والتدفقات. وفى حالة الإبصار فإن الضوء الذى يتحرك فى اتجاه ضد العين، فإنه يقابل بالنار والماء الموجودين فى العين.

ووضع إمبادقليس المبدأ العام للإدراك، وذلك بأن قال: إن كل عنصر يعرف بواسطة شبيهه لدينا (فالرغبة تنشأ لدينا بما يناظرها فى قوامنا وكذا فإن الكراهية تنشأ نتيجة وجود ما يتنافر مع الشىء الخارجى الذى ننفر منه)، ولذا فإن طبيعة التفكير محكومة بطبيعة الجسد، وبخاصة بطبيعة الدم الذى يعتبر فى نظره مركز التفكير. بيد أنه لم يسمح لهذه النزعة المادية أن تعوقه عن إخضاع الإحساس والإدراك للعقل، بالرغم من أنه لم يجعل بينهما تقابلاً حاداً كما نجد عند بارمنيدس.

وبصدد الفلك فإنه علم أن القمر يضىء بانعكاس الضوء على سطحه، وقد ظن ذلك أيضاً بصدد الشمس. وقال إن الضوء يتطلب وقتاً لكى ينتقل من مكان لآخر، ولكنه وقت قصير جداً للدرجة أننا لا نستطيع ملاحظته. ولقد عرف إمبادقليس أيضاً أن كسوف الشمس وخسوف القمر يحدثان بواسطة اعتراض القمر، ويبدو أنه نقل ذلك عن أنكساغورس.

ولم يحاول إمبادقليس رد الأشياء إلى مادة أولى واحدة كما فعل الإيونيون، ولكنه وضع أصولاً أربعة: الماء والهواء والنار والتراب، فكان أول من اعتبر التراب مبدأ، ولعل ثقل التراب هو الذى منع القدماء من اعتباره كذلك. قال إن هذه الأربعة مبادئ على السواء ليس بينها أول ولا ثان، فهى لا تتكون ولا تفسد، فلا يخرج بعضها من بعض ولا يعود بعضها إلى بعض. ولكل منها كيفية خاصة: الحار للنار، والبارد للهواء، والرطب للماء، واليابس للتراب. فلا تحوُّل بين الكيفيات ولكن الأشياء وكيفياتها تحدث بانضمام هذه العناصر وانفصالها بمقادير مختلفة على نحو ما يُخرج المصور بمزج الألوان صوراً شبيهة بالأشياء الحقيقية، وإنما تجتمع العناصر وتفترق بفعل قوتين كبيرتين يسميهما المحبة والكراهية. وفى الكتب العربية القديمة أطلق عليهما المحبة والغلبة، أو المحبة والعدوان. والمحبة تضم الذرات المتشابهة بعد التفرق، والكراهية أو الغلبة أو العدوان تفصل بينها، ويتغلب كل منهما حيناً فى الدور الواحد من أدوار العالم، فتستقر الغلبة للمحبة وتسود الوحدة الساكنة، أو تسود الكراهية فتسود الكثرة المضطربة، فيمر العالم بدور محبة تتخلله الكراهية وتحاول السيادة، ثم بدور كراهية تتخلله المحبة وتعمل على إصلاحه. فتارة ترجع الكثرة إلى الوحدة — وهى الكرة الأصلية الإلهية التى تتحدد فيها العناصر جميعاً — وطوراً تنتقل الوحدة إلى الكثرة، وتتعاقب الأدوار كل منها كما كان بالتمام إلى ما لا نهاية. والدور الذى نحن فيه الآن تسيطر عليه الكراهية.

ويخلص برتراند رسل من مدارسته للعناصر الأربعة عند إمبادقليس إلى أنه قد نبذ الأحادية Monism ونظر إلى سياق تطور الطبيعة باعتبار أنه محكوم بالمصادفة والضرورة وليس بالغرضية. وفى ضوء هذا

Lotfee
www.dvd4arab.com

فإن فلسفة إمبادقليس تكون أكثر علمية من فلسفة بارمنيدس ، بل ومن فلسفة أفلاطون وأرسطو . صحيح إنه قد انتحى إلى الخرافات فى جوانب أخرى من فلسفته ، ولكن هذا لا يعمل على إضاعة حقه فى التقدير العلمى والفلسفى .

ويعتقد إمبادقليس أن العالم المادى عبارة عن كرة ، وقد كان فى العصر الذهبى مغطى بالكراهية من الخارج ، بينما كان الحب معتملاً بالداخل ، ولكن شيئاً فشيئاً فإن الكراهية تسربت إلى الداخل ، بينما طرد الحب إلى أن صار الوضع فى أسوأ حال ، وذلك عندما احتلت الكراهية الداخل كله ، بينما انقشع الحب تماماً من تلك الكرة . وبعد ذلك ولسبب غير واضح ، فإن حركة مضادة يمكن أن تبدأ من جديد ، إلى أن يتسنى الانخراط فى عصر ذهبى جديد ، ولكنه لا يظل إلى الأبد . ذلك أن الدور يستمر ويتكرر إلى ما لا نهاية .

والواقع أن إمبادقليس كان مؤسس المدرسة الإيطالية للطب ، وكذا فإن مدرسة الطب التى انبثقت عن تعاليمه قد أثرت فى كل من أفلاطون وأرسطو . وتبعاً لما ذكره برنت فإن تلك المدرسة قد أثرت فى اتجاه التفكير العلمى والفلسفى بأسره .

أما آراء إمبادقليس فى الدين ، فإنها فيثاغورية بصفة رئيسية . فهو يقول مشيراً إلى فيثاغورس : « كان هناك بينهم رجل ذو علم نادر ، وكان على أكبر مستوى من المهارة فى جميع الأعمال الحكيمة ، رجل ربح أعظم ثروة من الحكمة . فهو باجتهاده بكل ما كان يملكه من قوة عقلية ، استطاع أن يقف على كل شىء فى جميع الأشياء بما يساوى عشرة أو عشرين من حيوات الناس الآخرين » . وكان إمبادقليس فى كل ما ذهب إليه فى الدين مستفاداً من الأورفية والفيثاغورية .

وهو يعتقد أن الآلهة والنفوس تتكون كما تتكون الأشياء الفاسدة (وهو الوحيد الذى أدخل التراب فى تركيب النفس) ، غير أنها أمزجة يغلب فيها الهواء والنار . لذلك أتت ألطف وأدق . فالآلهة الحقة عنده هى العناصر والمحبة والكراهية . وكذلك تتكون الأجسام الحية . ولقد اعتقد إمبادقليس أنه يوجد فوق مستوى الأجسام الحية والعالم المادى بعامة نطاق روحانى يشتمل على الأرواح المباركة . وفى هذا الصدد وافق إمبادقليس على المذهب الأورفى الفيثاغورى المتعلق بالتناسخ وقد وجهت إليه الاتهامات بالتجديف على هذه العقيدة . وتلك الأرواح أزلية أبدية وحية فى مجتمع مفعم بالبركة والألوهية ولكن تستبعد منه تلك الأرواح التى لوّثت نفسها بالخطيئة أو الحنث باليمين أو التى استمتع أصحابها بالتقدمات الدموية . فيحكم على تلك الأرواح أن تهيم لمدة ثلاثين ألف سنة من خلال التلبس بأجساد نباتية وحيوانية وبشرية ، وبذا فإنها تعيش فى أجساد عضوية وتعيش فى ارتباط بعالم المادة وعالم الأرواح . ولكن حيث إن الوجود على الأرض عبارة عن عقوبة ، فإن سقوط الأرواح إلى الأرض يوصف بأنه مأساة يلاقيها المرء .

وبالنسبة للأشكال المنحطة من الحياة ، فإن تلبس الأرواح فى هيئة شجر الغار أو فى هيئة أسُود يعتبر أفضل مسكن نسبياً للأرواح . أما أرفع مستويات التلبس فإنه يتمثل فى أجساد رجال الدين والأطباء والأمراء . ولقد أدى هذا الاعتقاد بالطبع إلى تحريم أكل اللحم وتحريم الأضحيات الدموية وقد حل محلها كعك مصنوع فى هيئة حيوانية ، بينما حرم أيضاً أكل البقول وثمار الغار .

ويبدو أن هذا النظام قد نبذ الحروب باعتبارها ثماراً للكراهية . والعصر الذهبى على الأقل الذى فيه نجد أن [illegible] ، لا تنشب

Loolo
www.vanloolo.com

فيه حرب بأى حال . فهذه الشروط يتسنى فى ظلها تحرير الأرواح من الشر ، وخلال هذا الطريق وحده يتسنى للمرء أن يشارك فى حياة الخالدين .

فهؤلاء الذين يتحاشون الوقوع فى الخطيئة ولا ينخرطون فى العديد من الحيوات ، هم الذين يحرزون بركة أبدية فى صحبتهم مع الآلهة . ولكنهم فى النهاية يظهرون بين الناس المائتين كأنبياء ومؤلفى أغان وأطباء وأمراء ، وبعد ذلك ينهضون كآلهة مرتفعين فى السمو ، ويشاركون فى مجد الآلهة الآخرين ويحتلون أماكنهم جنباً لجنب معهم ، وهم فى أمان من القَدَر ولا يتسنى لأحد أن يصيبهم بسوء .

وإمبادقليس يتحدث عن نفسه فى بعض الأحيان باعتباره إلهاً ، ولكنه فى وقت آخر يستشعر أنه إنسان خاطئ ويستحق الخضوع لسلسلة من التناسخ للتكفير عن خطيئته . ولكن أحداً لا يعرف بالضبط ما الخطيئة التى كان يحس بأنه اقترفها .

وليس من شك فى أن فلسفة إمبادقليس هى فلسفة ثنائية . فثمة عالم الطبيعة من جهة بما يتضمنه من عناصر أربعة ، وثمة الأرواح من جهة أخرى . ولكن الوجودين يترابطان فى الطبيعة العضوية . والحياة الحقيقية هى الوجود الإلهى المتسامى فوق عالم المادة . أما الوجود على الأرض فهو عقوبة . ولكن على الرغم من كل شىء فإن الكون يحظى باهتمام يكفى لاستغلال قوة العقل بأكملها لمدارسته ، على الرغم من أنه لكى يتم ذلك لا بد من الاستعانة بمساعدة قوة عليا ، وذلك لأن القدرات الإنسانية على المعرفة محدودة .

وليس من الواضح كيف تخيل إمبادقليس علاقة الروح وبخاصة

لدى الإنسان بقوى التفكير المتمركزة بالدم . وعلى أية حال فإن الفكر لديه — شأنه شأن الإدراك الحسى — مجرد وظيفة من وظائف الجسم ، الذى يتكون من عناصر . فالزعم بوجود روح لم يكن لذلك ضرورياً . فثمة جنى يحل لديه محل الروح ، ولكن ذلك الجنى بمثابة ضيف فى نطاق الأرض . ولا بد أن إمبادقليس قد ذهب إلى أن هذه الروح أو الجنى كان بمقدورها أن تتذكر حياتها السابقة وتجسداتها السابقة . وهو لم ينسب هذه القدرة إلى فيثاغورس بدرجة عالية فحسب ، بل إنه نسبها أيضاً لنفسه . وربما تستعيد الروح قوتها عندما يصل المرء إلى أعلى مرتبة فى الوجود الأرضى ويكون قد اقترب من أصله الإلهى . وليس هناك مكان فى عالم إمبادقليس للآلهة حسب الاعتقاد الشعبى الذى ينعته بأنه « جنون مظلم » . فالألوهية التى اعتقد فيها أشبه باعتقاد اكسنوفان من حيث كونها متسامية فوق كل هيئة بشرية وكل فكرة بشرية . فهى روح مقدسة تتخلل العالم كله بفكرها وقانونها يحكم كل شىء . ويبدو على الأرجح أنه اعتقد أن الألوهية متطابقة مع الكون .

والواقع أن إمبادقليس قد سبق أفلاطون فى تشبيه العالم بالكهف الذى نوجد نحن فيه ولا نرى من خلاله سوى أشباح للحقائق فى العالم المضىء فوقنا . ولا شك أن أصل هذا المفهوم مستمد من الأورفية .

وهذا يعتبر شاهداً على مدى تأثير إمبادقليس فى الفلاسفة الذين أتوا بعده . أضف إلى هذا أن اختزاله للعالم المادى فى عدد محدود من العناصر وارتباطها بعضها ببعض بنسب رياضية محدودة ، قد جعله المؤسس للكيمياء الحديثة ، كما أن نظريته الخاصة بالعناصر ظلت مأخوذاً بها حتى بداية القرن الثامن عشر . ولا شك أن محاولته لتفسير تطور

الكائنات العضوية على أساس ميكانيكى آلى يضعه مع أنكسيمندريس بين المفكرين الذين مهدوا الطريق لدارون . وإمبادقليس كأحد النساك الزاهدين يعد واحداً من أكثر الشخصيات الإغريقية القائلين بالثنائية أهمية وجذباً لاهتمام أصحاب العقول الأدبية الشاعرية وتعلقهم به . ولقد ورث تلميذه جورجياس موهبته للتعبير البليغ ، فصار مؤسساً للنثر البلاغى .

* * *

الفصل الثالث عشر

المدرسة الذرية :

ليوكيبوس LEUCIPPUS

وديموقريطس DEMOCRITUS

تعتبر المدرسة الذرية محاولة أخرى للتوفيق بين وجهات نظر هرقليطس والمدرسة الإيلية المتطرفة بإزاء البزوغ إلى الوجود وبقاء الوجود . وليوكيبوس هو منشئ هذه المدرسة الذرية . ومسقط رأسه غير مؤكد ، فالبعض يقولون إن مسقط رأسه ملطية ، والبعض الثانى يقولون أبديرا ، والبعض الثالث يقولون إيليا . وحتى ثيوفراستوس الذى ينعته بكونه « شريك بارمنيدس فى فلسفته » ، لم يستطع أن يذكر شيئاً محدداً عنه . وكذا فى أوساط المدرسة الأبيقورية فإن مجرد وجوده تاريخياً كان موضوع أخذ ورد . بيد أن حياته كانت بلا شك معاصرة بالتقريب لحياة كل من إمبادقليس وأنكساغوراس . وثمة كتابان يُعزوان إليه يعتبران المرجعين الرئيسيين اللذين تضمنا فحوى تعاليم تلك المدرسة ، ولم يتبق منهما سوى بضع شذرات . بيد أن أعمال ديموقريطس تلميذه فيما بعد ، قد تضمنت فحواها ، بل وقد فاقتهما دقة وتوسعاً وإسهاباً . وليست هناك فى الواقع اختلافات جوهرية يمكن تحديدها بين مذهب ليوكيبوس ومذهب ديموقريطس ، فكان يُستشهد بهما معاً حتى عهد أرسطو . ولكن منذ عهد أرسطو ، فإن ديموقريطس قد صار المثل للمذهب الذرى فى الفلسفة .

Looloo
www.dvd4arab.com

ولد ديموقريطس فى أبديرا من أعمال تراقية ، وكانت مدينة غنية بناها فريق من الإيونيين بالقرب من مناجم ذهب ، وقد ذكر عن نفسه « أن أحداً من أهل زمانه لم يقم بمثل ما قام به من رحلات ، ولم ير مثل ما رأى من بلدان ، ولم يستمع إلى مثل ما استمع إليه من أقوال العلماء ، ولم يتفوق عليه فى علم الهندسة حتى المهندسون المصريون » . وفى مقدمة الذين استفاد بعلمهم ليوكيبوس وزينون الذى استوعب علمه ثم ذهب إلى أبديرا وأنشأ فيها مدرسة ، وقد أخذ أرسطو يقرن اسمه دائماً باسم ديموقريطس تلميذه وصديقه وينسب إليهما مذهباً واحداً . وعرف هذا المذهب قديماً من كتب ديموقريطس ، وكانت تؤلف موسوعة كبرى فى أسلوب تعليمى تناولت أصناف العلوم والفنون (الأخلاق والطبيعة والنفس والطب والنبات والحيوان والرياضيات والفلك والموسيقى والجغرافيا والزراعة والصنائع) ولم يبق منها سوى شذرات متفرقة .

يقول ديموقريطس عن نفسه إنه كان أصغر من أنكساغوراس ، وذاعت شهرته حوالى عام ٤٢٠ ق م . ولقد قام برحلات واسعة إلى الجنوب والشرق بحثاً عن المعرفة ، وربما يكون قد قضى وقتاً طويلاً فى مصر ، ومن المؤكد أنه زار إيران (الفرس فى ذلك الوقت) . وبعد ذلك عاد إلى أبديرا حيث أقام هناك . وينعته زيلر بأنه « أعظم من جميع الفلاسفة الذين سبقوه والذين عاصرهم لعظم ثروته المعرفية ودقته ومتانة منطق تفكيره » .

والواقع أن ديموقريطس وليوكيبوس كان شأنهما شأن الفلاسفة لوقتهما قد صبّا اهتمامهما على العثور على طريقة يوفّقون بها بين حجج بارمنيدس وبين الواقع المرئى بوضوح والمتمثل فى الحركة والتغير ، فيقول أرسطو فى ذلك :

« إنه على الرغم من أن هذه الآراء (آراء بارمنيدس) تبدو متمشية منطقياً مع ما تقره المناقشة الديالكتيكية ، فإن الاعتقاد فى مضمونها يبدو قريباً من الجنون عندما يأخذ المرء الوقائع البادية للعيان فى اعتباره . فالمجنون وحده هو الذى يمكن أن يقر بأن الناس والثلج شىء واحد » .

بيد أن ليوكيبوس قد اعتقد أن لديه نظرية يستطيع بها أن يعترف بحقيقة الإدراك الحسى دون أن يعمل على ملاشاة البزوغ إلى الوجود والاختفاء من الوجود أو الحركة وتعدد الأشياء . فهو يطأطئ رأسه للوقائع الإدراكية . ولكنه من الجهة المقابلة يوافق الأحاديين على أنه لا يتسنى حدوث حركة بغير خلاء . ولقد تأتّى عن ذلك بزوغ نظرية على النحو التالى : « إن الخلاء هو فى الوقت نفسه « عدم وجود » ، وليس هناك جزء مما يوجد هو فى الوقت نفسه « عدم وجود » . ذلك أن ما هو موجود هو بالمعنى الدقيق للكلمة « امتلاء مطلق » . على أن هذا الامتلاء ليس « واحداً » ، بل على العكس من هذا إنه « كثير » ولا نهائى فى العدد وغير مرئى بسبب صغر حجمه جداً . و « الكثير » يتحرك فى الفراغ (ذلك أن هناك فراغاً) ، وبالتحامه بعضه ببعض فإن المقومات الملتحمة تنتج « أشياء تدخل فى نطاق الوجود » ، بينما لدى افتراقها فإنها تنتج « الاختفاء من الوجود » .

والواقع أن الأفكار الرئيسية المشتركة فيما بين فلسفة ليوكيبوس وديموقريطس كانت تعزى إلى الأول ، بينما استطاع ديموقريطس أن يقوم ببلورة تلك الأفكار وتقديمها . ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا إن ليوكيبوس أو ديموقريطس أو الاثنين معاً قد توصلا إلى المبدأ الذرى فى تفسير الوجود فى محاولة الوقوف موقفاً وسطاً فيما بين الأحادية Monism والكثرية Pluralism كما قدمهما بارمنيدس وأميذقليس على التوالى . ولا شك

أن نظرية ليوكيبوس وديموقريطس كانت مشابهة بشكل ملفت للنظر لنظرة العلم الحديث ، وقد تحاشت معظم الأخطاء التى كانت تنحو إليها التأملات لدى الفلاسفة اليونانيين السابقين . فلقد اعتقدا أن كل شىء مكون من ذرات ، وتلك الذرات غير قابلة للانقسام فيزيائياً وليس هندسياً ، وأن ثمة فراغاً أو مسافة فارغة بين كل ذرة وأخرى ، وأن تلك الذرات غير قابلة للتحطيم أو الإتلاف ، وأن بينها وبين غيرها من ذرات مسافة فارغة ، وأنها كانت وستظل دائماً فى حركة دائبة ، وأن ثمة عدداً غير محدود من الذرات ، بل عدداً غير محدود من أنواع الذرات فيما يتعلق بالشكل والحجم . ويؤكد أرسطو أنه تبعاً للذريين ، فإن الذرات تختلف أيضاً فيما يتعلق بحرارتها . فالذرات الكروية التى تشتمل على النار هى أعلى الذرات حرارة ، وفيما يتعلق بالوزن فإنه يستشهد بديموقريطس فى قوله : «كلما كانت الذرة أكثر تعذراً على الانقسام ، فإنها تكون أكثر ثقلاً» . أما التساؤل عما إذا كانت الذرات قد حصلت أصلاً على وزنها فى نظريات الذريين ، فإنها مسألة حولها خلاف .

ولقد اعتمد ليوكيبوس وديموقريطس على التجربة ، فتوصلا إلى وجود ذرات مادية غاية فى الدقة ، كالتى تتطاير فى أشعة الشمس ، والذرات الملونة التى تذوب فى الماء ، والذرات الرائحية التى تتصاعد مع الدخان أو الهواء . ودلتهما التجربة أيضاً على أن اللبن والخشب يرشح منهما الزيت والماء ، وأن الضوء يخترق الأجسام الشفافة ، وأن الحرارة تخترق جميع الأجسام تقريباً ، وبدا لهما أن فى كل جسم مساماً خالية يستطيع جسم آخر أن ينفذ منها . وكانت طريقتهما فى التوفيق أن قسما الوجود الواحد المتجانس عند الإيليين إلى عدد غير متناه من الوحدات

المتجانسة غير المنقسمة وغير المحسوسة لتناهيها فى الدقة ، ووضعاها فى خلاء غير متناه تتحرك فيه فتتلاقى وتفترق فتحدث بتلاقيها وافتراقها الكون والفساد ، وقالا إنها قديمة لأن الوجود لا يخرج من اللاوجود ، وأنها دائمة من حيث إن الوجود لا ينتهى إلى اللاوجود ، وأنها متحركة بذاتها ، وواحدها الجوهر الفرد فإنها جميعاً امتداد فحسب أو ملاء غير منقسم ، فهى متشابهة بالطبيعة تمام التشابه ، وليست لها أية كيفية ولا تمايز بغير الخصائص اللازمة من معنى الامتداد وهى الشكل والمقدار . أما الشكل فمثل ٨ و N ومنها المستدير والمجوَّف والمحدَّب ، والأملس والخشن ، إلى غير ذلك ، وأما المقدار فيتفاوت مع إبائه القسمة وخلوه من الثقل . كذلك يتميز الخلاء الفاصل بينها بالمقدار والشكل ، وليس الخلاء عدماً ، ولكنه امتداد متصل متجانس يفترق عن الملاء بخلوه من الجسم والمقاومة ، ويسمى ليوكيبوس وديموقريطس الملاء وجوداً والخلاء لا وجود ، ويعتبرانهما علّتين ماديتين على السواء . ذلك أنهما ظنا أنه لولا الخلاء لما تمايزت الجواهر ولما كانت الكثرة ، ولامتنعت الحركة ، وأن القول بالحركة والكثرة يقتضى حتماً القول بالخلاء واعتباره مبدأ حقيقياً إلى جانب الملاء .

والذرات — كما قلنا — كانت منذ القدم فى حركة مستمرة ، ولكن ليس هناك اتفاق بين دارسى الفلسفة حول ما ذهب إليه الفيلسوفان بإزاء طبيعة الحركة الأصلية . فواحد مثل زيلر يعتقد أنهما اعتقدا أن الذرات كانت فى حالة سقوط دائم ، وأن الذرات الأكثر ثقلاً تسقط بشكل أسرع ، وهذه كانت فى الواقع وجهة نظر أبيقور الذى أقام نظرياته فى الأغلب على نظريات ديموقريطس . بيد أن رس يعتقد أن الوزن لم يكن من الخصائص الأصلية للذرات عند ليوكيبوس وديموقريطس .

Looloo
www.looloo.com

ويبدو أن من الأرجح أنهما كانا يعتقدان أن الذرات كانت تتحرك فى الأصل بطريقة عشوائية . ولقد قال ديموقريطس أن ليس هناك أعلى وأنخفض فى الخلاء اللانهائى ، وقارن حركة الذرات فى الروح بالهباء الموجود فى أشعة الشمس عندما لا تكون هناك رياح .

ويؤكد ديموقريطس أن كل ذرة غير قابلة للانشطار أو الاختراق ، وذلك لخلوها من الخلاء . فأنت عندما تستخدم سكيناً فى قطع تفاحة ، فإن السكين لا بد أن تجد أماكن خالية حتى يتسنى لها أن تخترق التفاحة فلو أن التفاحة كانت خالية من الخلاء ، لما أمكن قطعها ولكانت صلدة تماماً . وكل ذرّة غير قابلة للتغير فى داخلها ، والشىء الوحيد الذى تفعله الذرات هو التحرك والاصطدام بعضها ببعض ، وفى بعض الأحيان الالتحام بعضها ببعض وذلك لاتخاذ أشكال متداخلة بعضها مع بعض . وهى ذات أشكال من جميع الأنواع ، فالنار تتكون من ذرات كروية صغيرة ، وكذا نجد ذرات الروح . والذرات فى تصادمها تحدث دوامات يتأتى عنها أجسام ويتأتى عنها فى النهاية عوالم ، وثمة عوالم كثيرة ، بعضها ينمو وبعضها الآخر يتآكل . وبعض العوالم تكون بغير شمس أو قمر ، وبعضها يحظى بشموس وأقمار كثيرة . ولكل عالم بداية ونهاية . وثمة عالم قد يتحطم بأن يتصادم بعالم أكبر منه .

ويجب علينا — كما يقول رسل — ألا نعتقد أن نظريات الذريين كانت قائمة على أساس التجريب تماماً . فالواقع أن النظرية الذرية قد استُنهضت فى العصور الحديثة لشرح حقائق الكيمياء ، ولكن هذه الحقائق لم تكن معروفة للإغريق . ذلك أنه لم يكن ثمة تمييز قاطع فى العصور القديمة فيما بين الملاحظة التجريبية وبين البرهان المنطقى . صحيح أن بارمنيدس قد تعامل مع الوقائع المشاهدة باحتقار ، ولكن

أمبادقليس وانكساغوراس قد ربطا الكثير من نظرياتهما الميتافيزيقية بالملاحظة التى أجرياها على ساعات الماء والدلاء الدوارة . وإلى أن ظهرت السوفسطائية لم يكن ثمة من الفلاسفة من كان يشك فى أن الميتافيزيقا والدراسات الفلكية لا يمكن أن تكون متكاملة إلا إذا ربطت فيما بين التفكير والبرهنة وبين بعض الملاحظة . ومن حسن الحظ أن الذريين قد صوبوا الذهن إلى فرض ظل لمدة ألفى سنة بعدهم إلى أن وجدت الشواهد والدلائل التى تثبته ، برغم أن اعتقادهم فى عهدهم لم يكن خالياً من الأساس الوطيد الذى ينبنى عليه .

لقد كان من الشائع قديماً اتهام الذريين بعزوهم كل شىء إلى المصادفة . ولكن هذا الاتهام فى غير محله كما يعتقد رسل . فهم كانوا على العكس من ذلك حتميين بشكل قاطع ، فقد اعتقدوا أن كل شىء يحدث وفقاً للقوانين الطبيعية . فنجد أن ديموقريطس ينكر بصراحة أن أى شىء يمكن أن يحدث بالصدفة . وكذا فإن ليوكيبوس — برغم أن وجوده أصلاً مشكوك فيه — يُنْسب إليه أنه قال : «إن العدم لا يحدث بغير هدف ، بل إن كل شىء يحدث يقوم على أساس وبالضرورة» . صحيح أنه لم يكن لديه سبب يبرر وجود العالم أصلاً كما كان عليه ، وربما يُعزى ما ذهب إليه إلى المصادفة . ولكن حالما بزغ العالم إلى الوجود ، فإن تطوره الذى حدث بعد ذلك كان ثابتاً ، بل وكان مقيَّداً بقوانين وبمبادئ ميكانيكية . وعلى الرغم من أن أرسطو وغيره قد وجهوا الانتقاد إليه وإلى ديموقريطس ، لأنهما لم يقدما تفسيراً للحركة الأصلية للذرات ، فإن الذريين كانوا فى الواقع أكثر علمية من ناقديهم . فالحدوث يجب أن يبدأ من شىء ما ، ولكن لا يمكن تحديد المكان الذى ينطلق منه الحدوث . فلقد يعزى نشوء العالم إلى خالق ، ولكن حتى

www.dvd4arab.com

بالنسبة للخالق نفسه ، فليس من تفسير لأصل وجوده . فنظرية الذريين كانت أكثر قرباً من العلم الحديث من أى نظرية قدمت فى العصور القديمة .

على أن الذريين خلافاً لسقراط وأفلاطون وأرسطو قد نشدوا تفسيراً للعالم دون أن يدخلوا فيه مفهوم الغَرَض أو العلة النهائية . « فالعلة النهائية » لواقع ما هو حادثة سوف تقع فى المستقبل من أجلها تحدث الواقعة . ولا شك أنه بالنسبة للشئون البشرية ، فإن هذا المفهوم قابل للتطبيق . فإذا ما تساءلنا : لماذا يقوم الخباز بصنع الخبز ؟ فتكون الإجابة : لأن الناس سوف يحسون بالجوع فيطلبون الخبز . وإذا نحن تساءلنا : لماذا تمد خطوط السكك الحديدية وتستخدم القطارات ؟ فتكون الإجابة : لأن الناس سوف يسافرون . فنحن عندما نسأل « لماذا » بصدد أى حادثة ، فإننا نعنى إذن شيئاً من شيئين : فلقد نعنى « ما الهدف الذى خدمته تلك الواقعة ؟ » أو قد نعنى : « ما الظروف السابقة التى أدت إلى وقوع هذه الحادثة؟» . والإجابة عن السؤال الأول هى إجابة غائية ، أو هى إجابة تشير إلى أسباب نهائية . أما الإجابة عن التساؤل الأخير فإنها إجابة ميكانيكية . والواقع — كما يقول رسل — أن الخبرة قد برهنت على أن التساؤل الميكانيكى يؤدى إلى التوصل إلى معرفة علمية ، بينما لا يؤدى إلى ذلك التساؤل الغائى . ومن فخر الذريين أنهم أثاروا سؤالاً ميكانيكياً وقدموا إجابة ميكانيكية . أما الفلاسفة الذين أتوا بعدهم حتى عصر النهضة فإنهم كانوا يركزون اهتمامهم على التساؤل الغائى ، وهذا ما انتهى بالعلم إلى طريق مسدود .

وديموقريطس — شأنه شأن بارمنيدس — من حيث إنه اعتقد باستحالة وجود خلق مطلق أو فناء مطلق ، ولكنه لم يرغب فى إنكار

تنوع وتباين الوجود والحركة والبزوغ إلى الوجود والتوقف عن تواجد الأشياء المركّبة . ومن هنا فإن ديموقريطس قد أعلن أن الملاء والفراغ هما المقومان الأساسيان لكل الأشياء . ولكنه لكى يفسر هذه الظواهر فإنه انتهى إلى القول بالذرات .

وبينما نجد أن امبادقليس وأنكساغوراس قد اعتقدا أن ثمة قوى يجب أن تتوافر حتى يتسنى إحداث الحركة فى المادة الأولى ، وقد عزا أمبادقليس ذلك إلى الحب والكراهية ، بينما عزاه أنكساغوراس إلى العقل ، فإن الذريين — شأنهم شأن الفيزيائيين الإيونيين القدماء — قد عمدوا إلى نقل الحركة إلى المادة الأولى ذاتها . فالذرات تتحرك منذ البداية حركة دائرية بفضل تباين حجمها ووزنها . وبواسطة هذه الحركة فإن الذرات المشابهة تلتئم بعضها مع بعض من جهة ، ومن جهة أخرى فإن المركبات الذرية والمنفصلة والمنعزلة أو العوالم تتشكل بواسطة الترابط بين الذرات ذات الأشكال المختلفة . وحيث إن الحركة بلا بداية وحيث إن كتلة الذرات والفضاء الخالى بلا حدود ، فإذن لا بد أن يكون هناك عدد لا نهائى من تلك العوالم التى تتضمن حالات مختلفة ومتباينة إلى حد بعيد ، كما أنها تتخذ أشكالاً متباينة أيضاً إلى حد بعد . وتخمينات ديموقريطس بإزاء خلق النجوم وتشكيلها فى الهواء وجفافها التدريجى واشتعالها ، إلى غير ذلك من حالات ، إنما يتمشى مع افتراضه العام .

والواقع أن ديموقريطس كان شأنه شأن اناكسيمانس من حيث تخيله للأرض كأسطوانة دائرية متوازنة فى الهواء ومجوفة فى الوسط على هيئة حوض . ولقد استعان بهذا الفرض فى تفسير سبب شروق الشمس وغروبها فى أوقات مختلفة بالأماكن المتباينة ، والنجوم التى من بينها

Loolbb
www.dvd4arab.com

بالطبع أكبرها وهما الشمس والقمر قد انخرطت فى نظامنا بعد إتمام تكوينها وقبل أن يميل محور الأرض ، فصارت تدور حول الأرض بانحراف بزاوية أفقية .

ويبدو أن ديموقريطس قد أولى اهتماماً كبيراً للطبيعة العضوية . فلقد نشأت الكائنات العضوية فى رأيه من طين الأرض . ويبدو أنه قد قام بدراسة عميقة خاصة بالإنسان . ومن هنا فإنه أناط جانباً من الحضارة بدراسته للكون والكائنات الحية . وفى هذه الدراسة فإننا نجد أن الحتمية تشكل المصدر الرئيسى للتقدم فى حياة الإنسان . ومن خلال الحتمية فإن الإنسان قد تعلم أن يتعاون مع أفراد نوعه فى الصراع ضد الوحوش المفترسة ، لقد أدت الحاجة إلى الفهم إلى خلق اللغة ، وأيضاً فإنه مع اختراعه التدريجى للأدوات التقنية استطاع أن يجد لدى الحيوانات نموذجاً يحتذيه ، ولكن الإنسان أحرز تقدماً كبيراً فى هذا المضمار بفضل اكتشافه للاستخدامات التى يمكن أن تتأتى عن استخدام النار ، وهكذا استطاع الإنسان أن يرتفع فوق المستوى البدائى والحيوانى وأن يرتقى إلى مراقى الحياة الحضارية .

وعلى الرغم من أن ديموقريطس قد أناط بنية الجسم البشرى بالكثير من أسباب تحضره ، فإنه أضفى قيمة أكبر على الروح وعلى الحياة العقلية . ولكنه فسر الروح باعتبارها شيئاً محسوساً . فهى تتكون من ذرات دقيقة وناعمة ومستديرة ، وهى ذرات نارية تتوزع خلال الجسم كله . ولا يتسنى الحفاظ على الروح متلبسة بالجسد إلا بالشهيق ، ولكنها تفقد جانباً من قوامها بإضافة الهواء إليها . وهذه الذرات أو الجواهر أوفر عدداً فى مراكز الإحساس والفكر ، أى فى أعضاء الحواس

والقلب والكبد والمخ . فهى تكتسب الحساسية إذا توافرت فيها . وطالما هى حاصلة كلها فى البدن دام الشعور ، فإذا فقد بعضها كان النوم واللاشعور . فإذا فقد معظمها كان الموت الظاهر . وإذا فقدت جميعاً كان الموت الحقيقى ، أى فناء الشخص . وتحقيق الإدراك الحسى أن بخارات لطيفة تنحلل من الأجسام فى كل وقت محتفظة بخصائص الجسم المتحللة منه . فهى صور وأشباه تفعل فى الهواء المتوسط بين الشىء والحاسة فعل الخاتم أو الطابع فى الشمع وتتغلغل فى مسام الحواس فتدرك ، وإنما يختلف انفعالنا بها لاختلاف الجواهر المؤلفة للأجسام . فالخشنة منها تؤلف الأجسام الحامضة والمُرَّة ، بينما الملساء تؤلف الأجسام الحلوة وهكذا . وأما الفكر فهو الحركة الباطنة التى تحدث الإحساسات فى المخ ليس غير ، أو هو الصور المحسوسة ملطَّفة . ذلك أن الإحساس هو المصدر الوحيد للمعرفة ، وهى لا تخرج عن نطاق المادة ، وإذن فليس للإنسان أن يرجو خلوداً ، وإنما سعادته فى طمأنينة النفس وخلوها من الخرافات والمخاوف ، وتتحقق هذه الطمأنينة بالعلم والتسليم لقانون الوجود والتمييز بين اللذات والتزام الحد الملائم فيها ، فإن تجاوز الحد يحرُّ الألم واجتلاب الانفعالات العنيفة .

فديموقريطس قد مضى بالمذهب الآلى إلى حده الأقصى ووضعه فى صيغته النهائية ، فقال : إن كل شىء امتداد وحركة فحسب ، ولم يستثن النفس الإنسانية كما رأينا ولم يستثن الآلهة ، فذهب إلى أنهم مركبون من جواهر كالبشر ، إلا أن تركيبهم أدق ، فهم لذلك أحكم وأقدر وأطول عمراً بكثير ولكنهم لا يخلدون ، فإنهم خاضعون لقانون العالم ، أى للفساد بعد الكون واستئناف الدور وفق ضرورة مطلقة ناشئة من « المقاومة والحركة والتصادم » دون أية غائية أو علة خارجة

www.dvd4arab.com

عن الجواهر مثل المحبة والكراهية ، ودون أية علة باطنة مثل التكثف والتخلخل ، ودون أية كيفية . فالمذهب غاية فى البساطة ولكنه حافل بالصعوبات . فما هى الضرورة التى يزعمها ديموقريطس لاجتماع الجواهر وتفرقها على نظام مطّرد وأنواع ثابتة ؟

أليس الأصح — كما يقول يوسف كرم — أن عالمه عالم اتفاق ومصادفة ؟ بل ما هى علة الحركة منظّمة كانت أم مضطربة ، ونحن نفهم أن الثقل غير لازم بالذات من الكمية ولكن سلبه عن الجواهر يسلب عنها الحركة فتبقى فى سكون مطلق ، ثم كيف تتفاوت الجواهر بالمقدار وتتفق فى عدم الانقسام ؟ ، بل كيف يمكن أن يكون عدم الانقسام خاصية أصلية للجوهر والجوهر امتداد بحت خلو من كل مبدأ يرده للوحدة ؟ وما هو الخلاء وكيف يوجد امتداد غير مقاوم ؟ وديموقريطس يعتبر المعرفة الحسية نسبية ، ويقول إن المعرفة الحقة فى العقل ، ولكنه يجعل العقل صدى للحس ، ولا يفسر كيف يرتفع العقل فوق الحس ويدرك اللامحسوسات مثل الجواهر والخلاء ، وكيف يتفق الإحساس والعقل للطبيعة المادية بما هى مادية ؟

أما عن الكون والفساد فإن الحركة تعصف بالجواهر منذ القدم وتوجهها إلى كل صوب فى الخلاء الواسع ، فتتقابل على أنحاء لا تحصى وتتشابك بنتوءاتها وتتآلف فى مجموعات هى الموجودات . وإنما تختلف الموجودات باختلاف الجواهر المؤلّفة لها شكلاً ومقداراً ثم باختلاف الجواهر المتشابهة الشكل ترتيباً ووضعاً بعضها من بعض : الترتيب مثل N ٨ و N٨ والوضع مثل I و H أو Z و N بحيث يمكن القول إن الأشياء هندسة وعدد . ولما تتكون المجموعات تكتسب الثقل والخفة ، فالأثقل هو الأكبر حجماً ، والأقل خلاء يستقر بسهولة نحو محيط المجموعة ،

سواء أكانت هذه المجموعة عالماً أم شيئاً جزئياً فى العالم الواحد. وتكتسب سائر الكيفيات المحسوسة من لون وطعم وحرارة وغيرها ، فإن هذه الكيفيات تابعة من ناحية لتركيب الأشياء ومسافتها ووضعها ، ومن ناحية أخرى لتركيب الأشخاص وتغيرهم من حال إلى حال . والشواهد كثيرة . لذلك يقول ديموقريطس إنها « اصطلاح » أى نسبة حادثة بين الجواهر فى الأشياء وفى الحواس ، وأنها موضوع معرفة غامضة . أما الجواهر والخلاء فإنها موجودة حقاً وهى الموضوع الوحيد للمعرفة الحقة.

والحياة عند ديموقريطس قد تطورت من الطين فى أقدم العصور الجيولوجية . وثمة بعض النار فى جميع أنحاء الجسم الحى ، ولكنها تتركز أكثر ما تتركز فى المخ والصدر . والفكر هو نوع من الحركة ، وبذا يتسنى إحداث حركة فى مكان آخر . والإدراك الحسى والفكر هما عمليتان جسميتان . والإدراك الحسى نوعان : أحدهما خاص بالأحاسيس والآخر خاص بالفهم . والمدركات من النوع الأخير تعتمد على الأشياء المدركة حسياً فحسب ، بينما تعتمد مدركات النوع الأول أيضاً على إحساساتنا ، وهى لذلك قابلة لأن تكون خادعة . وديموقريطس شأنه شأن لوك من حيث إنه اعتقد أن تلك الخصائص مثل الدفء والذوق واللون ، ليست فى الأشياء التى يحسها المرء ، بل إنها تعزى إلى أعضاء الحس ، بينما تعزى خصائص أخرى مثل الوزن والكثافة والصلابة إلى الأشياء التى تحس ؛ فهى خصائص ذاتية للأشياء .

ويعتبر ديموقريطس — فى رأى زيلر — مؤسساً لنظام أخلاقى مثالى بمعنى الكلمة . فكما أن الفكر أرقى من الإدراك الحسى ، كذلك فإن المعرفة العقلانية للخير هى أرقى من الدوافع التى تقبل الحواس . وكذلك

Ebooks
www.ebooks-iq.com

فإن سلام النفس والهدوء المنسجم للروح هما أسمى من اللذة والألم . فديموقريطس فى دراسته المنطقية لهذه الفكرة قد توصل دون الإضرار بمبدأ نُشْدان السعادة الذى شارك فيه مع جميع أصحاب النظريات الأخلاقية القدماء جميعاً إلى الاستقلال الخُلقى للعقل الذى بفضله لا يكون هناك شىء يجب تجنبه ، مثل التصرف الذى يكون المرء شاعراً بالخجل فى نظر نفسه بسبب اقترافه . ومن الجدير بالملاحظة أن أرسطو لم يشر إلى ما قرره ديموقريطس من مبادئ أخلاقية ، بل جعل هذا الفرع من الدراسات الفلسفية انطلاقاً لأول مرة على يد سقراط .

أما عن آراء ديموقريطس بصدد الآلهة فى الاعتقاد الشعبى فإنها تبدو غريبة فى أنظارنا ، بالرغم من أنها تنسجم فى الواقع كل الانسجام مع نظرياته الفيزيائية . وعلى الرغم من أنه لم يستطع أن يشارك فى تلك المعتقدات كما هى ، فإنه رأى مع ذلك أن من الضرورى قيامه بشرحها وإلقاء الضوء عليها . وعلى الرغم من أنه لم ينبذ الفكرة التى تذهب إلى أن الظواهر الطبيعية الغريبة وغير المعتادة تجد لها تفسيراً بعزوها إلى عمل الآلهة ، أو أن الآلهة تقدم أفكاراً عامة معينة ، فإن نزعته الحسية الواقعية كانت تنحو إلى تحبيذ التفسير الواقعى . وكما أن الاعتقاد الشعبى انتحى فى زمانه إلى إفعام فراغات الهواء بالأرواح ، كذا فإن ديموقريطس ذهب إلى أن كائنات ذات الهيئة البشرية تسكن هذا الفراغ . بيد أن تلك الكائنات متفوقة على البشر فى الحجم وطول العمر ، كما أن تأثيرها يكون مفعماً بالشر أحياناً ، وبالخير أحياناً أخرى . أما الصور التى يرسلون بها إلى الناس أو التى يظهرون بها لهم وهم فى حال اليقظة أو النوم فمن المعتقد أنها آلهة . ولقد حاول ديموقريطس أيضاً أن يستخدم مذهبه الخاص بالصور الذهنية والظواهر الروحانية فى تقديم تفسير للأحلام

التنبؤية ولتأثير العين الحاسدة . ولقد اعتقد أيضاً أن نذر الفأل الطيبة المتعلقة بأحداث معينة ، يمكن أن تستشف من ملاحظة أحشاء الأضحيات التى تقدم للآلهة .

والواقع أن ديموقريطس ظل تأثيره هو ومدرسته فى أبديرا مدة طويلة . ولم تقع تغيرات فى أصول مذهبه ، بيد أن ممثلى مدرسته فيما بعد قد أبدوا ميلاً نحو النزعة الشكّية التى أخذت تستشرى أكثر فأكثر .

ولا شك أن ديموقريطس — كما يقول رسل — كان مادياً بمعنى الكلمة . فالروح لديه كما رأينا كانت مكونة من ذرات ، كما أن التفكير كان عملية جسمية . أما بالنسبة للكون فليس له فى نظره هدف يسعى إليه ، فليس ثمة سوى ذرات محكومة بقوانين ميكانيكية . وهو فى الواقع لم يكن مؤمناً بالديانة الشعبية لوقته ، وقد قدَّم البراهين ضد ما يسمى بالناوس Naus عند أناكساغوراس . وفى مجال الأخلاق فإنه اعتبر أن الشعور بالبهجة هو الهدف الذى يجب أن يسعى إليه المرء فى الحياة ، كما أنه اعتبر التوسط والاعتدال والثقافة الضمان الحقيقى لبلوغ الإحساس بالبهجة . وكان ديموقريطس يكره كل ما هو عنيف أو مثير للغضب ، ولم يكن موافقاً على الانغماس فى الجنس وذلك كما قال ، لأنه يتضمن اكتساح الشعور بواسطة اللذة . وكان ديموقريطس مقدِّراً لقيمة الصداقة ، ولكنه لم يكن مطمئناً إلى صداقة النساء ، ولم يكن محبذاً لإنجاب الأطفال ، وذلك لأن تربيتهم تتداخل مع التفلسف . وفى كل هذا كان شبيهاً بجيرمى بنتام .

ويعتقد برتراند رسل أن ديموقريطس هو آخر الفلاسفة اليونانيين الذين كانوا متحررين من خطأ معين استشرى فى جميع الفكر القديم والوسيط فيما بعد . فجميع الفلاسفة السابقين عليه كانوا يبذلون جهداً غير مقيد بشىء لفهم العالم . فلقد اعتقدوا أن من الأسهل فهم الأشياء

Legeo

أكثر مما تبدو عليه ، ولكن بغير هذه النزعة التفاؤلية لم يكن لهم أن يتذرعوا بالشجاعة للبدء فى التفكير الفلسفى . ولا شك أن اتجاههم فى صميمه كان اتجاهاً علمياً حقيقياً فى الحالات التى لم يكونوا مغمورين فيها بمعتقدات عصرهم . على أن اتجاههم لم يكن علمياً فحسب ، بل إنهم كانوا مفعمين بالخيال والحماس كما كانوا يستشعرون البهجة فى مغامراتهم الذهنية. ولقد كانوا مهتمين بكل شىء — بالصواعق والكسوف والخسوف والأسماك والزوابع والدين والأخلاق . فهم قد جمعوا فى شخصياتهم بين الذكاء الثاقب وبين حماس الطفولة .

فمنذ ديموقريطس إلى ما بعده وثمة بذور الانحطاط قد غرست فى تربة الفكر الفلسفى خلافاً لما كان فى عهد ديموقريطس ومن سبقوه من فلاسفة حازوا الكثير من الانتصارات الفلسفية ، ومن بعدهم بدأ التدهور الفلسفى كما يقول رسل . فما افتقدته الفلسفة بعد ديموقريطس هو ذلك التأكيد المبالغ فيه على الإنسان فى مقابل الكون . فلقد جاء السوفسطائيون أولاً بنزعتهم الشكية ، مما أفضى إلى مدارسة ما يجب أن نعلمه بدلاً من بذل المحاولات للحصول على معرفة موضوعية جديدة . وبعد السوفسطائيين جاء سقراط الذى أخذ يؤكد على الأخلاق . وبعده جاء أفلاطون الذى نبذ عالم الحواس فى سبيل خلق عالم ذاتى بفكر بحت ، وبعده جاء أرسطو الذى اعتقد فى الغائية باعتبارها المفهوم الأساسى للعلم . وعلى الرغم من عبقرية أفلاطون وأرسطو ، فإن فكرهما مشوب بالعيوب التى أثمرت أضراراً بالغة للفلسفة . فبعدهما تدهور الحماس الفلسفى وذاعت الخرافات الشعبية . ولم تنهض الفلسفة من مرقدها إلا مع بزوغ عصر النهضة حيث استرجعت نشاطها واستقلالها .

* * *

الفصل الرابع عشر

انكساغوراس

ANAXAGORAS

(٥٠٠ — ٤٢٨ ق م)

ولد فى أقلازومان بالقرب من أزمير من أعمال أيونية فى أسرة نبيلة وثرية ، وخلافاً لغالبية الفلاسفة الذين سبقوه ، فإنه ظل فى منأى عن السياسة ، وأكثر من هذا فإنه أهمل إدارة عزبته لكى يكرس نفسه بالكلية للبحث الفلسفى . ولقد كان فى الواقع أول مفكر عاكف على التأمل بوعيه وإرادته ، وقد رأى فى معرفة العالم المهمة والغاية من الحياة ، وكان مقتنعاً بالآثار الخُلُقية المعارضة لذلك التأمل . وأدى استعداده وطبيعته إلى تحقيق ترابط عميق فيما بين قدرته على المعرفة القائمة على الخبرة والملاحظة ، وبين قدرته على التأمل . وتلقى العلم فى مدرسة أنكسيمانس على ما يرجّح ، ولما ناهز الأربعين نزح إلى أثينا لأسباب غير معروفة ، وكانت قد بلغت مكانة عالية بعد انتصارها على الفرس وصد غاراتهم عن العالم اليونانى ، وكان بركليس يستقدم إليها الأدباء والعلماء ليجعل منها مركز اليونان فى الثقافة والسياسة على السواء ، فلما دخلها أنكساغوراس دخلت معه الفلسفة لأول مرة . فأقام فيها ثلاثين سنة فيما بين عام ٤٦٢ وعام ٤٣٢ ق م . ويحتمل أن يكون بركليس هو الذى أغراه بالنزوح إليها ، وربما يكون أسياسيا الذى وفد من ملطية هو الذى قدمه إلى بركليس ، وكان أنكساغوراس

Looloo
www.dvd4arab.com

خلال فترة إقامته بأثينا قطب الحركة الفكرية هناك، ولما أذن نجم بركليس صديقه وولى نعمته بالأفول أصبح هدفاً لكيد الخصوم السياسيين ، وبالطبع كان هناك تفاوت كبير فى مدى الاهتمام بالفكر الفلسفى فيما بين صفوة المفكرين وبين جمهور الشعب، الذين ساورتهم الشكوك تجاه الفكر الفلسفى ، واتهمه هؤلاء بالإلحاد آملين أن ينالوا من الرجلين جميعاً ، واستشهدوا بما كان قد ذهب إليه أنكساغوراس من أن القمر أرض فيها جبال ووديان ، وأن الشمس والكواكب أجرام ملتهبة لا تختلف طبيعتها عن طبيعة الأجسام الأرضية كما يتبين من مقابلة الأحجار المتساقطة من السماء بما عندنا من أحجار . ولم يكن الأثينيون يطيقون مثل هذا القول لاعتقادهم أن كل ما هو سماوى فهى إلهى . ومن ثم فى عام ٤٣٢ ق م قام كاهن أوراكل المسمى ديوبيثز بإصدار قرار فى اجتماع قال فيه : « إن هؤلاء الناس الذين لا يتقبلون تعاليم الدين والذين ينشرون مذاهب فلكية يجب أن يقدموا إلى المحاكمة » . وبعد ذلك بوقت قصير وقبل اندلاع حرب البلوبينيز استولى معارضو بركليس على زمام السلطة ، فاضطر أنكساغورس لمغادرة المدينة وعاد إلى آسيا الصغرى ونزل لبساقوس ومات فيها بعد سنوات قليلة وهو محاط بكل الحفاوة .

ويذهب زيلر إلى أن فلسفة أنكساغوراس تعتبر النظام الفلسفى الثانى الذى عمد إلى التوفيق بين المذاهب الفلسفية السابقة ، وكان أمبادقليس هو الفيلسوف الأول الذى حاول ذلك . ولكن بينما شكلت الفيزياء عند أمبادقليس جانباً واحداً من نظامه النسكى ، برغم أنه جانب هام فى فلسفته، وبرغم أنه كان محاولة لتفسير جانب واحد من العالمين اللذين يشكلان سوياً الكون ككل ، فإن أنكساغوراس كان فيلسوفاً

متحرراً من أى أثر من آثار النزعة النسكية ، وقد نهج نهجاً عقلانياً كما كان يفعل الفيزيائيون الإيونيون القدماء .

ولقد وافق أنكساغوراس على ما ذهب إليه أمبادقليس من أن البزوغ إلى الوجود والتوقف عن الوجود مستحيل ، ومن ثم فإن التغير الكيفى أو النوعى للأشياء غير معقول . ومن ثم فإن كل بزوغ إلى الوجود لا يتشكل إلا من ارتباط الأشياء بعضها ببعض ، وأن كل توقف عن الوجود يتمثل فى عملية الانفصال فيما بين العناصر الموجودة ، وأن كل تغير فى الكيف إنما يتأتى عن حدوث تغير فى التكوينات المادية . بيد أنه لم يستطع أن يقدم تفسيراً لكيف أن المادة فى ذاتها تصدر الحركة التى من خلالها يحدث الارتباط والانفصال . ذلك أنه أنكر وجود الخلاء كما يقول بارمنيدس وميليسس ، كما أنه لم يقدم تفسيراً للحركة المنظمة التى أنتجت ذلك الكل المتمثل فى العالم .

ويبدو أن القوتين نصف الماديتين ونصف الأسطورتين وهما الحب والكراهية اللذين استخدمهما أمبادقليس لشرح القوة ومصدرها لم تبدوا كافيتين فى نظر أنكساغوراس . فذهب إلى أن تفسير تلك القوة المحركة لا يمكن أن يناط إلا بعمل كائن تعلو معرفته وقوته على كل شىء ، فالحركة من عمل كائن مفكر وعقلانى وكلى القدرة أسماه العقل Mind ، أو النوس Nous . فهذه القوة والفكر لا يمكن أن يتأتيا للنوس إلا عندما يمتزج بشىء آخر غير موجود . ولا يعاق إلا بشىء آخر غير موجود . فالفكرة الرئيسية عند أنكساغوراس إذن هى مفهوم العقل المتميز من المادة ، وأهم خصيصة أساسية لهذا التمايز قد وجدها فى أن العقل بسيط بدرجة مطلقة ، وأن المادة مركبة تماماً . والعقل « ممتزج بلا شىء » ، كما أنه « يوجد لأجل ذاته فحسب » .

www.dvd4arab.com

إنه « الأدق والأنقى من جميع الأشياء » وهو حائز على معرفة كاملة بجميع الأشياء ولديه أعظم قوة .

وهذه التعبيرات لا تؤكد بصراحة عدم قابلية العقل للتجسد ، ولكنها تشير بالتأكيد إلى أن وظيفته الرئيسية تتمثل فى فصله للكتلة المختلطة ، وبدا فإن معرفته لا تكون أكثر من عملية التبيز . أما المادة من جهة أخرى قبل أن يعمل العقل عمله فيها ، فإنها كانت توجد ككتلة لا يوجد بها شىء منفصل عن أى شىء آخر . وحيث إن كل شىء لا بد أن يتطور من هذه الكتلة من خلال مجرد فصل مقوماتها ، فلا يمكن تصورها ككتلة متجانسة ، ولا كمزيج من عناصر أولية كالعناصر التى قال بها أمبادقليس . إنها تتكون بالأحرى تبعاً لأنكساغوراس من مزيج لا يعد أو يحصى ، وغير مخلوق ، وغير قابل للفناء ، وغير قابل للتغير ، ولكنه ليس أجزاء غير قابلة للقسمة لمركب معين ، أعنى أجزاء من ذهب أو لحم أو عظام ، ... إلخ .

ولقد بدأ أنكساغوراس فى وضع نظريته عن نشأة الكون فى ضوء هذا الوصف للحالة عندما كانت جميع العناصر مختلطة بعضها ببعض تماماً . وقد تمت عملية الفصل عندما أحدث العقل حركة دوارة كانت فى بداية الأمر عند نقطة واحدة فقط . ثم انطلقت الدوامة من هذه النقطة وأخذت تجذب أجزاء متكثرة أكثر فأكثر من الكتلة غير المتناهية . ولسوف تعمل على جذب أجزاء أخرى أكثر فأكثر كلما تقدم الزمن . والواقع أنه ليست لدينا شواهد تشير إلى أن أنكساغوراس قد ذهب إلى أن العقل يلعب دوراً فى مراحل تالية من عملية خلق العالم . ولقد نعى كل من أفلاطون وأرسطو على أنكساغوراس لأنه لم يعرف كيف يستفيد

من مبادئه الجديدة التى قام باكتشافها فى تقديم تفسير غائى للطبيعة ، بل إنه اقتصر على ذكر عمل أعمى يتأتى عن عوامل مادية شأنه فى ذلك شأن السابقين عليه .

ولقد بدأت الحركة الدوارة بادئ ذى بدء بالقيام بفصل المواد إلى كتلتين اشتملت إحداهما على الدفء والصلب والمضىء والمتخلخل ، بينما اشتملت الثانية على البارد والرطب والمظلم والكثيف . ومع استمرار الحركة فإن انفصال المواد أخذ فى التزايد ولكنه لم يتوقف عند حد . ذلك أنه فى كل جزء توجد أجزاء أخرى من كل شىء ، وبهذا وحده فإن شيئاً ما يمكن أن يتخذ شكلاً مختلفاً عما كان عليه دون أن يحدث تغيُّر فى مقوماته المادية ، وذلك من خلال سيادة مقومات معينة لديه . فلو أن الجليد لم يكن متضمناً المواد (أعنى إذا لم يكن متضمناً القتامة فى مقوماته كما يتضمن اللون الفاتح فى الوقت نفسه) لما أمكن أن يكون الماء الذى يذوب فيه متخذاً اللون القاتم .

ولقد ابتعد النحيف والحار إلى الخارج بواسطة الحركة الدوارة ، بينما انتحى الغليظ والرطب إلى المركز ، وهذا أدى إلى تشكيل الأرض التى تخيلها أنكساغوراس شأنه شأن الإيونيين كأسطوانة مسطحة مسنودة بواسطة الهواء ، أما النجوم فإنها تكونت بواسطة كتل حمراء ساخنة من الحجارة التى انتزعت من الأرض بقوة الدوران وقُذف بها فى الأثير . ولقد تحركت فى البداية فى الأفق حول اسطوانة الأرض ، ولكن منذ أن مالت الأرض إلى أسفل بنصفها الجنوبى فإن الممرات التى تسلكها تقاطعت مع مستوى سطح الأرض . ولقد تخيل أنكساغوراس أن القمر مشابه للأرض وأنه مأهول بالسكان . أما الشمس التى يزيد حجمها عدة مرات عن حجم الأرض ، فإنها تشع

Loolo www.ibtesama.com

بجانب كبير من ضوئها ليس فقط على القمر ، بل وأيضاً على جميع النجوم الأخرى . والأرض التى كانت تتكون فى البداية من طين صارت جافة بفعل حرارة الشمس .

ويذهب رسل إلى أن أنكساغوراس قد اختلف عن جميع الفلاسفة الذين سبقوه فى أنه اعتبر العقل أو النوس مادة تدخل فى تركيب الأشياء الحية ، ويميزها من المادة الميتة . ويقول إنه فى كل شىء ثمة جزء من كل شىء عدا العقل ، ولكن بعض الأشياء تتضمن العقل أيضاً ، وللعقل سلطة على كل الأشياء التى تتمتع بالحياة ، وهو لا نهائى ويحكم نفسه بنفسه ، ويختلط بلا شىء . وباستثناء العقل فإن كل شىء مهما كان صغيراً يتضمن جانباً من جميع الأشياء المضادة له ، مثل الحار والبارد ، والأسود والأبيض . وقد قال — كما ذكرنا — أن الجليد أسود إلى حد ما . وهو يعتقد أن العقل متساو كماً وكيفاً لدى الحيوانات والإنسان . وأن ما يبدو من تفوق ظاهرى لدى الإنسان إنما يعزى إلى أن له يدين ، فجميع التباينات التى تعزى ظاهرياً إلى الذكاء إنما تعزى فى الواقع إلى ما بين الحيوانات والإنسان من تباينات جسمية .

أما زيلر فإنه يقول إننا عندما نأخذ فى اعتبارنا إدخال أنكساغوراس للمبدأ العقلى فى تمييزه من المادة — وقد قدم بذلك خدمة عظيمة للفلسفة — لوجدنا أن هذا يميزه من النظرة الثنائية السابقة التى شاعت بين الفلاسفة اليونانيين . فعلينا ألا ننسى أن ثنائية أنكساغوراس تتميز بأن النوس فى موقفه أو علاقته بالمادة يختلف تمام الاختلاف عما ذهبت إليه الأورفية والفيثاغوريون وأمبادقليس ، بل وأيضاً أفلاطون . فبالنسبة لأفلاطون مثلاً فإننا نجد أنه قال بعالمين مختلفين اختلافاً جذرياً وغير متساويين ، أحدهما العالم الإلهى الخاص بالأرواح ، والعالم الثانى هو العالم المادى

المتعلق بالوجود الأرضى وهو عالم مكروب بالمرض والبؤس والموت . ولكن لدى أنكساغوراس لانجد أثراً لهذا الاحتقار للعالم المادى . فتأملاته تنصب على الممرات التى تسير فيها النجوم بنفس الاهتمام الذى تنصب به على الأجساد البشرية والحيوانية . وكذا فإن النوس أو العقل لديه بالرغم من وجوده بذاته ومن ذاته ، وبالرغم من اختلاطه بلا شىء فإنه برغم ذلك باعتباره القوة المحركة المسيطرة ، فإنه مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالكون كله ، وهو نشيط مثل الروح ومثل العقل بالأجساد البشرية . ويعتقد زيلر أن الميتافيزيقا عند أنكساغوراس أقرب جداً من أحادية الإيونيين القدماء من الثنائية الأورفية الفيثاغورية .

وأنكساغوراس يعتقد أن الأشياء متباينة فى الحقيقة كما تبدو لنا ، وأن قسمة الأجسام بالغة ما بلغت تنتهى دائماً إلى أجزاء مجانسة للكل . تنتهى إلى لحم فى اللحم ، وإلى عظم فى العظم . فلا تتلاشى أبداً طبيعة الشىء المقسَّم ، وعلى ذلك فلا ترد الأشياء إلى مادة واحدة أو بضعة مواد معينة . ومن باب أولى إلى تنوع الكمية والحركة . على أن الذى حدا بالطبيعيين إلى مواقفهم هو المشاهد من تحول الأشياء بعضها إلى بعض وضرورة تفسير هذا التحول . وأنكساغوراس يعلم ذلك — يعلم مثلاً أن الخبز الذى نأكله والماء الذى نشربه يدخلان فى بنيان جميع أجزاء البدن على السواء من دم ولحم وعظم وشعر وأظفار ... إلخ . ولكنه يأبى أن يتابعهم ويقول إذا كان الوجود لا يخرج من اللاوجود — باتفاقهم جميعاً — فكيف يخرج الشعر من اللاشعر واللحم مما ليس لحماً ؟ « أمامنا ثلاث قضايا كبرى : الأشياء متباينة بالذات — ولا يخرج الوجود من اللاوجود — والكل يتولد من الكل (أى شىء يتولد من أى شىء) . فإذا أردنا الاستمساك بها جميعاً قلنا إن الأشياء موجودة بعضها فى بعض ، وأن الكل

Looloo
www.looloo.com

فى الكل، أى أن الوجود مكون من مبادئ لامتناهية عدداً وصغراً. هى طبائع أو جواهر مكيَّفة فى نفسها تجتمع فى كل جسم بمقادير متفاوتة، فيتحقق بهذا التفاوت الكون والفساد ويتعين لكل جسم نوعه بالطبيعة الغالبة فيه بحيث يكون كل جسم عالماً لامتناهياً يحوى الطبائع على اختلافها كلاً منها بمقدار فتختلف الظواهر والأسماء.

وإذن فالماء والخبز يحويان مبادئ لامتناهية فى الصغر عظمية ولحمية ودموية، بل إن المبادئ جميعاً تلتقى فى كل ذرة عظمية ولحمية ودموية وغيرها تقع تحت الحس. فلا يوجد جسم محسوس متجانس مهما دق، بل المتجانس هو الطبائع الأولى، لذلك سميت المتجانسات (« متشابهة الأجزاء » عند الشهرستانى)، وهى أدق من أن يناالها الحس، ولا يوجد كلٌّ هو أبيض خالص أو أسود أو حلو أو لحم أو عظم ولكن ما يغلب فى الشىء هو ما يلوح أنه طبيعته فيُعرف به ويتميز عما عداه. فالكون والفساد استحالة شىء إلى شىء بأن يزيد بعض الطبائع فيظهر للحواس أو ينقص فيخفى عنها، وبعبارة أخرى « الكون ظهور عن الكمون » (الشهرستانى) والفساد كمون بعد ظهور دون أى تغير فى الكيفية (يوسف كرم ص ٥٥) وشأن أنكساغوراس شأن أمبادقليس فى إنكاره لوجود خلاء قائلاً إن ساعة الماء أو الجلد المنفوخ بهما هواء مع أن المشاهد لهما لا يرى الهواء.

والطبائع قديمة ولكنها ليست متحركة بذاتها، وليس لها ما يجعلها تنتظم من تلقاء نفسها، وقد كانت فى الأصل مختلطة أشد اختلاط، وكان المزاج الأول متساوياً غاية التساوى لا يتميز فيه شىء من شىء على ما ارتأى أنكسيمندريس حين وضع اللامتناهى، ثم حدثت بفعل الحركة التى ميزتها ونظمتها. وليس هذا الفاعل الاتفاق، فما الاتفاق سوى لفظ

نستر به عجزنا عن اكتشاف العلة. وليس هذا الفاعل القَدَر، فما القدر سوى لفظ أجوف اخترعه الشعراء. إنما الفاعل العقل « ألطف الأشياء وأصفاها وهو بسيط مفارق للطبائع كلها، إذ لو كان ممتزجاً بشىء آخر أياً كان لشابه سائر الأشياء، ولما استطاع وهو ممتزج أن يفعل بنفس القدرة التى يفعل بها وهو خالص، عليم بكل شىء، قدير على كل شىء متحرك بذاته » حرك المزيج الأول فى إحدى نقطه، فامتدت الحركة واتسعت فى دوائر متتابعة — كما قلنا — حتى عمَّت الكل وانفصلت الأجرام السماوية عن المركز (الأرض) بالحركة الأولى، وترتبت الأشياء كلٌّ فى مكانه، الخفيف إلى أعلى والثقيل إلى أسفل، وستظل الأجرام السماوية مستقلة حتى تنفد القوة التى تستبقيها فى مداراتها فتعود إلى المركز. أما الأجسام الحية فقد واتتها الحياة بمشاركة العقل، والعقل نفس تصدر عنها نفوس.

ويعتقد أنكساغوراس — كما يقول زيلر — أن الكائنات الحية قد بزغت من الطين الذى تخصَّب بواسطة جراثيم موجودة بالهواء والأثير. بيد أن الذى بث فيها الحياة هو العقل. وهذا هو الشىء نفسه فى جميع الكائنات الحية بما فيها النباتات، ولكنها تشترك بأنصبة متباينة من الحياة، أى بدرجات متفاوتة. وفى الأجهزة الحسية التى تتقابل فى المخ باعتباره الجهاز المركزى، فإن الإدراك الحسى لا ينتج بالمماثل بل بالمضاد. ومن غير شك أن أنكساغوراس لا يشك فى أن صفات الأشياء التى ندركها بالحواس إنما تنتمى إلى الأشياء ذاتها. بيد أنه يعتقد بكل جزم أن الحواس لا تقدم لنا معلومات كاملة حول المقومات الأساسية للأشياء. وبذا فإن عمل العقل وحده هو الذى يمدنا بالمعرفة الحقيقية. ومع هذا « فإن المرئى هو الذى أماط اللثام أمامه وسمح له بالوقوف على المرئى ». ولقد استنبط

من مدارسته للحجارة النيزكية التى سقطت على أجوسبوتامى فى عام ٤٦٧ — ٦٦ ق م أنها من ذات تركيب الأجسام السماوية وأطلق على الشمس الكتلة الملتهبة من الحجارة ، وهى الملاحظة التى أدت إلى اتهامه بالإلحاد كما قلنا .

ولقد استطاع أنكساغوراس أن يحل لغز فيضان النيل الذى طالما حير اليونانيين ، ولكنه عزاه إلى ذوبان الجليد على جبال أثيوبيا . ولم يجد هذا الحل قبولاً لدى هيرودوت . وتأسيساً على نظرياته الفلكية فإنه اتخذ موقفاً رافضاً للديانة التى كانت شائعة لوقته ، فرفض الاعتقاد فى أن للألوهية دخلاً إعجازياً فى سير أحداث الطبيعة ، وأحل محل الفكرة الغائية التى كانت شائعة بإزاء العالم ، تفسيراً صارماً معتمداً على وجود أسباب طبيعية وعلمية . وحتى بركليس لم يجفل فى لحظة حرجة عن الإفادة بمهارة من التفسير العلمى الذى قدمه أنكساغوراس لكى يذب عن بحارة أسطوله الرعب الذى استولى عليهم عندما حدث كسوف للشمس .

على أن أنكساغوراس قد حاول — كما يقول زيلر — أن يقدم تفسيراً رمزياً للآلهة التى كانت شائعة فى زمانه ، فزعم أن زيوس هو النوس أو العقل ، وأن الإلهة « أثينا » هى الفن ، كما أنه حاول أن يستخلص أفكاراً أخلاقية من هوميروس ، ولكن الشواهد لا تعطى بالطبع أسساً كافية للاعتقاد فى أنه كان متعبداً بحق للآلهة .

ولا شك أن لأنكساغوراس ميزة كبيرة بين الفلاسفة المعاصرين له والسابقين عليه بفضل منهجه فى التفكير العلمى . فهو أول من قال إن القمر يضيء بسبب انعكاس ضوء الشمس عليه بالرغم من أن ثمة شذرات من بارمنيدس توحى بأنه عرف هذا . وكذا فإن أنكساغوراس قد قدم

النظرية الصحيحة الخاصة بكسوف الشمس وخسوف القمر ، وعرف أيضاً أن القمر يقع تحت الشمس ، كما قال إن الشمس والنجوم إنما هى صخور ملتهبة ، وأننا لا نحس حرارة النجوم لأنها بعيدة جداً عنا ، كما عرف أن الشمس كبيرة جداً ، وأن بالقمر جبالاً كما اعتقد أنه مأهول بالسكان .

وبالنسبة لتقييم مذهبه فإن يوسف كرم يقول : « ولسنا نناقش أنكساغوراس فيما يثير مذهبه من إشكالات أهمها وضعه عدداً لامتناهياً من الطبائع فى الجسم المتناهى ، ونقتصر على ملاحظة أنه فى تفسير التكوين يفسره تفسيراً آلياً مثل من تقدمه من الطبيعيين حتى أنه يعلل رقى الحيوان على النبات بأنه طليق غير مرتبط بالأرض ، ورقى الإنسان على الحيوان بأن له يدين ، وأن اليد خير الآلات ونموذجها ، دون أن يضيف أى أثر للعقل الذى قال به علة محركة منظمة بحيث يمكن وصف مذهبه بأنه « آلية كيفية » . الحق أنه لم يفطن لخصب هذه الفكرة ولم يوفق لاستغلالها ولكنها فكرة جليلة كافية لأن تجعل له مكاناً خاصاً فى هذا الدور من الفلسفة ، فبدا كأنه الوحيد الذى احتفظ برشده بإزاء هذيان سلفائه » واهتزت لفلسفته نفس أفلاطون وانبعثت إلى تفكير بعيد المدى . وإذا أضفنا إلى هذا تصوره للوجود باعتباره طبائع وماهيات ، أى أشياء عقلية ومعقولة ، عددنا أنكساغوراس إذن طليعة الحركة السقراطية والفلسفة الروحية على السواء .

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

الفصل الخامس عشر

السوفسطائية

بروتاغوراس PROTAGORAS

وغورغياس GORGIAS

ظهرت فى النصف الثانى من القرن الخامس قبل الميلاد باليونان حركة متّسمة بالشك هى حركة السوفسطائية تلك النظم الفلسفية العظيمة التى سبقت سقراط ، وكان من أهم قادتها بروغوراس وغورغياس ؛ ولم تكن كلمة « سوفسطائى » فى بداية الأمر دالة على الشخص المغالط أو المتلاعب بالألفاظ والمعانى ، بل كانت تعنى المعلم فى أى فرع كان من العلوم والصناعات ، وبنوع خاص معلم البيان . فالسوفسطائى كان الرجل الذى يحصل على رزقه بتعليم الشباب أشياء معينة يمكن أن تنفعهم فى الحياة العملية . وحيث لم تكن هناك موارد مالية للإنفاق على هذا النوع من التعليم ، فإن السوفسطائيين كانوا ينتقلون بين المدن يطلبون الشباب الثرى ويتقاضونه الأجور العالية ، وكان هؤلاء الشباب يُهْرعون إليهم ليقووا بالعلم ومايوفره لهم من أسباب الغلبة كالمال والعصبية . وقد عمل هذا على إضفاء صبغة معينة على فئة الشباب فى ذلك الوقت . وساعد على ذلك توافر ظروف سياسية معينة شاعت وقتئذ .

ففى كثير من المدن وبخاصة فى أثينا كان المواطنون الفقراء مفعمين بالكراهية للأغنياء بسبب غيرتهم منهم من جهة ، وبسبب تمسك الأغنياء

بالتقاليد التى كان الشباب ناقمين عليها وكارهين لها من جهة أخرى . ولقد كان الشباب يحسون فى ذلك الوقت أن طبقة الأغنياء يتربصون بالديموقراطية ، وأنهم يلوون عنق المعتقدات التقليدية لصالحهم .

وبالرغم من عناية الفيثاغوريين بالأخلاق ، والإيليين بالمبادئ العقلية والجدل ، فإن الفكر اليونانى كان فى مجموعه متجهاً نحو العالم الخارجى مستغرقاً فيه . أما العالم الداخلى الذى هو مصدر الأخلاق وموطنها ، والعقل الذى هو مصدر المعرفة ومستقرها ، فلم توجه العناية إليهما تقريباً . ولكن هذا الفكر لم يلبث طويلاً حتى طرأت عليه أحوال ساقته إلى الاشتغال بهذه الناحية من الفلسفة — كما يقول يوسف كرم — فبذل فيها نشاطاً عظيماً وذهب فى مسائلها كل مذهب . فكانت النتيجة وضع المنطق والفلسفة الخلقية والسياسية . ذلك أنه بعد أن دحرت أثينا الفرس وحفظت لليونان استقلالهم وعقليتهم ، مضى هؤلاء يستكملون أسباب الحضارة بهم جديدة ، ونبغ فيهم العلماء والشعراء والفنانون والمؤرخون والأطباء والصناع ، وقويت الديموقراطية فى جميع المدن ، وتعاظم التنافس بين الأفراد ، فزادت أسباب النزاع أمام المحاكم الشعبية ، كما شاع الجدل القضائى والسياسى ، فنشأت من هاتين الناحيتين الحاجة إلى تعلم الخطابة وأساليب المحاجة واستمالة الجمهور ، ووجد فريق من المثقفين المجال واسعاً لاستغلال مواهبهم ، فانقلبوا معلمى بيان ، وهؤلاء هم السوفسطائيون .

وكان السوفسطائيون مجادلين مغالطين ، كما كانوا متجرين بالعلم . أما الجدل فقد وقفوا عليه جهدهم كله ، وكانوا يناحرون بتأييد القول الواحد ونقيضه على السواء ، وبإيراد الحجج الخلابة فى مختلف المسائل

Loolos
www.al-maktabeh.com

والمواقف ، ومن كانت هذه غايته فهو لا يبحث عن الحقيقة ، بل عن وسائل الإقناع والتأثير الخطابى .

ويقول زيلر إن السوفسطائية هى أولاً وقبل كل شىء فلسفة من فلسفات الحضارة ، وهى متميزة من الفلسفة الطبيعية التى سبقتها فى الموضوع الذى ركزت جهدها فيه ، وموضوعها هو الإنسان كفرد وكائن اجتماعى جنباً لجنب مع الثقافة التى قامت بإبداعها ، سواء فى اللغة أم فى الدين أم فى الفن أم الشعر أم الأخلاق أم السياسة . وهذه الفلسفة تثير سؤالاً أساسياً هو : « هل جميع المؤسسات والنظم بدءاً من عبادة الآلهة ، وانتهاء إلى التباينات القائمة فيما بين الناس الأحرار منهم والعبيد ، وفيما بين الهلينيين والبرابرة ، ترتكز على أساس من أسس الطبيعة ، ومن ثم فإنها تكون مقدسة ولا تقبل النقاش ، ولا يجوز تعديلها أو تحدّيها ، أم أنها من اختلاق التقاليد ، ومن ثَمَّ فإنها تكون خاضعة لمقتضيات التغيير والتحسين ؟ » .

وتختلف السوفسطائية عن الفلسفة الطبيعية من حيث المنهج وأيضاً من حيث المضمون . فلقد كان من الطبيعى أن تستبعد السوفسطائية من مضمونها الملاحظة التجريبية للطبيعة ، وبخاصة الملاحظات المتعلقة بالسماء ، وأيضاً تلك الملاحظات المتعلقة بالحيوانات والنباتات والمواد الخام . ولكن حيث إن الهدف النهائى كان تكوين أو تشكيل مبدأ يمكن بواسطته تفسير العالم ، فلم يكن ثمة مجال مفتوح أمام دعاتها سوى التأمل العقلى . لقد كان المنهج الذى تذرع به الفيزيائيون القدماء منهجاً قياسياً ، ذلك أنهم كانوا يستنبطون ما هو خاص من مبدئهم العام . أما السوفسطائيون فإنهم لم يحاولوا سبر أغوار الأسباب أو العلل الأولى للأشياء . لقد اتخذوا لهم موقفاً على أساس ما حصلوه من خبرة وقد

سعوا إلى جمع أكبر قدر من المعرفة فى جميع آفاق الحياة ، بحيث يتسنى لهم استخلاص نتائج معينة منها . كان البعض منها ذا طبيعة نظرية ، كتلك المتعلقة بالتساؤل حول إمكانية أو استحالة المعرفة ، وبداية الحضارة الإنسانية وتقدمها ، وأصل اللغة وبنيتها . وكان البعض الآخر منها ذا طبيعة عملية ، مثل تنظيم حياة الفرد وحياة المجتمع بشكل مناسب وبطريقة مثمرة . من هنا يمكن القول بأن منهج السوفسطائيين كان عملياً استقرائياً .

أما التباين الرئيسى الثالث بين الفلسفة التى سبقتهم وبينهم ، فإنه يتضح فى الأهداف التى كان ينشدها كل منهما . فبالنسبة للفلاسفة الذين سبقوهم فإن البحث عن الحقيقة واقتفاء أثر المعرفة كان هدفاً فى ذاته . وإذا كان للفيلسوف تلاميذ فإنه كان يحاول أن يحيلهم إلى فلاسفة أيضاً . فهدفه إذن كان هدفاً نظرياً بحتاً . ولكن هذا لم يكن الشأن بالنسبة للسوفسطائى ، ذلك أن المعرفة فى نظره لم تكن ذات قيمة إلا إذا هى شكلت وسيلة للتحكم فى الحياة . فكان وجوده معتمداً على وجود تلاميذ له . ولم يكن هدفه الأول هو إحالتهم إلى سوفسطائيين مثله ، بل كان يرغب فى أن يمنح الناس العاديين غير المتخصصين تعليماً عاماً يمكنهم الإفادة منه فى الحياة . إذن فقد كان هدفه عملياً بالدرجة الأولى وهو تعليم فن الحياة والتحكم فى مقدراتها .

والواقع أن السوفسطائيين حاولوا تحقيق أهدافهم باتباع طريقين : الأول : إحراز السيطرة على تعليم الشباب ، والثانى : تقديم محاضرات عامة فى العلم . وبذا فإنهم ينشرون التعليم الفلسفى . لقد قاموا بالإعلان عن دراسات نظرية حول المعرفة ، ومحاضرات منفصلة ، وسلسلة من المحاضرات حول موضوعات معينة . واشتمل تعليم الشباب على التدريبات

Loolos
www.loolos.com

الرياضية والمبادئ الأولية للقراءة والحساب والكتابة التى حصلوا عليها من المتخصصين فى أصول اللغة ، والقليل من قراءة الشعر وعزف وتذوق الموسيقى . ولكن هذه الأهداف الضئيلة لم تشعر الناس بأنها كافية لمواجهة تعقُّدات الحياة المستمرة فى الديموقراطيات اليونانية . فالشخص الذى كان يرغب فى أن يلعب دوراً فى الحياة العامة لم يكن فى حاجة إلى معلومات واسعة فحسب ، وهى المعلومات التى كانت عادية وقتئذ ، بل كان فى حاجة أولاً وقبل كل شىء إلى تدرب عملى على صيغ التفكير والتحدث ، وعلى تلقى دراسة عملية فى النثر والسلوك ، وعلى ما يجب اتخاذه فى معظم المواقف المتباينة .

لقد أخذ السوفسطائيون على عواتقهم مهمة تقديم هذا التدريب ، وعندما كانوا يقولون إنهم سوف يدرِّسون ، فإنهم كانوا يعنون من ذلك تدريب المتعلمين عملياً على إحراز الكفاءة فى ممارسة الحياة . وفى هذا الصدد لم يكن تدريس الكفاءة فى ممارسة المواطنة متضمناً أى شىء ثورى مناهضاً للأفكار الأخلاقية أو لغة النبلاء القديمة . فهنا نجد أن السوفسطائيين كانوا يتناولون المشكلة الأساسية للتربية العملية ، سواء بصدد الموهبة الفطرية ، أم بصدد ما اكتسبه المرء بالتعلم ، وهى التربية التى تقرر بحسم صياغة العقل والشخصية .

وتضمنت التربية السوفسطائية تقديم فكرة عامة عن علوم معينة ، مثل الرياضيات والفلك والنحو الذى وضعوا أسسه . ومن الأجزاء الأساسية فى هذا كان تفسير الشعر من وجهات نظر منطقية وجمالية وأخلاقية . أما « اللوغوس » الذى كان فى أنظار الفلاسفة السابقين لسان حال المعرفة أو التعبير عنها ، فإنه استخدم هنا كسلاح للسيطرة على الواقع . ذلك أن المعرفة فى نظر السوفسطائيين لم تكن لتحديد

الحقيقة أو التعبير عنها ، بل اقتصرت على إقناع المستمعين بما يبدو أنه مفيد فى حالة بالذات (فى رفع دعوى أو فى الدفاع أمام القضاء) ولدحض براهين خصم .

أما بالنسبة لموقف السوفسطائية من الكبار ، فإن السوفسطائيين كانوا يقدمون المحاضرات حول العلوم الشائعة ، وذلك فى دائرة من المستمعين فى بيت أحد الأصدقاء الأثرياء ، كما كانت تعقد فى بعض الأحيان فى أماكن عامة . وفى هذه الحالة فإن من كان يرغب فى حضور المحاضرة ، كان عليه أن يدفع مصاريف معينة نظير حضوره ، وكانت المحاضرات إما مجهزة تجهيزاً جيداً بكل وسائل فن البلاغة ، بينما كانت فى أحيان أخرى محاضرات ارتجالية حول أحد الموضوعات التى يقترحها الحاضرون . وكان من الطبيعى أن يكون الاهتمام فى هذه المحاضرات بالأسلوب وبفن البلاغة أكثر من الاهتمام بالمضمون العلمى ، وبالإضافة إلى هـذا فإن السوفسطائيين أفادوا من التجمهرات الضخمة فى المهرجانات اليونانية فى « أولمبيا » وغير ذلك من أماكن لكى يجذبوا إليهم أنظار وأسماع الممثلين للأمة اليونانية بأسرها . وحيث إن حياتهم المتسمة بالترحال قد أكسبتهم عادة النظر إلى ما هو أبعد من الحدود الضيقة لدولة المدينة ، فإنهم صاروا يدعون إلى توحيد الأمة اليونانية بأسرها . فكانوا بذلك الحاملين والناشرين لروح الجامعة اليونانية الشاملة Panhellinism كما يقول زيلر .

وإذا ما بدت السوفسطائية لنا اليوم كحركة منفصلة متميزة من الفلسفة ، فإن ذلك يرجع إلى الخط الفاصل الذى وضعه أفلاطون وأرسطو بينهما . على أن معاصريهم لم يكادوا يشعرون بالفارق بين لفظى فلسفة وسوفسطائية ، ولم يكن لديهم مصطلحان متباينان يستخدمونهما

Lotus

بإزائهما . ولم تكن كلمة سوفسطائية قد اكتسبت تلك السمعة الرديئة التي ألصقت بها منذ سقراط . ويرى زيلر أيضاً — ويشتم من كلامه عن السوفسطائية أنه يقدرها ويدافع عنها — أن من الممكن اعتبار السوفسطائيين أنثربولوجيين ومعلمي فن الحياة . وما ينسب إليهم من نزعة ذاتية وفردية ليس ملحوظاً لديهم جميعاً ، سواء بالمعنى المعرفي ، أم بالمعنى الخلقي . فالواقع أن البعض من تعاليمهم يتضمن عنصراً دجماطيقياً قوياً ، بينما يتبدى تباين بعيد المدى في تعاليمهم الأخلاقية . فلا بد إذن من الوقوف على ما بين السوفسطائيين من تباينات بعيدة المدى .

ويعتبر بروتاغوراس (٤٨١ — ٤١١ ق م) أكثر العقول موهبة وأصالة بين السوفسطائيين . وقد وفد إلى أثينا في حوالي نصف القرن حيث عاش في حلقة بركليس الذي أضفى عليه شرف اختياره لوضع دستور لمقاطعة ثُرى التي تأسست عام ٤٤٤ ق م . ويذكر أن هيرودوت وهيبودامس قد اشتركا أيضاً في إقامة هذه المستعمرة . وفي السنوات الأولى من حرب البلوبونيز نجده مرة أخرى في أثينا ، حيث عاش في وسط الوباء القاتل الذي انتشر وقتئذ ، وقد لاحظ بإعجاب موقف بركليس في مجابهة موت ابنيه . وتعرف على فيلسوف أبديرا الكبير ديموقريطس . وبعد أن طاف أنحاء إيطاليا الجنوبية واليونان يلقى فيها الخطب البليغة في حوالي عام ٤٥٠ ، نشر كتاباً أسماه « الحقيقة » وردت في رأسه هذه العبارة : « لا أستطيع أن أعلم إن كان الآلهة موجودين أم غير موجودين فإن أموراً كثيرة تحول بيني وبين هذا العلم أخصها غموض المسألة وقصر الحياة » ، فاتُّهم بالإلحاد وحكم عليه بالإعدام وأحرقت كتبه علناً ، ففر هارباً ومات غرقاً في أثناء فراره .

وقد وصلت إلينا من الكتاب المذكور عبارة أخرى هي : « الإنسان مقياس الأشياء جميعاً ، هو مقياس وجود ما يوجد منها ومقياس لاوجود ما لا يوجد » وشرحها أفلاطون كما يلي في محاورة تيتياتوس : « يتبين معناها بالجمع بين رأي هرقليطس في التغير المتصل وقول ديموقريطس إن الإحساس هو المصدر الوحيد للمعرفة فيخرج منها [أن الأشياء هي بالنسبة إليَّ على ما تبدو لي ، وهي بالنسبة لك على ما تبدو لك وأنت إنسان وأنا إنسان] فالمقصود بالإنسان هنا الفرد من حيث هو كذلك لا الماهية النوعية . ولما كان الأفراد يختلفون سناً وتكويناً وشعوراً ، وكانت الأشياء تختلف وتتغير ، فإن الإحساسات تتعدد بالضرورة وتتناقض : [أليس يحدث أن هواء بعينه يرتعش منه الواحد ولا يرتعش منه الآخر ، ويكون خفيفاً على الواحد عنيفاً على الآخر ؟ فماذا عسى أن يكون في هذا الوقت الهواء في ذاته ؟ هل نقول إنه بارد أم نقول إنه ليس بارداً ؟ أم نسلم بأنه بارد عند الذي يرتعش ، وأنه ليس ببارد عند الآخر ؟] . [وإذن فلا يوجد شيء هو في ذاته وبذاته ، ولا يوجد شيء يمكن أن يسمى أو أن يوصف بالضبط ، لأن كل شيء في تحوُّل مستمر] فما نحسه فهو موجود على النحو الذي نحسه ، وما ليس في حِسّنا فهو غير موجود » .

وعلى ذلك تبطل الحقيقة المطلقة لتحل محلها حقائق متعددة بتعدد الأشخاص وتعدد حالات الأشخاص وتعدد حالات الشخص الواحد ، ويمتنع الخطأ ، إذ يمتنع أن نتصور غير ما نتصور في وقت ما . والنتيجة المنطقية أن ما يصْدق على المعرفة يصْدق أيضاً على العمل ، وأن الفرد مقياس النفع والضرر ، والخير والشر ، والعدل والظلم . غير أن هذا لا يعني ترك الأمور فوضى وإنكار الحكمة والحكيم ، فإن من التصورات

www.dvd4arab.com

ما بعضه « أخير » من بعض . فالطبيب حكيم ، إذ يستخدم العقاقير لاستبدال تصورات الصحيح بتصورات المريض، والأولى « خير » من الثانية . والسوفسطائى أو تلميذه حكيم إذ يُحْدث فى السياسة مثل هذا الانقلاب . فما يسمى حقاً فى العمل هو النافع فى وقت معين وظروف معينة .

ويذكر برتراند رسل شللر F. C. S. Schiller وهو واحد من بين ثلاثة أسسوا البرجماتية بأنه قد اعتاد نعت نفسه بأنه تلميذ بروتاغوراس. ولقد ذهب إلى ذلك كما يعتقد رسل لأن أفلاطون فى محاورة تيتياتوس قد ذهب إلى تفسير كلام بروتاغوراس بأن أحد الآراء يمكن أن يكون أفضل من الرأى الآخر بالرغم من أنه لا يمكن أن يكون أكثر منه صحة . فمثلاً إذا كان هناك شخص مصاب بمرض الصفراء ، فإن كل شىء يقع عليه بصره يبدو له أصفر اللون . فليس القول بأن الأشياء ليست صفراء أكثر صدقاً من القول بأنها صفراء . ولكن حيث إن الصحة مفيدة والمرض بالصفراء ضار ، إذن فرأى الشخص الصحيح أفضل من رأى الشخص المريض بالصفراء . فهذه النظرة إذن وثيقة الصلة بالبرجماتية .

ولاشك أن عدم الاعتقاد فى الحقيقة الموضوعية يجعل الغالبية من الناس هم الفيصل الذى يُرْكن إليه بإزاء الأهداف العملية . ومن ثم فإن بروتاغوراس انتهى إلى الدفاع عن القانون والتقاليد الاجتماعية وألوان السلوك التقليدية المتوارثة . وبينما نجد أنه لم يكن متأكداً من وجود الآلهة أم من عدم وجودهم ، فإنه كان مُصِرًّا على وجوب عبادتهم . ومما يلاحظ — كما يقول يوسف كرم — أن بروتاغوراس علل توقفه عن القول بالآلهة لصعوبة المسألة من جهة ، ولقصر العمر من جهة أخرى ، ولم يقل « الآلهة موجودون بالإضافة إلى من يؤمن بهم ، وغير موجودين

بالإضافة إلى من ينكرهم » . لهذا كله يمكن الارتياب فى أن يكون بروتاغوراس قد ذهب إلى هذا الحد من الشك ، ويبقى أن « مذهبه » يمثل النتيجة المحتومة لمذهب هرقليطس ، وأن أفلاطون اتخذ اسم بروتاغوراس عنواناً لمحاورته وكل قصده أن يبرزها فى صورة قوية .

ويرى زيلر أن قول بروتاغوراس إن « الإنسان هو مقياس جميع [الأشياء] » قد نقل مشكلة المعرفة من الموضوع إلى الذات ، وبذا فإنه جعل من الممكن قيام نظرية حقيقية للمعرفة، وبصدد كلمة [الأشياء] فإن علينا ألا نصب فكرنا على الأشياء المحسوسة فحسب، بل يجب أن نتخطى ذلك إلى الصفات المجردة أيضاً ، مثل الدافئ والبارد ، والحلو والمر ... إلخ . وأكثر من هذا فيجب عدم الاقتصار على الخصائص الحسية كتلك التى ذكرناها ، بل يجب أن يمتد التعميم إلى المفاهيم أو التصورات الذهنية ، مثل المفيد والضار ، والجميل والقبيح ، والصائب والخاطئ .

ويعرض زيلر لمسألة هامة هى المعنى الذى رمى إليه بروتاغوراس باستخدامه كلمة « إنسان » Man . فهل كان يقصد شخصاً واحداً من الأشخاص كما ذهب أفلاطون فى تفسيره لكلام بروتاغوراس ؟ أم أنه كان يقصد المعنى العام للكلمة كما ذهب مفسرون متأخرون إلى ذلك ، فيفهمون من كلمة « إنسان » الجنس البشرى أو المعنى الجمعى (أمة أو قبيلة) . على أية حال فإن بروتاغوراس لم يكن ممثلاً للنزعة الفردية بالمعنى الأخلاقى أو المعنى السياسى . ولايتضح هذا بواسطة الدفاع عن تعاليمه كما ساقها أفلاطون على لسان سقراط ، حيث أكد أن نشاط السوفسطائى شبيه بنشاط البستانى والطبيب ، مؤكداً أن التربية يمكن أن تعمل على تغيير حالة الروح الرديئة إلى حالة أفضل ، وأنها يمكن أن

www.dvd4arab.com

تغرس فى النفس مشاعر صحية وحقيقية بدلاً من المشاعر الرديئة والزائفة . أضف إلى هذا ماذكره عن أسطورة تاريخ الحضارة التى قالها بروتاغوراس فى المحاورة التى سميت على اسمه ، فيقول فيها أفلاطون إن من المستحيل إقامة مجتمع بشرى خلو من الإحساس بالأخلاق والعدالة .

فمن المشكوك فيه إذن أن يكون بروتاغوراس قد نظر إلى جميع القواعد الخلقية والقوانين باعتبارها نسبية تماماً ، بل الأصح أنه اعتقد أنها مرتبطة بما يقرره كل مجتمع من المجتمعات البشرية . فالقاعدة الخلقية أو القانون نسبى إذن بهذا المعنى الجمعى وليس بالمعنى الفردى . فليست هناك ديانة مطلقة ، وليست هناك قواعد خلقية مطلقة ، وليست هناك عدالة مطلقة ، بل هناك ديانات متباينة ، وقواعد خلقية متباينة . والعدالة فى مجتمع ما تختلف عن العدالة فى مجتمع آخر . وفى كتاب له بعنوان « الحالة الأصلية للأشياء » الذى أشار إليه كل من أفلاطون وهيرودوت ، نجد أنه قدم نظرية بارعة خاصة بالهدف النهائى الذى تتوخاه الطبيعة فى خلق الكائنات الحية ، إذ أنها تتخذ إجراءات وقائية للحفاظ على الأنواع . والإنسان ليس متفوقاً فى قوته على الحيوانات بقدر تفوقه عليها فى قدراته العقلية . فهو قد تقدم بنفسه صاعداً من المستوى الحيوانى ، وقد اخترع الوسائل الضرورية للحفاظ على وجوده (الملابس والمساكن .. إلخ) ، ولكن أهم من ذلك كله ارتفاعه بمستواه بواسطة الشعلة الإلهية للعقل بدخيلته ، والتى تأتّى عنها أنه استطاع خلق اللغة والدين والدولة . من هنا فإننا نجد أن قواعد الحكم والقانون لدى مختلف الشعوب — شأنها شأن لغاتها وديناتها وأفكارها ونظمها الخلقية — إنما هى جميعاً اصطلاحية وتقليدية . ويتمشى مع ذلك تماماً نزعته اللاإرادية التى عبَّر عنها فى كتابه « حول الآلهة » . فهو قد حاول

فى هذا العمل أن يظهر أن الأشكال التقليدية للدين والثقافة وضعية تقليدية وربما يكون قد برهن على عدم نجوع البراهين التى كانت سائدة فى عصره على وجود الآلهة .

ولبروتاغوراس إسهام أيضاً فى التربية . ولكن لم تبق سوى جمل قليلة حول تربية الناشئة . فهو يقول : « إن التربية والتعليم بحاجة إلى مواهب طبيعية وإلى تدريب » ، وهو يقول أيضاً : « إن على المرء أن يبدأ منذ الصغر فى التعلم » ، وأيضاً : « إن التربية لاتعتمل فى الروح إلا إذا توصل المرء إلى أعماق المعرفة » . ولقد اعتقد بروتاغوراس أن العقوبة ضرورية فى التربية ، ولكنه لم ينظر إليها إلا باعتبارها وسيلة لتحسين السلوك وكعائق أمام اقتراف الخطأ ، ولقد نبذ فى الوقت نفسه فكرة العقوبة للانتقام من الشخص الذى يخطئ .

أما فيما يتعلق بالرياضيات فإنه أكد أن ما تقدمه الهندسة من نظريات لاينطبق إلا بإزاء الأشكال المثالية الذهنية ولا تنطبق على الواقع . وكذا فإن بروتاغوراس قد أبدى اهتماماً باللغويات ، ويعتبر المؤسس لعلم النحو لدى الإغريق . فالكثير من مصطلحات النحو ومعظم أنواع الجمل تعزى إليه . وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على عقلانيته ، وأنه حاول إخضاع اللغة لقوانين ثابتة .

ولقد استطاع بروتاغوراس خلال حياته أن يجمع حوله الكثير من الأتباع من الشباب ، وكان له تأثير بعيد المدى فى ديمقريطس الذى كان يَصْغره ، وبخاصة فيما يتعلق بنظريته فى المعرفة ، وفى فلسفة الحضارة . أما أثره فى غير المتخصصين فإنه كان أبعد شأواً . فلقد كان له أثر بعيد فى رجال السياسة والشعراء والمؤرخين والخطباء ، وشهد أفلاطون بشهرته البعيدة التى ظلت قوية بعده لفترة طويلة .

www.dvd4arab.com

أما غورغياس (٤٨٣ — ٣٧٥ ق م) فقد ولد فى لونتيوم من أعمال صقلية ، وأخذ العلم عن إمبادقليس واشتغل بالطبيعيات مثله ، وعنى باللغة والبيان ، فكان أفصح أهل زمانه وأبلغهم . قدم أثينا سنة ٤٢٧ ق م يستنصرها باسم مدينته على أهل سراقوصة . فخلب ألباب الأثينيين ببلاغته ، ويصوره أفلاطون فى الحوار المعنون باسمه مفاخراً بمقدرته على الإجابة عن أى سؤال يلقى عليه . مات فى تساليا وقد قاربت سنة المائة أو جاوزتها ، وعظم صيته وتضخمت ثروته .

ولقد استفاد أيضاً من وجوده فى أوليمبى ودلفى وبخاصة من وجوده فى أثينا لنشر روح الجامعة الهلينية الشاملة ، وهى رسالة أورثها لتلميذه أبقراط . ولقد كان فى البداية تلميذاً لإمبادقليس وشغل نفسه بالمسائل المتعلقة بالعلم الطبيعى . ومن المحتمل أنه قام بنشر بحث حول علم البصريات . ويقال إنه اتخذ من قبر أبقراط مركزاً لدراسة النجوم . على أن ديالكتيك زينون قد انتهى به إلى النزعة الشكية التى عبَّر عنها بجلاء فى مؤلف له بعنوان «حول عدم الوجود أو الطبيعة» . ولقد قدَّم ثلاث قضايا : (١) لاشىء يوجد . (٢) إذا كان هناك أى شىء موجود فمن غير الممكن معرفته . (٣) إذا كان من الممكن معرفة أى شىء فمن غير الممكن إيصاله إلى الآخرين .

وعلى الرغم من أن غورغياس قد مس مشكلات هامة تتعلق بنظرية المعرفة ، وقد أبدى ألمعية عظيمة فى إبراز صعوبات معينة فى التمييز بين الأفكار التى تشير إلى الواقع ، وبيَّنَ أن تلك الأفكار لاتشير إلى شىء من الواقع ، كما أوضح أن الألفاظ اللغوية الدالة على أشياء لاتنطبق على هذه الأشياء ، نقول إنه على الرغم من ذلك فإن جانباً من عمله وبخاصة الجزء الأول يعطى الانطباع بأن المؤلف كان يرغب فى تسفيه

الفلسفة الإيلية بما تتضمنه من ديالكتيك خاص بها . ومهما يكن من أمر فإن الخلاصة النهائية لهذا العمل هو النبذ النهائى للفلسفة .

ومنذ ذلك الوقت الذى ظهر فيه كتابه الذى أشرنا إليه ، فإنه كرَّس نفسه بالكامل للبلاغة ، ولم يعمد إلى تعليم كل من يقبل عليه ، كما تذوع بالنظرة الشائعة لوقته ، وصار يميز بين ما يتمتع به الرجل أكثر من المرأة ، وامتياز الراشد عن الطفل ، وامتياز الرجل الحر عن العبد بمزايا عقلية وخلقية . بيد أنه لم يستطع أن يمحو النزعة الفلسفية من شخصيته تماماً ، ولكنه أقلع عن محاولة إحراز معرفة حول الحقيقة ، واكتفى بأن ينشد الفروض المحتملة فحسب ، ولكنه نظر إلى فن البلاغة باعتباره التمكن من فن الإقناع . وهذا فى الواقع هو الذى أدى به إلى التذرع بسيكولوجية عملية ، وإلى التوصل إلى فرع من التعليم لم يكن قد اكتشف بعد بواسطة الفلسفة .

يقول زيلر إنه هو المؤسس لعلم الجمال وبخاصة التذوق الشعرى . ويضيف زيلر إلى ذلك أن غورغياس يعتبر مكتشف الإيحاء الذى تمكَّن منه وتذرع به شعورياً وإرادياً . فلقد أدرك فيه أداة قوية يستطيع بواسطتها أن يتحكم فى عقول الناس ، وعلم أيضاً أن من الممكن استخدام الإيحاء للأهداف النبيلة والأهداف الخسيسة ، وقد أخذ يشبه ويقارن بينه وبين الدواء والسم . ولكن إلى جانب استخدام الإيحاء لتحقيق أهداف عملية ، فإن من الممكن أيضاً أن يستخدم فى نظر غورغياس لتحقيق أهداف فنية ، وهنا نجد أن غورغياس قد أصاب فكرة ثانية هامة هى فكرة الوهم أو الخداع البصرى . فهزيود وسولون لم يتمكنا — حسبما ذهب غورغياس — من التمييز بين الأكاذيب وبين الإنشاء الفنى ، وبذا فإنه انتهى إلى صياغة فكرة الخداع الذى

www.dvd4arab.com

له سند أو الخداع المستساغ ، لا بالمعنى الأخلاقى فحسب ، بل وأيضاً بالمعنى الفنى . ولقد نعت التراجيديا بأنها « خداع يحسن إحداثه عن عدم إحداثه ، وأن الاستسلام لذلك الخداع يظهر كم أن التقدير الفنى ذو قوة عظيمة ، وأن ذلك الخضوع لتأثيره أفضل من عدم الخضوع لسلطانه » .

والواقع أن التراجيديا كانت موضوعة نصب عينيه أيضاً لدى حديثه عن الآثار السيكولوجية للشعر ، وهى الآثار التى تتبدى فيها الشفقة والخوف . والواقع أن مقارنته لتأثير التراجيديا والشعر بالمطهرات التى تستخدم فى التخلص من المواد الضارة بالصحة شبيه جداً بمذهب أرسطو فى تطهير الانفعالات بواسطة التراجيديا . وأكثر من هذا فمن المحتمل أن أرسطو فى مقارنته لتراجيديا أجيلوس وأيوريبيدس كان مديناً لبعض من أفكار غورغياس .

والواقع أن غورغياس ومدرسته شأنهم شأن السوفسطائيين الآخرين كانوا يبدون اهتماماً أيضاً بالتاريخ والحضارة الإنسانية . فالتقدم فى سياق التاريخ البشرى قد تحقق بفضل المخترعات التى تم ظهورها فى سياق التاريخ . ولقد أبدى تقديره للفكر الرفيع مؤكداً أن للنشاط العقلى أثراً أخلاقياً طيباً . ولقد ضرب تلميذه بولوس فى إثره مؤكداً أيضاً أن تقدم الحضارة يعزى إلى اكتشاف جميع أنواع المخترعات .

أما بالنسبة للمسائل المتعلقة بالحقيقة والأخلاق ، فإن غورغياس قد أحجم عن تقديم إجابة . وهذا بلا شك هو السبب فى أننا نجد فى مدرسته نظريتين متضادتين بإزاء القانون الطبيعى . أما النظرية الأولى فإننا نجدها فى محاورة غورغياس لأفلاطون التى جعلت على لسان كالكلز وهى التى تذهب إلى التأكيد على حق الأقوى . وتبعاً لهذه النظرية فإن

الأخلاق والقانون هما من عمل الغالبية من ضعفاء الرجال الذين يحاولون استئناس ذوى الطبائع القوية ، شأنهم فى ذلك شأنهم بإزاء الحيوانات المفترسة ، فيعمدون إلى الإيحاء للناشئة بفكرة العدالة باعتبارها العدالة الحقيقية البادية للعيان . بيد أن الطبيعة والتاريخ يتناقضان مع ذلك . فالرجل القوى سوف يقوم بتحطيم هذه القيود عندما يدرك هذه الخديعة ، ولسوف يجعل من نفسه سيداً على الضعفاء ، « وعندئذ فإن قانون الطبيعة يتجلى فى بهائه » . ولقد آمن مينو تلميذ غورغياس بهذه النظرية الخاصة بإرادة القوة غير الملجَمة ، بينما نجد أن تلميذاً آخر لغورغياس هو بروكسينوس انتحى إلى القول بإحراز الشرف والقوة بواسطة الوسائل القانونية .

والواقع أن هذه النظرية التى تغض النظر عن قصد عن التمييز الذى وضعه هزيود بين قوانين الإنسان وبين العوالم الحيوانية ، يمكن أن نجد ما يدعمها فى كتابات غورغياس نفسه . فنجد أن من أقواله : « إن ثمة قانوناً للطبيعة يقضى بأن الأقوى يجب ألا يعاق بالضعيف ، بل لابد أن يكون الضعيف محكوماً ومَقُوداً بواسطة القوى ، ولابد أن القوى يسير أمام الضعيف والضعيف يسير خلفه » . وكذا فإن كريتياس كان مشايعاً لهذا المذهب ، سواء نظرياً أم عملياً . ففى أثناء نفيه فى تيسالى ، فإنه وقع تحت تأثير غورغياس ، ولم ير فى القوانين شيئاً يعتد به ، بل وجد فيه أداة لاستئناس الحيوان المفترس فى دخيلة الإنسان ، ولكنه أداة غير ناجعة على كل حال .

على أن ثمة استخداماً مضاداً تماماً لهذه النظرية السوفسطائية المتعلقة بالقانون الطبيعى اتخذه تلميذان آخران لغورغياس . فثمة ليكوفرون الذى ذهب إلى حد بعيد فى مذهبه الشكى ، معلناً أن لصوص النبل يبعض

Toolee

الناس إنما هو وصمة عار فى جبين البشرية وأن جميع الناس سواسية ، سواء كان لهم أجداد من الأسر النبيلة أم لا . والواقع أننا نجد لديه أيضاً لأول مرة الفكرة الخاصة بالقانون الاجتماعى ، فيقول : « إن القانون عبارة عن عقد يمنح الحق بواسطته بين الأطراف المتعاقدة ، ولكن القانون لايستطيع أن يعلّم المواطنين كيف يكونون ذوى أخلاق حميدة وعادلين » .

أما العلاقة بين الفلسفة والدولة فقد بلورها الكيداماس ، فلقد طالب بتحرير العبيد باسم القانون الطبيعى قائلاً : « إن الله قد ترك جميع الناس أحراراً ، ولم تجعل الطبيعة من أى إنسان عبداً » . ولاشك أن حركة تحرير النساء فى الثلث الأخير من القرن الخامس قبل الميلاد ، وهى الحركة التى ليس لدينا شواهد مباشرة عنها ، قد ارتبطت أيضاً بما تطورت إليه نظرية القانون الطبيعى لغورغياس .

وبعد أن عرضنا لما ذهبت إليه السوفسطائية ، وما انتحى إليه كل من بروتاغوراس وغورغياس باعتبارهما أهم شخصيتين بين السوفسطائيين ، فإن علينا أن نقدم تقييماً شاملاً لهذه الحركة الثقافية التى تصدرت الفكر الفلسفى قبيل ظهور سقراط الذى يعتبر ألد خصوم السوفسطائية .

يقول يوسف كرم عن السوفسطائيين : « ومهما يقال من أنهم أخرجوا الثقافة من المدارس الفلسفية ونشروها فى الجمهور ، وأنهم مهّدوا للمنطق وللأخلاق ، فقد كادوا يقضون على الفلسفة لولا أن أقام الله سقراط ينتشلها من هذه الورطة المهلكة » .

أما زيلر فإنه يتخذ موقفاً غير متشدد تجاه السوفسطائية ، ويعتقد أن الحكم على السوفسطائية بأنها كانت معادية للفلسفة قد تأتى عن الموقف

العدائى تجاه التراجيديا والكوميديا من جهة ، كما تأتى عن معارضة أفلاطون لها بعنف شديد وقهره لها تماماً من جهة أخرى ، وقد اتخذ من سقراط فى كتاباته أداة لقهرهم . بيد أن التأثير العميق للسوفسطائية كان فى عقول المثقفين غير المتخصصين فى الفلسفة .

ويذهب زيلر أيضاً إلى أن الدراسات التاريخية تظهر بكل وضوح أن السوفسطائية إلى جانب تأثيرها الجديد فى الشكل ، قد أثرت أيضاً فى المضمون . فنجد أن هيرودوت فى عرضه لأفكاره حول طبيعة النوموس Nomos قد ضرب فى إثر السوفسطائية . أما ثوسيدد فإنه كان مديناً لنفس المصدر فى ذهابه إلى أن الحقيقة الأساسية بالنسبة لجوهر السياسة المحركة للتاريخ هى « القوة » . ذلك المفهوم الذى تجلى نظرياً فى ديالوج ميليان ، وكذا فى المؤلفات التاريخية خلال القرن الرابع ق م التى بدأت فى الظهور منذ إيزوقراط ، قد أناط الأهمية « بالشخصيات القوية » فى ارتباط مباشر بالسوفسطائية . وتحت تأثير السوفسطائية فإن كمية ضخمة من الدراسات حول موضوعات محددة قد أنتجت ، وكان لتلك الموضوعات أهمية للفلسفة التى تضمنت نظريات سياسية وجمالية . ففى هذه المجالات أثرت السوفسطائية إلى حد بعيد بما تم إنجازه . ولكن أفلاطون تجاهل ذلك ، أما أرسطو فإنه تناوله مرة أخرى من جديد .

ولعلنا نقدم مثالاً واحداً يدل على الطريقة التى أثرت بها السوفسطائية فى بعض العلوم بالذات وساهمت فى إشاعتها والترويج لها . فهناك كتاب بعنوان « فن العلاج » نزل إلينا فى مجموعة كتابات أبقراط ، وهو الذى قام بتأليفه إما طبيب ذو دراية بالنزعة السوفسطائية ، وإما أن واحداً من السوفسطائيين ممن لهم اهتمام بالطب قد قام بتأليفه . وجنباً لجنب مع تأثير الفلسفة الإيونية الذى اتضح بصفة خاصة فى أفكار

هرقليطس بصدد الأغذية ، فإننا نجد أن ثمة ارتباطاً بالسوفسطائية واضحاً فى عملين بصفة خاصة هما « الهواء والماء ووضع الجسم » و « المرض المقدس » ، فيتضح من هذين العملين روح التنوير المتحررة من الأوهام الخرافية والاهتمام فقط بتحديد الحقائق المجرَّبة .

ويشير زيلر أيضاً إلى الخدمة التى يجب ألا يغض النظر عنها التى قدمتها السوفسطائية للفلسفة ، إذ أنها هى التى حولت الفلسفة من النظر إلى الطبيعة إلى دراسة الإنسان نفسه ، وهى التى أرست أسس التربية المنظمة للناشئة . فمنذ عهد السوفسطائيين نجد أن البلاغة التى تقدمت إلى حد بعيد بفضل مدرسة الخطابة التى أنشأها أيزوقراط تلميذ غورغياس ، وهى المدرسة التى أنشئت لتنافس أكاديمية أفلاطون ، فصارت جانباً لا مناص منه فى التربية اليونانية . وفى هذا بصفة خاصة اتضح الخطر الكبير على الفلسفة . فالشكل أو الصياغة صار يهدد بالطغيان على المضمون ، كما أن فن الإقناع صار يهدد الإحساس بالحقيقة .

والواقع أن السوفسطائية بما تضمنته من نزعة شكية فلسفية لم تُلْقِ بالشكوك على إمكانية قيام العلم فحسب ، بل إنها عملت على زعزعة الثقة فى السلطات الدينية والسياسية والأسرية ، وذلك بنسف الأسس التى تقوم عليها بما كانت تحمله من نزعة فردية كاملة واستمساك بعض أعضائها بتلك النزعة . ويعترف زيلر بأنه رغم ما أثَّرت به السوفسطائية وقدمته من فوائد ، فإنها عملت على إثارة الكثير من المشكلات ، ولم تتمكن من تقديم حلول لها . ولا شك أن سقراط وأفلاطون وأرسطو قد عملوا على إرساء القواعد التى يتسنى عن طريقها التأكيد على إمكانية الوقوف على حقائق ثابتة تتسم بالموضوعية ومتحررة من الشكوك

الشخصية ، كما أنهم استطاعوا أن يسبروا أغوار الطبيعة الإنسانية للوقوف على مثل عليا ثابتة طبيعية وأن يوجهوا سلوك المرء فى الحياة العملية .

أما برتراند رسل فى تقييمه للسوفسطائية ، فإنه أبدى شيئاً من التعاطف مع قادة تلك الحركة الثقافية ، فيقول إن بروتاغوراس قد قضى شطراً من حياته فى نوع من الجولات التى كان يلقى خلالها المحاضرات ، فجاب الكثير من مدن اليونان يعلِّم الناس نظير أجر كان يتقاضاه ، فكان يعلِّم « أى شخص لديه رغبة فى إحراز مهارة عملية وفى إحراز ثقافة عقلية عالية » . بيد أن أفلاطون اعترض باستعلاء على تلك الممارسة الثقافية نظير أجر . ولكن لماذا اعترض أفلاطون على هذه الممارسة . إن أفلاطون نفسه كان رجلاً غنياً ، وكانت فى حوزته وسائله الخاصة . ويبدو أنه لم يتمكن من تقدير موقف أولئك الذين لا يملكون الثروة الهائلة مثلما كان يملك . ويقول رسل أيضاً إن المؤسف أن الأساتذة المحدثين فى عصرنا الذين لا يجدون غضاضة فى الحصول على مرتبات نظير عملهم فى المعاهد والجامعات ومراكز البحوث ، ينحون باللائمة على السوفسطائيين لأنهم كانوا يتقاضون أجراً نظير تعليمهم ، فهم يلوكون ويرددون نعى أفلاطون عليهم دون أن يلوموا أنفسهم على فعل الشىء نفسه الذى كان السوفسطائيون يفعلونه .

وثمة نقطة أخرى يبرزها رسل فى تقييمه للسوفسطائية . فالواقع أن السوفسطائيين كانوا مباينين لمعظم الفلاسفة الذين عاصروهم . فلقد كان من عادة الفلاسفة فى ذلك الوقت أن ينشئ كل واحد منهم مدرسة تنتشر فيها بعض خصائص الأخوَّة ، وكان هناك قدر كبير أو صغير من الحياة المشتركة ، وكانت تلك المدارس شبيهة إلى حد ما بالأديرة ، فكان

www.dvd4arab.com

الطلبة فيها محكومين بقواعد سلوكية معينة ، وكانت هناك فى العادة تعاليم سرية غير مسموح بإعلانها للجمهور . وكان كل ذلك طبيعياً ، إذ أن الفلسفة كانت قد انبثقت من الأورفية . ولكن لم يكن شىء من ذلك متبعاً عند السوفسطائيين . فما كانوا يقومون بتعليمه ، لم يكن مرتبطاً فى أذهانهم من قريب أو من بعيد بالدين أو الفضيلة . إنهم اقتصروا على تعليم فن الجدل وكل ما يساعد من معرفة على بلوغ ذلك الهدف .

ويقول رسل : إننا نستطيع أن نقول بوجه عام إنهم كانوا على استعداد — شأنهم شأن المحامين المحدثين — أن يظهروا كيف يتسنى لهم أن يدافعوا عن أى وجهة نظر ونقيضها ، ولم يكونوا مهتمين بالدعوة إلى خلاصات فكرية خاصة بهم . ومن الطبيعى أن هؤلاء الذين كانوا يعتبرون الفلسفة شيئاً مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالدين ، قد صدموا فى عواطفهم ، وقد ظهرت السوفسطائية أمامهم كشىء يدعو إلى العبث والتحلل من القيم الخلقية .

وإمعاناً فى الدفاع عن السوفسطائية ، فإن رسل يقول إنه بالرغم من أننا لا نستطيع تحديد مدى ما جلبه السوفسطائيون على أنفسهم من سوء سمعة — ليس فقط عند عامة الشعب اليونانى ، بل وأيضاً عند أفلاطون ومن أتوا بعده من فلاسفة — فإن ما أصابهم من تسفيه وتحقير قد يمكن عَزْوه إلى فضيلة أو ميزة عقلانية كانوا يتجلببون بها . فهو — أى رسل — يقول إن السعى وراء الحقيقة عندما يكون بجدية وحماس ، فلا بد أن يكون المرء غاضاً النظر عن الاعتبارات الخلقية . فنحن فى موقف كهذا لا نستطيع أن نعرف مقدماً أن الحقيقة سوف تُفْضى إلى ما يعتبر متمشياً مع أذواق المجتمع أو قيمه الخلقية . لقد كان السوفسطائيون — والكلام لرسل — مستعدين أن يسيروا وراء الجدل بغض النظر عما يوصلهم إليه .

فالنتائج المترتبة على ما يسوقهم إليه الفكر يجب ألا يقام لها أى اعتبار فى أنظارهم .

ويعتقد رسل أن السوفسطائيين قد تسلحوا بقوة منطقية ماضية وحاسمة مما أفضى إلى إجبار خصومهم على التلفّح بالدعوة إلى انتهاج طريق الفضيلة . فلقد ظل أفلاطون يبدى اهتمامه بالدعوة لآراء تحمل الناس على أن يصيروا فضلاء حسب التصور الذهنى الذى ارتآه . ولكن هذا الموقف — كما يعتقد رسل — ليس موقفاً شريفاً من الناحية العقلانية وذلك لأنه يسمح لنفسه بأن يحكم على التعاليم المقدمة فى ضوء ما يترتب عليها من نتائج اجتماعية . وحتى بالنسبة لهذا الموقف فإنه قد جانب الصدق والأمانة . فهو يزعم أنه يسير فى هَدْى البراهين وأنه يصدر فى أحكامه عن معايير نظرية ، بينما هو فى الواقع يلوى عنق المناقشة بحيث تؤدى إلى النتيجة المتمشية مع الفضيلة .

ورسل يتهم أفلاطون بأنه أدخل هذه الرذيلة إلى رحاب الفلسفة ، فاستشرت منذ عهده إلى العهود التالية . ويرجّح رسل أن العداء الشديد الذى اعتمل لدى أفلاطون للسوفسطائيين هو الذى طبع محاوراته بهذا الطابع . ومن المثالب التى ابتلى بها جميع الفلاسفة منذ أفلاطون هو أن بحوثهم فى المجالات الأخلاقية تسير فى هدى افتراض بأنهم يعرفون مقدماً النتائج التى عليهم التوصل إليها .

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

الفصل السادس عشر

سـقراط

(نحو ٤٧٠ – ٣٩٩ ق م)

ولد سقراط فى أثينا عام ٤٧٠ ق م ، وكان والده يشتغل بنحت التماثيل ، بينما كانت أمه تعمل قابلة . ويبدو أن ما تلقاه من تعليم فى طفولته كان أقل من المستوى الذى كان أقرانه يحصلون عليه . ولقد تعلم فن والده ويعزى إليه نحت مجموعة من التماثيل فى مدخل الأكروبول تمثل للنعم الثلاث . أما باعتباره فيلسوفاً ، فإن الفضل فى ذلك يرجع إلى تعليمه لنفسه بالاعتماد على طريقته الخاصة. بيد أن الكُتَّاب قد ربطوا بينه وبين أرخيلاوس باعتبار أنه تتلمذ على يديه . ولا بد أنه فى وقت ما قد اشتغل بالفلسفة الطبيعية ، ولكن عدم رضاه عن هذا النوع من الفلسفة قد أدى به إلى الإغضاء عن متابعة دراستها . وكانت له أيضاً علاقات بالسوفسطائيين فاستمع إلى محاضراتهم ، وكان فى بعض الأحيان يزكّى بعض التلاميذ للالتحاق بحلقاتهم .

ولقد اشتهر سقراط بقدرته على السيطرة على شهواته . فهو نادراً ما كان يعاقر الخمر ، ولكنه عندما كان يُقْدِم على ذلك فإنه كان يتفوق على جميع المعاقرين معه للخمر ، ولكن أحداً لم يشاهده وقد أفقدته الخمر وعيه . وبالنسبة للجنس فإنه كان أفلاطونى النزعة حتى فى ظل أقوى الإغراءات ، فكان حبه عذرياً ، وذلك جرياً وراء رواية أفلاطون عنه . لقد كان قديساً أورفياً بمعنى الكلمة ، فهو بصدد الثنائية المتعلقة بالروح

المتسامية إلى السماء والجسد المنتمى إلى الأرض ، قد استحوذ على السيطرة الكاملة للروح على الجسد . والواقع أن لامبالاته بالموت حتى النهاية يعتبر البرهان الشافى على هذه السيطرة . ولكنه فى الوقت نفسه لا يعتبر واحداً من أتباع النحلة الأورفية المتمسكين بجميع تعاليمها ، فقد كان تمسكه بتعاليمها منصباً على التعاليم الأساسية فقط . أما خرافاتها وشعائر التطهير التى كانت متبعة فيها ، فإنه لم يكن يشارك فيها ، أو يعتقد فى جدواها .

والواقع أن محاورة الدفاع Apology تقدم لنا – كما يقول برتراند رسل – صورة واضحة عن رجل ذى طابع خاص .. رجل واثق من نفسه جداً ، وذى فكر على مستوى رفيع جداً ، وغير عابئ بما يمكن أن يحرزه من نجاح دنيوى ، وقد كان معتقداً أنه موجَّه بواسطة صوت إلهى ، كما كان معتقداً أن التفكير الواضح هو أهم شرط على الإطلاق لانتهاج حياة سديدة . وكان اعتقاده راسخاً فى الخلود بعد الموت . ففى محاورة فايدو Phaedo نجد أنه – كما يقدمه أفلاطون – يقدم البراهين المؤيدة للاعتقاد فى الخلود .

بيد أنه كان يستمد تلك البراهين من دخيلته . فلقد كان يَستلهم جنياً كان يقبع بداخله – كما يقول رسل – وكان ينصت إلى أصوات تدور فى نطاقه الداخلى وربما يفسرها البعض بأنها عَرَض مرضى جنونى . أضف إلى هذا أن سقراط كان معرَّضاً لحالات من الذهول التخشبى . يقول رسل عن ذلك :

« إنه فى صبيحة أحد الأيام كان سقراط منهمكاً فى التفكير فى شىء ما لم يكن يجد له حلاً ، وهو أمر لم يكن بمقدوره أن يستبعده من ذهنه ، فاستمر فى التفكير فيه منذ بزوغ الفجر حتى الظهر . وهناك وقف

مركّزاً ذهنه فى التفكير . وعند الظهيرة اتجهت الأنظار إليه، وسرت الشائعات فى الأهلين حول هذا الأمر من أن سقراط قد ظل واقفاً منذ الفجر وهو يفكر فى شىء ما . وفى النهاية تجمهر الناس حوله فى المساء ، وبعدالعشاء أحضر بعض المتجمهرين حُصُرَهم ورقدوا عليها وهم يراقبون سقراط ، ليروا ما إذا كان سوف يظل واقفاً طوال الليل . وفعلاً ظل الفيلسوف واقفاً طوال الليل حتى الصباح . ومع عودة نور النهار قدم صلاة للشمس وذهب لحال سبيله » .

والواقعُ أن هذا كان من سمات شخصية سقراط . ففى أحد الأيام كان هو وأرسطوديموس ذاهبين إلى وليمة ، ولكن سقراط تخلف عن رفيقه فى الطريق بعد انخراطه فى نوبة من التفكير . ولدى وصول أرسطوديموس إلى بيت أجاثون صاحب الوليمة سأله عن سقراط ، فارتسمت الدهشة على وجه أرسطوديموس عندما اكتشف أنه ليس موجوداً بين الأشخاص الذين أتوا معه . فأرسل أحد العبيد للبحث عنه، فوجده تحت مظلة أحد البيوت المجاورة ، وهو واقف بغير حراك . وعندما نادى عليه العبد ، لم يتحرك من مكانه . والذين كانوا يعرفونه كانوا يقولون إنه كان يقف فى أى مكان بطريقة خاصة ، وينهمك فى التفكير دون أن يعرفوا ما كان يفكر فيه . فكانوا يتركونه وشأنه . أما بالنسبة للعشاء الذى كان مدعواً إليه مع صديقه وغيرهم ، فإنه وصل إليه بعد أن كاد ينتهى ، وكان المدعوون على وشك الانصراف .

أما الصوت الذى كان سقراط يتسمع إليه بدخيلته يتحدث إليه ، فإنه اعتبره صوتاً إلهياً ، كما أنه لقى تشجيعاً من كاهنة دلفى ، فأدرك أن رسالته فى الحياة تتمركز فى إيقاظ مواطنيه من غفلة العقل ، وأن يساعدهم على تأمل معنى الحياة للوقوف على خيرهم الأسمى . لقد اعتقد

سقراط أن رسالته وفلسفته وخدمته الإلهية إنما تتمثل فى حمل الإنسان على الإحساس بحالة من القلق الصحى الداخلى . ودأب على ذلك حتى لفظ نفسه الأخير عندما حكم عليه بالموت بالسم . ولم يسمح سقراط للمشاغل الأسرية ولا للأزمات السياسية بالحيلولة بينه وبين تحقيق هدفه ذاك . ولقد حظى باحترام كل الناس فى جميع الأوساط ومن مختلف الطبقات بفضل قناعته ونقائه وتكامل شخصيته وتمسكه بالفضائل وامتلائه بالتعاطف والجاذبية الاجتماعية وثقافته وذكائه .

ويبدو أن كاهنة معبد دلفى قد سئلت ذات مرة إذا كان هناك إنسان أكثر حكمة من سقراط ، فأجابت بالنفى . ولقد أعلن سقراط عن دهشته الكاملة عندما وصله ما فاهت به الكاهنة ، وذلك لأنه كان يعتقد أنه لا يعرف شيئاً ، ولكن مع ذلك فإن الآلهة لا تكذب . ومن ثم فإنه أخذ يطوف فى الأنحاء بين الناس ليرى ما إذا كان بمستطاعه أن يبرهن على خطأ ما زعمته الآلهة . فتوجه أولاً إلى أحد السياسيين كان يُظَنّ أنه حكيم فى رأى أناس كثيرين ، وليعرف ما إذا كان أكثر حكمة منه . ولكنه سرعان ما اكتشف أن ذلك الرجل ليس من الحكمة فى شىء ، وقد برهن له على ذلك برفق ولكن بجزم . وكانت نتيجة ذلك أن الرجل استاء من كلامه . وبعد ذلك توجه سقراط إلى الشعراء وأخذ يسألهم ليفسروا له بعضاً من أبيات الشعر فى كتاباتهم ، ولكنهم كانوا عاجزين عن التفسير . فعلم أنهم لم يقرضوا الشعر بما أوتوا به من حكمة ، بل كان شعرهم نوعاً من العبقرية والإلهام . وبعد ذلك توجه إلى الصناع المهرة ، ولكنه وجدهم على النحو نفسه من الخَوَاء الفكرى . ولم ينل من جولته سوى تأليب الكثيرين ضده .

وفى نهاية المطاف خلُص إلى أن « الله وحده هو الحكيم » ، وبإجابته

www.dvd4arab.com

هذه عن تساؤله وبحثه فإنه اعتزم على أن يبرهن على أن حكمة الناس لا تساوى إلا القليل أو لا تساوى شيئاً على الإطلاق ، واعتقد أن كاهنة دلفى لم تكن تقصد سقراط بعينه ، بل إنها استخدمت اسمه لمجرد إلقاء الضوء . فهو يعلن للناس من حوله « إذا كان سقراط هو أكثر من جميع الناس حكمة ، فاعلموا أن سقراط يعلم أن حكمته هى فى الواقع لاتساوى شيئاً » . ولقد أخذ على عاتقه أن يظهر لمدعى الحكمة أنهم ليسوا حكماء ، وقد كلّفه هذا الموقف العيش فى فقر مدقع ، ولكنه كان يحس بأن واجبه يتمركز فى البرهنة على صحة ما قالته الكاهنة .

لقد كان سقراط جندياً ، وظل ملتزماً بالجندية طالما اؤتمر بذلك . ولكنه يقول إن الله يأمره بأن يضطلع برسالة الفيلسوف فى البحث فى نفسه وفى نفوس الناس الآخرين . ولكن من العار عليه أن يترك موقعه فى ساحة القتال فى الوقت الذى يشتعل فيه أوار المعركة . والخوف من الموت ليس من الحكمة ، طالما أن لا أحد يعرف ما إذا كان الموت قد يكون فيه الخير الأعظم .

ولقد وصفه زميل له فى الجندية يدعى الكيبادز Alcibiades وكيف أنه كان يتحمل الصعاب ، وذلك بقوله :

« لقد كانت قدرته على التحمل مدهشة حقاً ، فعندما كانت الإمدادات تنقطع عنا ، فإننا كنا نضطر للبقاء بغير طعام . وفى تلك الظروف التى كانت تحدث كثيراً فى وقت الحرب ، فإنه كان متفوقاً على جميع المحيطين به ، فلم يكن أحد بيننا يمكن أن يُقَارَن به . أما قدرته على تحمل البرد فإنها كانت مدهشة فى الواقع . لقد كان الصقيع شديداً وذلك لأن الشتاء فى تلك المنطقة كان فظيعاً للغاية ، وكان كل شخص من زملائه يلوذ بالاختباء خلف الأبواب . وإذا ما اضطر للخروج فإنه

كان يرتدى ما يستطيع ارتداءه من الملابس حتى يقى نفسه من البرد القارس ، كما كان يرتدى الجوارب والحذاء الغليظ . أما سقراط فإنه فى وسط ذلك الجو البارد جداً ، كان يسير بقدمين عاريتين حافياً فوق الجليد ، كما أنه لم يكن يرتدى سوى ملابسه العادية ، وكان فى ذلك يسير منتصب القامة أفضل من الجنود الآخرين الذين كانوا يرتدون الأحذية ، وصاروا يتطلعون إليه وقد أخذ بهم الخجل كل مأخذ ، لأنه كان يبدو محتقراً لهم » .

وهو باعتباره ابناً لشعبه ، فإنه قام بأداء واجبه فى الحرب بغير تهيب كما هو حاله فى السلم ، ولقد شارك فى ثلاث حملات . ومن جهة أخرى فإن مبادئه قد حفظته بعيداً عن السياسة . ولكن عندما أجبر ضد إرادته على أن يلعب دوراً فى هيجان الشعب ، فإنه لم يتوان عن لعب دوره فى ذلك . فهو كرئيس للمحكمة التى قامت بمحاكمة القادة العسكريين بعد معركة أرجينوزا (عام ٤٠٦ ق م) تحدى الجمهور الصاخب ، وبعد ذلك ببضع سنوات رفض أن يطيع الأوامر غير القانونية للطغاة الأوليجارشيين ، غير مبال بتعريض حياته للخطر .

والواقع أن نقده اللاذع للدستور الديموقراطى ، ومجادلاته المستمرة للناس الذين كان يقابلهم ، واعتداده الشديد بذاته وبمضاء تفكيره ، قد خلق له أعداء كثيرين من أبناء جلْدته . ومن جهة أخرى فإن إهماله لمظهره الخارجى ، وانهماكه فى تفكيره الداخلى الذى كان يوحى فى بعض الأحيان بأنه ممسوس بالجن ، قد ساعد على ازدراء الناس له وحنقهم عليه . بيد أن الواقع أن سقراط قد جمع بين الذكاء النقدى الخارق وبين الإحساس الدينى العميق . وكان يقف فى الواقع إلى الجمع بين الفكر السديد وبين الوقوف بحسه النسكى الداخلى على شىء مطلق

www.dvd4arab.com

وغير مشروط بشروط يساعد المرء على انتهاج طريق الفضيلة والحق فى الوقت نفسه .

وسقراط نفسه لم يترك مؤلفات من بعده ، ومن ثم فإن مؤلفات تلاميذه — وبخاصة أفلاطون وأكسونوفون — هى المصادر المعتمدة التى نستطيع أن نستمد منها أى معلومات حول وجهات نظره الفلسفية . أما بالنسبة للكتّاب المتأخرين فإن مؤلفات أرسطو هى المصدر الوحيد الذى يجدر أخذه فى الاعتبار . والواقع أن ما قام أرسطو بكتابته عن سقراط برغم قصره ، يعد بياناً دقيقاً عن شخصيته ، برغم أنه لا يتضمن شيئاً أكثر مما ذكره أفلاطون وأكسونوفون . بيد أنه بالنسبة لأفلاطون فإنه على الأرجح قد أنطق أستاذه بآرائه وتعاليمه الشخصية .

ولا شك أن سقراط كان متأثراً بالأورفية المندمجة فى الفيثاغورية ، وأن ما بسطه أفلاطون فى محاورته « أوطيفرون » من رأى فى الدين يرجع لمعلمه ، ونحن نقرأ فيها أن سقراط يأبى أن يصدق ما يروى عن شهوات الآلهة وخصوماتهم وإلا انهار الدين من أساسه ، ولم نعد نعلم أى الأعمال يروق فى أعين الآلهة وأيها لا يروق ولا إن كان العمل الحسن عند أحدهم لا يعد مرذولا عند غيره ، ويحدد الدين بأنه تكريم الضمير التى للعدالة الإلهية وليس تقديم القرابين وتلاوة الصلوات مع تلطخ النفس بالإثم . كذلك كان يعتقد أن الآلهة يرعوننا وأنهم عينوا لكل منا مهمة فى هذه الدنيا . وكان يؤمن بالخلود ويعتقد أن النفس متمايزة من البدن فلا تفسد بفساده ، بل تتخلّص بالموت من سجنها وتعود إلى صفاء طبيعتها . وليس يهمنا كثيراً أن نقف على شروحه وأدلته ، فقد اصطنعها أفلاطون بلا ريب وزاد عليها . وليس من غضاضة على

سقراط أن يفنى مجهوده فى مجهود أفلاطون ، فحسبه أنه باعث الفلسفة وموجهها وجهتها الروحية وشهيدها الأمين .

والواقع أن الميل للحكمة قد اشتد لدى سقراط فى سن مبكرة ، فأخذ يغذّى عقله ويهذب نفسه ، لأنه فهم الحكمة على أنها كمال العلم لكمال العمل ، فمن الناحية العقلية أفاد من مناهج السوفسطائيين ولم يأخذ بشكوكهم ، ونظر فى الطبيعيات والرياضيات ولم يُطِل النظر لبعدهما عن العمل ، فضلاً عن تناقض الطبيعيين فيما بينهم ، واقتنع بأن العلم إنما هو العلم بالنفس لأجل تقويتها ، واتخذ شعاراً له كلمة قرأها فى معبد دلف هى « اعرف نفسك بنفسك » .

ومن الناحية الخلقية كان يغالب مزاجه الحاد ويقسو على جسمه القوى ليروّضه على طاعة العقل . فلما تم له بعض ما يبغى طلع على الأثينيين يخوض معهم فيما كان يثيره السوفسطائيون من مسائل أدبية وخلقية واجتماعية ، والأثينيون يقبلون عليه برغم دمامة خلقته ، معجبين بحديثه البسيط البليغ معاً وبقوة عارضته وشدة مِرَاسه فى الجدل ، ولم يكن له مدرسة بمعنى الكلمة ، بل كان يجتمع بالناس أينما اتفق ، فيجادل أو يخطب أو يشرح الغريب فى شعر الشعراء . وكانت له مع ذلك حلقة من الإخوان والمريدين ، منهم الأثينى ومنهم الغريب ، يختلف إلى أثينا من حين إلى حين ليراه ويستمع إليه سواء حديث العهد بالفلسفة أم المعروف بانتمائه لمدرسة فلسفية معينة . وكان يُؤثر التحدث إلى الشباب ليصلح ما أفسده السوفسطائيون من أمرهم ويبصّرهم بالحق والخير ليهيئ للبلد مستقبلاً طيباً على أيديهم . وأصابته القرعة فدخل مجلس الشيوخ ، وكان عضواً فى لجنته الدائمة . وعُرف بالنزاهة

Looloo

واستقلال الرأى بين الديموقراطيين والأرستقراطيين، وكانت له مواقف مشهودة جهر فيها بالحق والعدل مستهدفاً للخطر صامداً للهياج . وما إن انقضت مدة انتخابه حتى عاد إلى سابق أمره من البحث والإرشاد إلى أن بلغ السبعين .

ولا شك أن سقراط كما قدمه أفلاطون قد سبق فى تعاليمه كلاً من الرواقيين والكلبيين الذين آمنوا بأن الفضيلة هى الخير الأوحد وبأن جوهرها ضبط النفس . وكذا فإن الرواقيين اعتقدوا أن الخير الأسمى فى الفضيلة وأن المرء لا يمكن أن يُحرم من الفضيلة بعوامل خارجية. وهذا المذهب يتخلل تعاليم سقراط . ذلك أنه اعتقد أن القضاة لا يستطيعون إيقاع الضرر عليه . أما بالنسبة لما ذهب إليه الكلبيون من احتقار للخيرات الدنيوية وقد تبدى احتقارهم بالتنحى عن الأخذ بالأساليب الحضارية ، فإن سقراط قد سبقهم إلى ذلك بأن كان يسير فى الشوارع حافى القدمين وفى ملابس رَثَّة .

وبينا نجد أن منهج سقراط قد حشد حوله جماهير الأثينيين وأفاده شهرة واسعة ، فقد جلب عليه سخط الشعراء والخطباء والسياسيين الذين كانوا يقعون فريسة بين يديه ، يعبث بهم فى الجدل ، ويظهر الناس على فراغ رءوسهم وبطلان دعاواهم . وأقدم طعن وجه إليه فيما نعلم رواية « السحب » لأرسطوفان ، يصوره فيها ذائع الصيت عظيم النفوذ (وكان سقراط حينذاك فى السابعة والأربعين) صاحب مدرسة يعيش فيها التلاميذ عيشة مشتركة فى فقر وقذارة ، ويدرسون عليه الهندسة والطبيعة والفلك والآثار العلوية والجغرافيا وأعماق الأرض والكائنات الحية والبيان والنحو والعروض، وتمثّله مرفوعاً فى الفضاء يرصد السماء، ويعزو إليه القول إن الهواء مبدأ الأشياء ومبدأ الفكر ، ويتهمه بالكفر

بآلهة المدينة وبتعليم التلاميذ تغليب الباطل على الحق، ويعلن أن القصاص العادل الذى يجب أن يوقع عليه لا يكون إلا بإحراق المدرسة وقتل صاحبها والتلاميذ جميعاً .

فأرسطوفان جمع فى شخص سقراط خصائص الطبيعيين والسوفسطائيين معاً، وقد يكون خُدع فى ذلك لمَّا أراد أن يهجو الجماعة المتفلسفة المبتدعة لما كان من مشابهة ظاهرة بين أسلوب سقراط وأسلوب السوفسطائيين ، فيجادل مثلهم ويخوض مسائلهم بحيث لم يكن من الميسور تمييزه منهم إلا للمقربين إليه الواقفين على آرائه ، فاختاره بطلاً لروايته لشهرته عند الأثينيين وغرابة هيئته ، ورأى أنه الشخصية المناسبة ليكون بطل رواية هزلية ، فينسى له بذلك إسقاط الجماعة التى يمثلها . وقد يكون سقراط امتحنه فيمن امتحن وأفحمه أمام الجمهور ، فأراد هو أن ينتقم لنفسه ولزملائه منه ، وأن يوقع بهذا الخصم العنيد . ومهما يكن من أمر الباعث لديه ، فإن روايته لم تصادف إقبالاً ولم تلحق أى أذى بسقراط .

والواقع أن سقراط كان كثير التعريض بشباب الطبقات الغنية . فلقد اتهمهم بأن ليس لهم من همّ سوى التبطّل. وبذا فإنه عمل على زيادة عدد أعدائه . وذلك لأنهم لم يرغبوا فى الاعتراف بأن ما يدّعونه من معرفة لا طائل وراءه ، وكانوا يخشون كشف النقاب عن جهلهم .

وفى محاورة الدفاع Apology نجد أن أفلاطون يقدم صورة لما يتذكر أنه حدث فى قاعة المحكمة بين سقراط وقضاته من أحاديث . ومن الطبيعى أن يكون أفلاطون قد أعاد صياغة ما يتذكره بأسلوبه وصياغته فقدمه فى صورة فنية . صحيح أن أفلاطون لم يحضر المحاكمة

Looloo

شخصياً ، ولكن هل نستطيع أن نتصور أن ما ذكره أفلاطون جامع مانع لما حدث بالفعل ؟ وهل أضاف أفلاطون أشياء من نسج خياله ؟ مهما يكن من أمر فإن رسل يعتقد أن ما ورد بهذه المحاورة هو أقرب تصور لما حدث بالفعل ، وهو يقدم صورة قريبة جداً من الطابع الشخصى والخلقى الذى كان يتصف به سقراط .

وليس من شك فى أن الوقائع الرئيسية فى محاكمة سقراط لا يداخلها أدنى شك . ولقد أقيمت الدعوى على سقراط على أساس أنه شخص مقترف للإثم ، وأنه غريب الأطوار ، لأنه يبحث فى أشياء تحت الأرض وفوق السماء ، كما أنه يجعل من أحط الأشياء عللاً عظيمة الشأن ، ثم إنه يقوم بإشاعة كل هذا بين الناس . والواقع أن العداء الحقيقى تجاهه كان بالتأكيد متعلقاً بموقفه من الحزب الأرستقراطى وارتباطه بأعضائه ، إذ كان معظم تلاميذه منتمين إلى هذه الفئة ، كما أن بعضهم كانوا فى مراكز القوة ، وقد برهنوا على أنهم شخصيات ضارة جداً بالمجتمع . بيد أن هذا الاتهام لم يعلن صراحة خوفاً من أن ينال الصفح العام ، ولقد أجمع القضاة على أنه مذنب ، وعلى هذا فقد صار متاحاً أمامه فى ضوء القانون الأثينى أن يطالب بعقوبة أخف وطأة من عقوبة الموت .

وكان أمام القضاة أن يختاروا إن كان المتهم مذنباً إذا كانوا يأخذون بعقوبة الإعدام التى تطالب بها النيابة أو ممثلو الاتهام ، أم أن يأخذوا بما يطالب به الدفاع . وعلى هذا فقد كان فى مصلحة سقراط أن يطالب ممثلى الاتهام بعقوبة بديلة ، وهى العقوبة التى كان من الممكن أن تقبلها المحكمة . بيد أن سقراط طالب بأن يدفع غرامة تساوى حوالى ثلاثين قرشاً ، وهى غرامة كان بعض من تلاميذه بمن فيهم أفلاطون مستعدين بالطبع لسدادها . ولكن كان لهذا الطلب رد فعل سيئ فى

نفوس القضاة ، مما حملهم على الحكم عليه بالاعدام بالأغلبية . وهو بلا شك كان يتوقع هذه النتيجة ، وكان واضحاً أنه لا يحمل أية رغبة فى تحاشى عقوبة الإعدام فى نظير تنازلات تحمل فى طياتها الاعتراف بأنه مذنب .

أما ممثلو الادعاء فكان من بينهم أحد السياسيين الديموقراطيين يسمى أنيتوس Anytus ، وشاعر تراجيدى يسمى ميليتوس Meletus وهو شاب غير معروف ذو شعر طويل أشعث ولحية خفيفة وأنف محدودب . أضف إلى هذين أحد الخطباء المغمورين يسمى لايكون Lycon . ولقد أدعوا على سقراط أنه كان مذنباً ، لأنه لم يكن يعبد الآلهة التى تؤمن بها الدولة ، بل عمد إلى إدخال آلهة أخرى جديدة ، وأكثر من هذا أنه كان يعمد إلى إفساد الشباب ، وذلك بأن يقوم بتعليمهم تلك الأشياء المناهضة لدين الدولة . والواقع أن محاكمة سقراط تعود إلى سلسلة كاملة من القضايا التى وجهت فى ظل قانون ديوبيتس ضد كل من ابازيا وأنكساغوراس وميلوس . ولا شك أن استيقاظ غريزة التمسك بالتقاليد ضد القوى العقلانية والنزعة التجديدية كانت تغلف تلك المحاكمة .

أما المحكمة فكانت مؤلفة من محلفين اختيروا بالقرعة ممن كانت سنهم تزيد على الثلاثين ، ويظن أن عددهم كان خمسمائة واثنين . فكانت المحكمة إذن جمعاً حاشداً من النوتية والتجار الذين كانوا متأثرين بالنزعات الشعبية والتيارات الجماهيرية ولا يصلحون بحال للنظر فيما ندبوا له . ودافع سقراط عن نفسه ، ولا نعلم ماذا قال ، ولكنا إذا رجعنا إلى الدفاع الذى كتبه أفلاطون وأجرى فيه الكلام على لسان أستاذه . ألفيناه يبدأ بالاعتذار عن الكلام بلا تحضير ولا تنميق ، ثم يذكر خصومه المتقدمين والمتأخرين ، فيرد أولاً على الشعراء الهزليين

Loolo
www.dvd4arab.com

وبالأخص على أرسطوفان ، فينكر أنه اشتغل بالعلوم الطبيعية وأنه لم يعرض للآلهة بسوء ، ويعلل التحامل عليه بامتحانه المشهور لآرائه ، ويلتمس عذراً لهذا الامتحان رغبته فى التحقق من مراد أبولون .

وينتقل إلى ملاتوس فيهزأ منه ويلقى عليه الأسئلة ويربكه ، ولكنه لا يبسط معتقده الدينى ولا يدحض التهمة دحضاً قاطعاً ، وربما كان السبب فى هذا التهرب إشفاقه على مثل هذه المسائل أن تثار أمام مثل هذه المحكمة وتحاشيه إهاجة الجمهور على غير طائل . ويعود إلى رسالته ويقول إن إرادة إلهية أوحت إليه أن يعظ مواطنيه ويحثهم على الصلاح وبعثه فيهم مهماز يحفزهم ، فهو نورهم وهدايتهم والمحسن إليهم بتعاليمه ونصائحه التى ينبغى لهم ليؤدى واجباً ، ولا يبغى عرَضاً من أعراض الدنيا ، ويعلن إليهم أنه إذا صُرف برىء الساحة ، فلن يغير ذلك من سيرته شيئاً ، وكيف يغيِّرها وهو لا يخشى الموت ، بل يُؤثره على الحياة مع خيانة الواجب . وأخيراً يفوِّض لهم الأمر بعد أن يذكر أنه يأبى أن يستعطفهم وأن يتنزل إلى ما يتنزل إليه غيره من ضروب الاسترحام المألوفة فى المحاكم الشعبية ، كالبكاء والاستبكاء فى حضرة الأباء والأبناء .

ولم يكن هذا الشَّمم وهذا التحدى ليعجبان القضاة ، فيقترع هؤلاء وتعلن النتيجة ، فإذا بالغالبية تحكم بأن سقراط مذنب ، وكان القانون يخوِّل المتهم حق مناقشة العقوبة المطلوبة وتعيين العقوبة التى يرتضيها . فيستأنف سقراط الكلام ويصرح أنه لا يدهش للقرار ، بل يدهش لأنه صدر بغالبية ضئيلة ، إذ كان يكفى أن ينحاز ثلاثون صوتاً منها للأقلية حتى تتساويا (فالغالبية كانت ٢٨١ والأقلية ٢٢١ على تقدير أن عدد القضاة كان كما ذكرنا) . ولقد رفض كل عقوبة ،

لأن الرضى بواحدة أياً كانت يتضمن إقراراً بالذنب ، وهو برىء محسن يجب أن يثاب على إحسانه . والثواب اللائق به أن يعين فى مجلس الشيوخ على نفقة الدولة . غير أن تلاميذه يلحون عليه فينتهى بأن يقبل تأدية غرامة ، ويتقدم أفلاطون وبعض الأصدقاء لكفالته ، ولكن القضاة كانوا قد غضبوا عليه فيقترعون — كما قلنا — فتحكم عليه بالإعدام أغلبية أعظم ، فيعاود الكلام ويقول إنه لا يأسف على شىء لأنه لم يفعل ولم يقل إلا ما بدا له أنه حق ، ويختم بكلمة طيبة إلى الذين اقترعوا فى جانبه مؤكداً لهم أنه مغتبط بالموت ، وأنه لا يعتبر الموت شراً ، بل يرغب فيه ، لأنه يرى فيه الخير كل الخير ، سواء افترضناه سباتاً أبدياً أم بعثاً لحياة جديدة . وقال لهم إنه فى جميع سلوكه فى ذلك اليوم الذى حكم عليه فيه ، وجد أن الروح الموشد له لم تعترض عليه على الإطلاق ، على الرغم من أنها فى مواقف أخرى كانت كثيراً ما توقفه فى أثناء انخراطه فى الحديث . وهذا فى اعتقاده دلالة على أن ما يحدث له وهو واقف بالمحكمة لخيره ، وأن أولئك الذين يظنون أن الموت شر ، إنما يقعون فى الخطأ . فالواقع أن الموت إما أن يكون نوماً بلا أحلام — وهذا ذاته شىء جيد — وإما أن الروح تهاجر إلى عالم آخر . وماذا ينتفع المرء إذا هو خالف عن إرادة أورفيوس وموساوس وهزيود وهوميروس ؟ فإذا كانت هذه هى الحالة ، فمن الأفضل أن يستسلم المرء للموت مرة ومرات . ففى العالم الذى سوف يتلو هذا العالم ، فإن المرء سوف يتبادل الحديث مع الآخرين الذين لاقوا الموت وعانوه ظلماً ، وفوق ذلك كله ، فإنه سوف يستمر فى البحث طلباً للمعرفة . ففى العالم الآخر سوف لا يحكمون على شخص بالموت لأنه يثير تساؤلات . فهذا لن يكون بالتأكيد فى جانب أن المرء سوف

Tadabe

يكون أكثر سعادة مما عليه البشر فى هذه الدنيا ، فإنه سوف يكون خالداً لا يجد الموت إليه سبيلاً .

ويوجه سقراط الكلام إلى المحكمة أيضاً قائلاً : « عندى شىء آخر لأقوله ، ربما تصيحون فى وجهى لدى سماعه ، ولكنى أعتقد أنكم إذا سمعتمونى ، فإن هذا سوف يكون لخيركم ، ولذا فإنى أرجوكم ألا تصيحوا فى وجهى . فأنا أرغب فى أن تعلموا أنكم إذا قتم بقتل شخص ما مثلى ، فإنكم سوف تؤذون أنفسكم أكثر مما تؤذوننى . فليس من شىء سوف يؤذينى ، ولا يستطيع ميليتوس ولا أنيتوس أيضاً أن يوقعا أذى علىّ ، وذلك لأن الإنسان الشرير غير مسموح له أن يُوقع أذى على شخص أفضل منه . وأنا لا أنكر أن أنيتوس ربما يقوم بقتلى ، أو يدفع بى إلى المنفى ، أو يحرمنى من الحقوق المدنية . ولقد يتخيل أو ربما يتخيل آخرون أنهم بذلك يوقعون على أذى هائلاً ، ولكنى لا أوافقهم على ذلك. فالشر الذى يُعْمل كما يعمله هو — أعنى الشر المتبدى فى نزع حياة شخص آخر — إنما هو شر أكثر شراً » .

فسقراط يقول إنه من أجل صالح قضاته وليس لصالحه الشخصى ينافح عن نفسه . فهو نذير ينبه الضمائر أرسله الله إلى الدولة ، وسوف لا يكون من السهل أن يوجد شخص آخر يشبهه « وإنى لأجرؤ وأقول لكم إنكم سوف يتسنى لكم بسهولة أن تقضوا بموتى كما ينصح بذلك أنيتوس ، وبعد ذلك فإنكم سوف تنخرطون مرة أخرى فى النوم باقى حياتكم ما لم يرسل لكم الله بعنايته بكم شخصاً آخر يوقظكم من النوم » .

ويتهم سقراط رافعى الدعوى ضده باستخدامهم سلاح البلاغة ، ويدحض اتهامهم له ويقول إن البلاغة الوحيدة التى يستطيع النطق بها

هى بلاغة الحقيقة . ويطالبهم بألا يغضبوا منه إذا هو تكلم بالطريقة العادية ولا يقدم إليهم صيغاً بلاغية كتلك التى اعتادوا عليها ، وهى الصيغ المنمقة بتكلف الكلمات الرنانة والعبارات الزخرفية . فهو بلغ من العمر أكثر من سبعين عاماً ، ولم يسبق له أن مَثُل أمام محكمة حتى لحظة وقوفه الآن . فهم لذلك عليهم أن يصفحوا عن الطريقة غير البليغة وغير المتبعة فى المحاكم فيما ينطق به من عبارات .

ولقد أشار سقراط إلى أن من بين هؤلاء الموجودين بالمحكمة الكثير من تلاميذه السابقين ، وأيضاً الكثير من أقرباء وأخوة أولئك التلاميذ . وليس من واحد منهم على الإطلاق قد طُلِب للشهادة من قِبَل ممثل الاتهام بأنه يفسد الشباب . وهذه فى الواقع الحجة الوحيدة فى محاورة الدفاع Apology يتسنى لأحد المحامين استخدامها فى دفاعه . ولقد رفض سقراط أن يتبع الطريقة المعتادة بأن يحضر أطفاله لكى يبكوا فى المحكمة لترقيق مشاعر القضاة وتليين قلوبهم . فهو يقول إن تلك المشاهد تجعل المتهم والمدينة كلها على السواء مثاراً للسخرية . فما عليه سوى أن يُقْنع القضاة لا أن يسألهم إسداء معروف إليه .

ويستمر سقراط فى الكلام فيقول إنه بالإضافة إلى من يتهمونه بصفة رسمية ، فثمة عدد كبير من الأشخاص الذين يتهمونه بصفة غير رسمية . إنهم أولئك الذين كانوا منذ أن كان القضاة أطفالاً قد طافوا فى الأنحاء قائلين إن شخصاً اسمه سقراط — وهو رجل حكيم يتأمل النجوم والكواكب فى السماء ويبحث فيما تخبئه الأرض تحت طبقاتها — وهو رجل يجعل من أسفل الأشياء علاً لما هو أفضل . وهو يؤكد أن هؤلاء الناس لا يؤمنون بوجود الآلهة . ولكنه يؤكد أمام المحكمة أن هذه التهمة القديمة التى شاعت فى الرأى العام لهى أكثر خطراً من الاتهام الرسمى ،

www.dvd4arab.com

وذلك لأنه لا يعرف بالضبط من يكون هؤلاء الناس ومن أين أتوا، باستثناء أرستوفان . ولكنه على أية حال يجيب على تلك الاتهامات الصادرة عن الكراهية له، بأنه ليس رجل علم . فهو برىء من اتهامه بالتأملات الطبيعية ، كما أنه ليس معلماً ولم يتقاض نقوداً نظير تدريسه. ثم إنه يستطرد فيتهكم على السوفسطائيين ويتنصل من المعرفة التى يزعمون أنهم يمتلكون ناصيتها . ويتساءل فى النهاية كيف يوصف بأنه رجل حكمة بينما تطارده السمعة السيئة .

ونستطيع أن نقف عن طريق أفلاطون وأكسونوفون وأرسطو على النهاية المأساوية التى انتهى إليها سقراط . فلقد ظل ينشر تعاليمه لجيل كامل ، ولكن انبرى له ثلاثة وجهوا إليه اتهاماً بإفساد الشباب ، وذلك بالتنكر للآلهة القومية ومحاولة إدخال آلهة جديدة فى رُؤُوسهم . والثلاثة هم ميليتوس وأنيتاس ولايكون . ولو لم يبد سقراط احتقاراً للطريقة التقليدية التى تمت بها محاكمته ، ولو أنه قدم بعض التنازلات أمام مطالب قضاته ، لما كان قد حكم عليه بالموت . وعندما وجد مذنباً بأغلبية صغيرة فى الجلسة التالية التى كان عليها أن تحدد العقوبة ، فإنه واجه المحكمة بكبرياء وتعالٍ ، ومن ثم فإن الحكم بإعدامه الذى اقترحه موجهو التهمة قد وافقت عليه أغلبية أكبر من الأغلبية الصغيرة التى وجدت أنه مذنب .

ويقول يوسف كرم بصدد حديثه عن الدعوى التى رفعت ضد سقراط إن ميليتوس هو الذى أقام الدعوى وانضم إليه ووقع على عريضته أنيتوس أحد رءوس الصناعة وزعماء الديموقراطية ولايكون، وهو خطيب لا بأس به ، ولكن المحرك الأصلى هو أنيتوس الذى أغرى صاحبيه بالمال واستغل حفيظتيهما ، إذ أنه كان أقدر منهما على التأثير

فى سير الدعوى . فأسباب الاتهام شخصية وسياسية معاً ، لأن سقراط علاوة على تسفيه الشعراء والخطباء ، كثيراً ما كان يحمل على النظام الديموقراطى ، وينتقد ما يقوم عليه من مساواة مسرفة واعتماده على قوة العدد والانتخاب بالقرعة . أما أركان الاتهام فهى :

أولاً : إنكار آلهة أثينا ، وكان أكبر الكبائر عند الأثينيين ، لأن كل مدينة كانت تعتبر آلهتها جزءاً من تقاليدها المقدسة لا يتجزأ ، وتُرْجِع إليهم الفضل فى نشوئها وحمايتها وترقّيها . فالكفر بهم نكران للجميل واستنزال لغضبهم على المدينة وأهلها . ولكن سقراط كان يعتقد بالآلهة وعنايتهم . فكان يشترك فى الشعائر الدينية ، فيلوح أن متهميه كانوا يتخذون حجة أنه فيلسوف ، وقديماً كان الفلاسفة متهمين فى عقيدتهم ، ثم إنهم كانوا يَرْمون إلى أن استدراجه لشرح رأيه فى الآلهة فيثيروا العامة عليه .

والركن الثانى من أركان الاتهام قوله بآلهة جدد، ويظهر أن المقصود به ذلك الصوت الذى كان سقراط يقول إنه يسمعه فى دخيلته ينهاه عما اعتزمه من أفعال ضارة به وهو لايدرى ، وكان يسميه الروح الإلهى ولا ينسبه لإله معين .

والركن الثالث إفساد الشباب على أساس أنه كان يحدّث تلاميذه ومستمعيه بآرائه فى الآلهة، فينفّرهم من الديانة الموروثة ويحضهم على التفكير الشخصى دون استناد إلى النقل والتقليد ، فيضعف من طاعتهم لوالديهم ومن إخلاصهم للدولة .

ويذكر رسل أن ميليتوس قال أيضاً إن سقراط شخص ملحد تماماً ، ويضيف إلى هذا أن سقراط يقول إن الشمس مكونة من

www.dvd4arab.com

حجارة وأن القمر مكون من تراب . فيرد عليه سقراط بأن ميليتوس ربما يظن أنه يوجه الاتهام ضد أنكساغوراس ، وربما يكون قد سمع عن آرائه فى المسرح نظير ما دفعه من مبلغ ضئيل (يحتمل أن تكون مسرحيات إيوريبيدس) . بيد أن سقراط يرد على هذا الاتهام الجديد بأن اتهامه بالإلحاد التام يتعارض مع التهم الأخرى الموجهة إليه .

وبعد صدور الحكم ورفض العقوبة البديلة وهى دفع غرامة بسيطة فإنه قام بإلقاء آخر كلمة له على النحو التالى :

« والآن أيها الرجال الذين حكمتم علىَّ ، إنى سوف أقدم إليكم نبوءة تخصكم ، وذلك لأنى فى طريق إلى الموت ، وفى ساعة الموت فإن الناس يُفْعمون بموهبة أو بقوة التنبؤ . وأنا أتنبأ لكم يا من تقومون بقتلى أنه فى وقت قريب جداً بعد رحيلى من العالم ، فإن عقوبة أشد وطأة بكثير من العقوبة التى توقعونها علىَّ سوف تنتظركم بلا ميراء ... إذا كنتم تظنون أنكم بقتل الرجال فإنكم تستطيعون أن تمنعوا رجلاً من التعريض بحياتكم الشريرة . إنكم مخطئون ، فليست هذه طريقة للهروب فهى طريقة مستحيلة وغير مشرِّفة . فليست أسهل طريقة وأفضلها أن تقضوا على الآخرين ، بل إن أسهل طريقة وأفضلها تتمثل فى العمل على تصحيح مسار حياتكم » .

وخلال الثلاثين يوماً التى قضاها سقراط بالسجن ، والتى كان عليه أن يتحملها لحين عودة سفينة الدولة من ديلوس ، فإنه رفض المقترحات الداعية إلى هربه ، لأنه اعتبر أن الهرب من السجن عمل غير مشروع ولا يليق بالفيلسوف وتجرَّع السم بوقار فلسفى . ولا شك أن العداء الشخصى قد عمل عمله خلال محاكمته وتوجيه الاتهام إليه ، وإن كنا لا نرى أن السوفسطائيين كانوا ضالعين فى هذا . ولعل أن

يكون الدافع الرئيسى لاتهامه وإعدامه هو عداء غالبية الشعب الأثينى للنزعة التنويرية الجديدة التى حمل سقراط شعلتها .

ويشير يوسف كرم إلى تأجيل تنفيذ الحكم فى سقراط ، فيقول : « إن أثينا كانت ترسل كل سنة حجيجاً إلى معبد أبولون فى جزيرة ديلوس ، فاتفق أن كُلِّل مؤخر المركب فى اليوم السابق على صدور الحكم ، وكان قانوناً مرعياً أن لا تدنَّس المدينة بإعدام طوال زمن الحج ، وقد استغرق تلك السنة ثلاثين يوماً ، فانتظر سقراط فى سجنه أوْبة المركب ، وكان تلاميذه يختلفون إليه كل يوم يتلاقون عند الفجر فى المحكمة ، فإذا ما فتح باب السجن دخلوا ، وكثيراً ما كانوا يقضون معه النهار بأكمله . وكان هو ينظم فى أوقات الفراغ : فنَظَم أمثال إيسوب ونشيداً لأبولون ، ولم يكن قد نظم الشعر قبل ذلك ، وإنما نظم امتثالاً لصوت طالما سمعه فى المنام . وائتمر تلاميذه فهيأوا له أسباب الفرار ، ووفروا له وسائل العيش فى تساليا ، وكان الفرار مستطاعاً ، وكان العرف يعذر الفار فى مثل هذه الحال ، ولكنه أبى أن يهرب كالعبيد وأن يخرج على قوانين بلاده ، والقوانين تاج الدولة ، فى ظلها ينشأ الأفراد ويحيون ؛ فإن الأثينيين قد ظلموه ، فبأى حق يستهين هو بالقوانين ويظلمها ؟ ثم كيف يهرب وهو لم يغادر أثينا قط إلا للحرب؟ وهو أينما يذهب سيثابر على خطته بالوعظ والتأنيب وإلا ضاع لديه كل معنى للحياة وأغضب الآلهة . فهل يكون الأجانب أوسع صدراً من مواطنيه ؟

ولما عادت المركب وحل الأجل بكَّر التلاميذ ما خلا أفلاطون ، فقد كان مريضاً ، وجاء بعض الفيثاغوريين فأدخلوا عليه فوجدوا زوجته جالسة بجانبه تحمل ابنهما الصغير ، فلما وقع نظرها عليهم أخذت

www.dvd4arab.com

تنتحب وتندب ، فأمر أن تُصرف إلى المنزل ، فأخذها بعض الخدم وهى تصيح وتضرب صدرها ، وجلس إليه مريدوه ، وكان هو سعيداً وكان شيء من هذه السعادة ينتقل إلى نفوسهم فيتحدثون معه على عادتهم ويضحكون ثم يفكرون فى موته فيبكون ويستأنفون الحديث وهكذا ، وكان معظم حديثهم فى خلود النفس ، حتى إذا ما تقدم النهار قام فاستحم ليكفى النساء مؤونة إحمام جثة هامدة ، فلما رجع أدخلت عليه قريباته ومعهن أولاده الثلاثة فكلمهم ثم صرفهم . ولما آذنت الشمس بالمغيب دخل السجان وأبلغه دنو الساعة وأثنى على خُلُقه وبكى — وكان الغروب ميعاد الإعدام عندهم — فأمر سقراط بالسم فأحضر له فى كأس ، فتناولها بثبات ودعا الآلهة أن يوفقوه فى هذا الرحيل من العالم الفانى إلى العالم الباقى ، وشرب السم حتى النهاية دون تردد ولا اشمئزاز ، وأجهش التلاميذ بالبكاء ، فانتهرهم وأخذ يتمشى إلى أن أحس بثقل رجليه ، فاستلقى على ظهره كما أوصاه صاحب السم ، وأخذت البرودة تغشى جسمه من أسفل إلى أعلى فيفقد الإحساس شيئاً فشيئاً حتى بلغت القلب فاعترته رجفة فأطبق أقريطون فمه وعينيه .

وسقراط نفسه بشهادته لم ينشئ مدرسة ، وذلك لأنه لم يكن لديه نظام فلسفى لينقله إلى تلاميذه ، كما أنه لم يقدم مذهباً فلسفياً يمكن تطويره . ولكن كان من الممكن أن يتعلم منه المعجبون به كيف يتفلسفون ، أعنى كيف يتأملون معنى الحياة والهدف منها . لقد كان نشاطه نشاطاً شخصياً بمعنى الكلمة بحيث لم يكن من اليسير تقليده والسير وَفْق منهجه . وكذا فإن أمله أن يقوم تلاميذه بالخروج من دائرته للاستمرار فى عملية فحص الناس وإثارة عقولهم لم يتحقق على الإطلاق . بيد أنه أحدث دفعة قوية للفلسفة استمرت ذات فاعلية حتى نهاية العالم

القديم ، ولا غرو فإن نظرية المعرفة والأخلاق قد احتلت مركز الاهتمام بدرجة عملت على تهديد الفلسفة الطبيعية والعلم الطبيعى على السواء .

ولقد انتهج سقراط منهجاً جديداً فى البحث والفلسفة . أما فى البحث فكان يتضمن مرحلتين هما « التهكم والتوليد » . ففى الأولى كان يتصنع الجهل ويتظاهر بالتسليم بأقوال محدثيه ثم يلقى الأسئلة ويعرض الشكوك بشأن من يطلب العلم والاستفادة بحيث ينتقل من أقوالهم إلى أقوال لازمة منها ، ولكنهم لا يسلمون بها ، فيوقعهم فى التناقض ويحملهم على الإقرار بالجهل . وهذا ما يسمى بالتهكم السقراطى ، أى السؤال مع تصنع الجهل أو هو تجاهل العلماء ، وغرضه منه تخليص العقول من العلم السوفسطائى ، أى الزائف ، وإعدادها لقبول الحق . ثم ينتقل إلى المرحلة الثانية فيساعد محدثيه بالأسئلة والاعتراضات مرتبة ترتيباً منطقياً على الوصول إلى الحقيقة التى أقروا أنهم يجهلونها ، فيصلون إليها وهم لا يشعرون ويحسبون أنهم استكشفوها بأنفسهم . وهذا هو التوليد ، أى استخراج الحق من النفس ، وكان سقراط يقول فى هذا المعنى إنه يحترف صناعة أمه — وكانت قابلة كما قلنا — إلا أنه يولد نفوس الرجال ، والأمثلة كثيرة على ذلك فى محاورات أفلاطون .

وأما فى الفلسفة فكان يرى أن لكل شيء طبيعة أو ماهية هى حقيقته يكشفها العقل وراء العوارض المحسوسة ويعبر عنها بالحد ، وأن غاية العلم إدراك الماهيات ، أى تكوين معان تامة الحد ، فكان يستعين بالاستقراء ، ويتدرج من الجزئيات إلى الماهية المشتركة بينها ، ويرد كل جدل إلى الحد والماهية ، فيسأل : ما الخير وما الشر ؟ ، ما العدالة وما الظلم ؟ ، ما الحكمة وما الجنون ؟ ، ما الشجاعة وما الجبن ؟ ، ما التقوى وما الإلحاد ؟ وهكذا . فكان يجتهد فى تحديد معانى الألفاظ

www.dvd4arab.com

بطريقة جامعة مانعة ، ويصنّف الأشياء فى أجناس وأنواع يمتنع الخلط بينهـا ، فى حين كان السوفسطائيون يستفيدون من اشتراك الألفاظ وإبهام المعانى ويتهربون من الحد الذى يكشف المغالطة . فهو أول من طلب الحد الكلى طلباً مطّرداً ، وتوسل إليه بالاستقراء وبركّب القياس بالحد .

ولقد كان لاكتشافه الحد والماهية أكبر الأثر فى مصير الفلسفة ، فقد ميز بصفة نهائية بين موضوع العقل وموضوع الحسّ ، وغيّر روح العلم تغييراً تاماً ، لأنه إذ جعل الحد شرطاً له قضى عليه أن يكون مجموعة ماهيات ونقله من مقولة الكمية حيث استبقاه الطبيعيون والفيثاغوريون إلى مقولة الكيفية ، فهو مُوْجد « فلسفة المعانى » أو الماهيات المتجلية عند أفلاطون وأرسطو والتى ترى فى الوجود مجموعة أشياء عقلية ومعقولة .

ويتساءل رسل عن السبب الذى حدا بسقراط للتعرض للمسائل الخاصة بالإنسان من حيث هو إنسان ، ولم يقدم نصائح أو أنشطة بصدد المسائل العامة . يجيب سقراط عن ذلك بقوله : « لقد سمعتمونى أتحدث فى أوقات متفرقة وفى أماكن عديدة عن الوحى أو عن العلامة التى تتبدى لى ، وعن الروح الإلهية التى يستهزئ بها ميليتوس فى اتهامه لى . هذه العلامة التى هى نوع من الصوت ، قد بدأت تتبدى لى عندما كنت طفلاً . إنها بصفة دائمة تنهانى عن الإتيان بأشياء ، ولكنها لم تكن تأمرنى بأن أُقدم على عمل أى شىء أكون معتزماً الاضطلاع به . وهذا فى الواقع هو الذى حال بينى وبين أن أصير واحداً من رجال السياسة » .

ويستمر سقراط فى القول بأنه فى مضمار السياسة لا يستطيع أى إنسان شريف أن يظل ممارساً نشاطه مدة طويلة . وهو يقدم حالتين

لم يستطع أن يتحاشى الخوض فى المسائل العامة بإزائهما : الأولى عندما أخذ فى مناهضة الديمقراطية ، والثانية لدى مقاومته للمستبدين الثلاثين ، وفى الحالتين كانت السلطات تمارس السلطة بطريقة غير شرعية .

أما موقفه بإزاء النظريات العلمية فلم يكن ليختلف كثيراً عن موقفه بإزاء الطبيعيات والرياضيات ، وفى هذا الصدد لم يبتعد كثيراً عن موقف السوفسطائيين ، فلقد آثر النظر فى الإنسان وانحصرت الفلسفة عنده فى دائرة الأخلاق باعتبارها أهم ما يهم الإنسان . وهذا معنى قول شيشرون إن سقراط أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض ، أى أنه حوّل النظر من الفلك والعناصر إلى النفس . وتدور الأخلاق حول ماهية الإنسان ، وكان السوفسطائيون يذهبون إلى أن الطبيعة الإنسانية شهوة وهوى ، وأن القوانين وضعها المشرعون لقهر الطبيعة ، وأنها متغيرة بتغير العرف والظروف ، فهى نسبية غير واجبة الاحترام لذاتها ، ومن حق الرجل القوى بالعصبية أو بالمال أو باليأس أو بالدهاء أو بالجدل أن يستخف بها أو ينسخها ويجرى مع الطبيعة .

فقال سقراط : بل الإنسان روح وعقل يسيطر على الحس ويوجهه ، والقوانين العادلة صادرة عن العقل ومطابقة للطبيعة الحقة ، وهى صورة من قوانين غير مكتوبة رسمتها الإلهة فى قلوب البشر . فمن يحترم القوانين العادلة يحترم العقل والنظام الآلهى ، وقد يحتال البعض بمخالفتها بحيث لا يناله أذى فى هذه الدنيا ولكنه مأخوذ بالقصاص العادل لا محالة فى الحياة المقبلة . والإنسان يريد الخير دائماً ويهرب من الشر بالضرورة ، فمن تبين ماهيته وعرف خيره بما هو إنسان أراده حتماً ، أما الشهوانى فرجل جهل نفسه وخيّره ولا يُعتقل أنه يرتكب الشر عمداً ، وعلى ذلك فالفضيلة علم والرذيلة جهل — وهذا قول مشهور عن سقراط يدل على

Toolob
www.dvd4arab.com

مبلغ إيمانه بالعقل وحبه للخير ، وإن كان فيه إسراف فما أجمله من إسراف كما يقول يوسف كرم .

أما برتراند رسل فإنه يقول إن اهتمامات سقراط كانت اهتمامات أخلاقية وليست اهتمامات علمية بالتأكيد . ففى محاورة الدفاع كما رأينا يقول : « ليس لى شأن بالتأملات الطبيعية » ، أما المحاورات الأفلاطونية التى قام أفلاطون بتأليفها والتى يعتقد رسل أنها مصطبغة باتجاهات سقراط الحقيقية ، فإنها كانت مركّزة بالدرجة الأولى على البحث فى تقديم تعريفات للألفاظ الأخلاقية . وتنصب محاورة تشارميدز Charmides على تعريف الاعتدال أو عدم التطرف . أما محاورة ليوكيبوس Leucippus فإنها تتناول الصداقة ، ومحاورة لاتشز Laches تتناول الشجاعة . وفى جميع هذه المحاورات لم ينته سقراط إلى تعريفات نهائية ، ولكنه أوضح بجلاء أنه من الأهمية بمكان أن يقوم المرء بتفحص تلك المسائل .

أما سقراط المشبع بطابع أفلاطون فيما كتبه عنه ، فإنه ظل يؤكد باستمرار أنه لا يعرف شيئاً ، وأنه أكثر حكمة من الآخرين ، لا لشىء إلا لأنه يعرف أنه لا يعرف شيئاً ، ولكنه لا يعتقد أن المعرفة غير ممكنة الإحراز ، بل إنه على العكس من ذلك يعتقد أن البحث عن المعرفة على أكبر جانب من الأهمية . وهو يعتقد أن أى إنسان لا يستطيع أن يقترف إثماً بإرادته ، ومن ثَمَّ فإن المعرفة وحدها هى ما يحتاج إليه الناس حتى يصيروا جميعاً فضلاء بمعنى الكلمة .

والواقع — كما يعتقد رسل — أن ثمة علاقة حميمة فيما بين الفضيلة والمعرفة عند كل من سقراط وأفلاطون . وهذه العلاقة الحميمة توجد إلى حدٍّ ما فى الفكر اليونانى بأسره ، على عكس المسيحية . فالأخلاق

فى المسيحية ترتكز على نقاء القلب ، ومن ثَمَّ فإنها يمكن أن تتوافر بين الجهلة والمتعلمين على السواء . والواقع أن هذا التباين فيما بين الأخلاق اليونانية والأخلاق المسيحية ظل مستمراً عبر الأجيال حتى وقتنا هذا .

أما بالنسبة للديالكتيك ، أعنى طريقة البحث عن المعرفة بواسطة السؤال والجواب ، فإنه ليس من ابتكار سقراط على حدّ قول رسل . فيبدو أنه كان ممارَساً بشكل منهجى واضح عند زينو Zeno تلميذ بارمنيدس . ففى محاورة أفلاطون المسماة بارمنيدس ، فإن زينو يضع سقراط أمام نفس النوع من المعالجة ، كما يعرض سقراط لنفس المنهج بإزاء الآخرين . ولكن مما لا شك فيه أن سقراط قد امتد بهذا المنهج الديالكتيكى . وكما سبق أن رأينا فعندما حكم على سقراط بالموت . فإنه أخذ يتأمل بسعادة ما ينتظره فى الحياة الأخرى حيث سوف يكون بمستطاعه أن يتساءل إلى ما لا نهاية بدون قيد أو شرط ، وأنه لا يمكن أن يموت عقلياً ، إذ أنه سوف يكون شخصاً خالداً . ومن المؤكد أنه إذا كان قد مارس الديالكتيك بالطريقة التى عرضها أفلاطون فى محاورة الدفاع ، فإننا ندرك حقيقة الكراهية التى أبداها له الشعب الأثينى ، وبخاصة حثالة الجمهور الذى اتحد ضده .

ومما لا شك فيه أن الديالكتيك يمكن أن يكون ذا فاعلية بإزاء بعض المسائل ، ولكنه يكون بلا جدوى إذا ما استخدم بإزاء مسائل أخرى . ولقد تكون الطريقة الديالكتيكية قد ساهمت فى تحديد طبيعة المسائل التى كان أفلاطون يبحثها ، وهى المسائل التى كانت قابلة فى غالبيتها لأن تبحث بهذه الطريقة . غير أنه من خلال المسائل الفلسفية التى تناولها الفلاسفة من بعده صارت مفيدة بالحدود الضيقة التى تأتت عن هذه الطريقة الديالتيكية .

Taqeem
www.taqeem.com

ومما لا شك فيه أن ثمة بعض المسائل لا يصح لها أن تعالج بهذه الطريقة . من ذلك مثلا المسائل المتعلقة بالعلم التجريبى . صحيح أن جاليليو قد استخدم الديالوج فى الدعوة لنظرياته ، ولكن هذا لم يكن إلا لمجرد التغلب على النزعة التحيزية . بيد أن الركائز الإيجابية لمكتشفاته لم يكن لها أن تقحم فى ديالوج إلا بطريقة تعسفية . والواقع أن سقراط فى أعمال أفلاطون كان يزعم دائماً أنه لم يكن أكثر من مستنبط للمعرفة التى سبق أن حازها الشخص الذى يسأله بالفعل ، وعلى هذا الأساس فإنه كان يشبِّه نفسه بالقابلة . وعندما استخدم منهجه كما ورد بمحاورة فايدو **Phaedo** ومحاورة مينو **Meno** بصدد المسائل الهندسية ، فقد كان عليه أن يقدم أسئلة تمهيدية لا يمكن أن يسمح بتوجيهها أى قاض . فهذا المنهج ينسجم مع مذهب الاستدعاء التذكرى ، الذى بمقتضاه نتعلم بأن نتذكر ما سبق أن كنا نعرفه فى وجود سابق على وجودنا الحالى . وفى مقابل هذه النظرة ، فإن عليك أن تتناول أى اكتشاف قد تم التوصل إليه بواسطة الميكروسكوب مثل انتشار الأمراض بواسطة البكتريا ، فإنك لا تستطيع أن تقول إن تلك المعرفة كان من الممكن التوصل إليها بأن تحاور شخصاً جاهلاً بها بواسطة الديالكتيك ، أعنى السؤال والجواب .

فالمسائل التى تناسب طريقة سقراط فى المعالجة هى تلك المسائل التى يكون لدينا معرفة كافية بالفعل عنها ، حتى يتسنى أن نصل إلى استنتاجات صحيحة بلزامها . ولكننا نكون قد فشلنا فى التوصل إلى أفضل حقائق منطقية مما نعرفه بالفعل بسبب تشوش الفكر أو بسبب الافتقار إلى التحليل . فمن تلك الأسئلة التى تتناسب مع هذه الطريقة الديالكتيكية سؤال كهذا : « ما العدالة » . فهذا السؤال يمكن مناقشته بهذه الطريقة الديالكتيكية . فنحن جميعاً نستخدم دون تقيد كلمتى «عادل» و «ظالم» .

ولكن إذا نحن قمنا بتفحص الطرق التى نستخدمهما فيها ، فإننا نستطيع بالاستنتاج أن نصل إلى تعريف هو أفضل تعريف سوف يناسب استخدامنا لها . وكل المطلوب هو أن نكون على علم بكيفية استخدام الكلمات التى يتضمنها التساؤل . بيد أننا عندما ننتهى من تساؤلنا ، فإننا لا نكون قد تجاوزنا مجال الاكتشاف اللغوى أو اللفظى ، ولا نكون قد قمنا بأى اكتشاف يتعلق بالسلوك الخلقى كما يزعم سقراط .

ومهما يكن من شىء ، فإن لسقراط الفضل فى شق خط جديد للفلسفة ، وقد انتشرت ركائزه الفلسفية فى أنحاء متباينة . ولكن لا شك أن الثروة العظمى للفلسفة السقراطية قد تبددت فى فلسفة تلميذه أفلاطون . أما باقى تلاميذه فإنهم تشتتوا فى الأنحاء وكوَّن كل منهم مدرسة جديدة ذات طابع جديد وإن كان بكل منها مِسْحة من فلسفة أستاذهم سقراط . فتوجه إقليدس إلى ميغارى ، وأنشأ هناك المدرسة الميغارية ، ولحق به أفلاطون وقضى معه زمناً غير يسير . ورحل أرستبوس إلى صقلية ثم عاد إلى وطنه قورينا وأنشأ المدرسة القورينائية . وأسس انتستان فى أثينا المدرسة الكلبية ، وكان لهذه المدارس شأن لا يمكن الإغضاء عنه أو تجاهله .

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

الفصل السابع عشر

افلاطـــون

PLATO

(٤٢٧ – ٣٤٧ ق م)

ولد أفلاطون فى أثينا أو فى أجينا (أهم مدن الجزيرة المسماة بهذا الاسم) فى أسرة عريقة الحسب ، كان لبعض أفرادها المقام الأول فى أثينا . وينتسب أبوه إلى جودروس ، كما أن أمه كانت ذات قرابة بسولون . فهو كان قريباً لكارميدس وكريتياس اللذين ذكرهما مراراً فى محاوراته ، وأطلق اسميهما على شخصيتين أساسيتين بها . وهكذا نجد أن أفلاطون قد قضى صباه وشبابه فى بيئة أرستقراطية ، وفى بيت كانت له اهتمامات بالأدب والفلسفة ، كما كان يقضى العرف بذلك . وحيث إنه كان ابناً لأسرة ثرية فمن المحتمل أنه خدم فى سلاح الفرسان .

وجرياً وراء التقاليد اليونانية ، فإنه أخذ قسطاً من التدريبات الرياضية ، ويقال إنه تسمى باسم أفلاطون بسبب اتساع صدره بفضل ممارسته للألعاب الرياضية ، وقد كان اسمه قبل ذلك أرستوقلس على اسم جده . وكان من المتوقع أن يصير أفلاطون واحداً من الشعراء والسياسيين اللامعين بفضل مواهبه التى برزت فى سن مبكرة حيث قام بقرض بعض القصائد الغنائية والحماسية . والواقع أن تحولاً حاسماً قد حـدث فى مجرى حياته لدى تعرفه بسقراط ، وكان ذلك فى سنّ العشرين ، فحمله اعتزامه تكريس جهده للفلسفة على إحراق ما كان

قد بدأه من تأليف لبعض التراجيديات . وقبل ذلك كان قد قام بدراسة أعمال الفلاسفة الآخرين .

ولاشك أن عكوفه على الأدب كان بالنسبة له مدخلاً طبياً إلى الفلسفة . فلقد قرأ شعراء اليونان وعلى الخصوص هوميروس ، ونَظَم الشعر التمثيلى ، ثم أقبل بعـد ذلك على العـلوم ، وأظهر ميلاً خاصاً لدراسة الرياضيات . ثم تتلمذ على يد أقراطيلوس أحد أتباع هرقليطس واطلع على كتب الفلاسفة السابقين والمعاصرين ، وكانت متداولة فى الأوساط العلمية . وفى سن العشرين ذهب به شقيقاه الأكبران أديمنت وأغلوقون (وهما محدثا سقراط فى « الجمهورية ») وبعض أقربائه إلى سـقراط ، وكان هؤلاء يختلفون إليـه وإلى السوفسطائيين ورائدهم الاستطلاع واللهو بالجدل . ولكن أفلاطون أعجب بمنهج سقراط فلزمه . وما كاد يبلغ الثالثة والعشرين حتى أراد نفر من أهله وأصـدقائه – وقد اغتصبوا الحكم بمساعدة اسبرطة – أن يقلدوه « أعمالاً تناسبه » ، ولكنه آثر الانتظار . وطغى الأرستقراطيون وبغوا وأمعنوا فى خصومهم نفياً وتقتيلاً ومصـادرة لممتلكاتهم ، ثم انقسموا عـلى أنفسهم فملأوا المدينة فساداً وأفعموا قلبه غماً . ولما هزمهم الشعب وقامت الديموقراطية أنصفت المظلومين بعض الإنصاف ، فأحس رغبة فى السياسة يبغى المعاونة على تأييد العـدالة وتوفير السعادة . ولكن الديموقراطية أعدمت سقراط ، فيئس أفلاطون من السياسة وأيقن أن الحكومة العادلة لا تُرتجل ارتجالاً ، وإنما يجب التمهيد لها بالتربية والتعليم . فقضى حياته يفكر فى السياسة ويمهد لها بالفلسفة . ولم تكن له قط مشاركة عملية فيها .

ويبدو أن الوصف الذى قدمه أفلاطون فى الجمهورية بالفصل السادس الخاص بالشاب الموهوب الذى نشأ فى بيئة غنية ومتميزة وهو

Lecture

يقاوم إغراءات أقربائه ، فرفض تولى الوظيفة المرموقة التى عرضوها عليه فى سبيل أن يكرس نفسه للفلسفة ، كان سيرته الذاتية كما هو واضح من وصفه . ولقد كان لارتباطه بسقراط الفضل فى إنقاذه من التردى فى قبضة النزعة الهرقليطية المزعزعة، وجعله واقفاً على أرض صُلبة . فبفضل سقراط تعلم أن يوجه انتباهه إلى الأخلاق ، كما أنه تنبه بواسطة قريب له إلى ما يعتور الديمقراطية الأثينية من جوانب نقص . أما الخبرة الثانية التى أثّرت إلى أبعد حد فى شخصية أفلاطون، فقد كانت إعدام أستاذه سقراط . فتلك الواقعة فتحت عينيه على أن من المستحيل مساعدة الدولة المتدهورة والمصابة بالسقم بمجرد إدخال التعديلات على دستورها ، بل لابد من إحراز مفهوم جديد تماماً فيما يتعلق بالسياسة يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتربية الخلقية للشعب . فعن طريق ذلك فحَسْب يمكن إحراز التقدم . وهكذا نبتت لديه الفكرة وأخذت تنضج شيئاً فشيئاً بأن يكون هو نفسه المصلح الأخلاقى والسياسى لشعبه كما كان شأن سولون أو ليقورغ .

من هنا فإنه توجه بعقله شطر إسبرطة باعتبارها مثالاً للكومنولث . ويعتقد برتراند رسل أن أفلاطون كان حائراً على فن تقديم الأفكار غير التحررية على نحو يتسنى بواسطته أن يخدع أجيال المستقبل التى أعجبت بالمحاورات التى وردت فى الجمهورية دون أن يدركوا ما تتضمنه المقترحات التى اشتملت عليها من قيود للحرية . فلقد ظل الناس معجبين بأفلاطون دون أن يفهموا مقاصده . ورسل يعترض على أفلاطون فيما ذهب إليه . فهو يقول إنه يرغب فى فهمه، ولكنه لايستطيع أن يُكِنّ له كثير احترام بفرض أنه داعية إنجليزى أو أمريكى معاصر يدعو إلى الحكومة الشمولية totalitarian .

وفى البداية فإن إعدام سقراط قد حمل أفلاطون على الرحيل إلى الخارج إلى إقليدس فى ميجارا . وبعد أن عاد إلى أثينا كرّس حوالى عشر سنوات لتأليف أعمال فلسفية كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بخطوط فكر سقراط . ويحتمل أنه بدأ فى تلك الفترة نشاطه كمعلم ، وكان عدد تلاميذه محدوداً فى بداية الأمر . ويبدو أنه لم يستمر فى ذلك بسبب نشوب الحرب الكورنثية التى اشترك فى إحدى حملاتها . ولا بد أنه أحس بالحاجة إلى توسيع دائرة خبرته ، وإلى تعميق عقله بالسفر إلى العالم الواسع . وشأنه شأن جده سولون وشأن طاليس وديموقريطس وهيكاتيوس وهيرودوت . فقد قام أفلاطون برحلات إلى مصر وإلى عالم الرياضيات الشهير ثيودور فى كيرين وإلى فيثاغورين تارنتم، ولابد أنه تعرف بفيلولاوس وأرشيتاس، ولقد وجد فى هذا الأخير مثلاً أعلى يجمع بين الفلسفة والعلم والسياسة .

ولاشك أن الانطباعات التى تلقاها من هؤلاء الفيثاغوريين المتأخرين كانت ذات أهمية بالغة فى تطوراته الفلسفية التالية ، كما أنها تشير إلى تحوُّل حاسم فى فكره الفلسفى . ولقد كان للصلة الحميمة بين أركيتاس وسيراقوس الفضل فى حمايته من أن يقدم إلى محكمة ديونيسياس الأول ، وهى المحكمة التى كان يقدم إليها من كانوا يرتبطون بديونيسياس مثل أيشينز وأرستبس . ومن المؤكد أن أفلاطون كان يأمل فى إحالة أفكاره السياسية إلى واقع ممارس عملياً فى التطبيق السياسى ،وذلك بأن يحظى بإقناع ذلك الأمير . وسرعان ما اتضح له أن الجمع بين شخصية السياسى الممارس للسياسة والمثالى الأخلاق لا ينسجمان بعضهما مع بعض . على أن أفلاطون ارتبط بصداقة حميمة مع نسيب ديونيسياس دون أن يعكر صفوها معكر سوى قتل ذلك الشاب بطريقة عنيفة .

Loogo

فهرب إلى صقلية حيث وقف على مسرحيات سوفرون وكوميديات أبيكارموس وأحبها ، وقد عملت على صقل موهبته فى تقديم صور كاريكاتورية فى كتاباته . وفى طريق العودة نزل أفلاطون فى أجينا التى كانت فى حرب مع أثينا . فألقى القبض عليه وأحضر إلى سوق النخاسة ، ولكن صديقه كيرينايك أنيكيريس دفع الفدية وحرره . ولقد رفض هذا الصديق قبول مادفعه فى الفدية من أفلاطون ، فما كان من أفلاطون إلا أن اشترى حديقة قريبة من مزار البطل أكاديموس ، وشيد عليها مدرسته وأطلق عليها اسم الأكاديمية .

وبعد أن تغير حاكم صقلية ، قام أفلاطون بزيارتين أخريين للجزيرة ، وكانت زيارته الأولى عام ٣٦٧ أملاً فى أن يقنع الأمير الجديد ديونيسياس الثانى بأفكاره ، بيد أن زيارته هذه قد باءت بالفشل. ويبدو أن هذا كان فى الوقت الذى قام أفلاطون فيه بتأليف « مقدمة القوانين »، وهو العمل الذى أدرجه فى عمله الأخير . أما زيارته الأخيرة لجزيرة صقلية فقد كانت بقصد تقديم خدمة لصديق له . فكان يقصد بتلك الزيارة استرداد صديقه ديو الذى كان قد نفى من البلاط ، وقد عقد مصالحة بينه وبين ديونيسياس . ومنذ ذلك الوقت وبخاصة بعد مقتل ديو ، فقد أفلاطون كل أمل فى تطبيق خططه السياسية ، وكرس بقية حياته للتدريس والكتابة حتى وفاته بعد أن بلغ من العمر ثمانين سنة . وبعد موته مباشرة حيكت أسطورة حول شخصيته زاعمة أنه ابن أبوللو .

وكان من الطبيعى أن يكون تعليم أفلاطون لتلاميذه فى الأكاديمية التى أنشأها فى عام ٣٨٧ فى أبنية تطل على بستان أكاديموس ، فسميت لذلك بالأكاديمية . وقد كانت بمثابة جمعية دينية علمية وكرسها لآلهات

الشعر وأقام فيها معبداً . ونزل لها عن الأبنية ومحتوياتها . وظل يعلم فيها ويكتب أربعين سنة ماخلا فترتين قصيرتين سافر خلالها إلى سراقوصة. ولاتوجد أخبار مفصلة عن الأكاديمية ، ولكنا نعلم أن مستمعيه كانوا خليطاً من الأثينيين ، ويونان الجزر ، وتراقية وآسيا الصغرى ، بينهم بضع نساء . ونستطيع أن نقول إن الحركة العلمية كانت عظيمة ، وأن دروس المعلم كان يتخللها ويعقبها مناقشات فى جلسات متوالية تتعارض فيها الآراء وتتمخض على النحو الذى نشاهده فى المحاورات المكتوبة ، وكان التعليم يتناول جميع فروع المعرفة ، وكان إلى جانب أفلاطون وتحت رئاسته عدد من العلماء ، كل منهم مختص بمادة ، ويشرحون الرياضيات والفلك والموسيقى والبيان والجدل والأخلاق والسياسة والجغرافيا والتاريخ والطب والتنجيم . فكانت المدرسة جامعة وعت تراث اليونان العقلى من هوميروس إلى سقراط . وكانت وفاة الفيلسوف فى أثناء حرب فيلبوس المقدونى على أثينا، فلم يشهد ما أصاب وطنه من انحطاط لم تقم له من بعده قائمة .

وكان أفلاطون يقدس عملية الاتصال المباشر مع تلاميذه بالأكاديمية. ولعل المحاورات تكون بمثابة قَبَس من تلك الأحاديث والمحاورات التى كانت تدور بين الأستاذ وتلاميذه . ويبدو أن الأكاديمية قد ضربت فى إثر النظام الفيثاغورى وماكان ينشأ من أحاديث بين فيثاغورس وتلاميذه . وكانت المحاضرات والمناقشات تبدأ فى ساعة مبكرة من الصباح . وكان تلاميذه يعيشون فى بيوت مبعثرة فى حديقة الأكاديمية ولكى يضبط أفلاطون الوقت ، فإنه قام بنفسه بتشييد ساعة مائية تصدر صوتاً موسيقياً يدعو التلاميذ للالتئام بحجرة المحاضرات . وكذلك فإنهم

Looloo
www.dvd4arab.com

كانوا يجتمعون بشكل غير رسمى حول موائد الطعام ، كما كانوا يسهمون شهرياً فى النفقات .

وبهذا فإننا نستطيع أن نفهم كيف كان أفلاطون يفهم الشركة بين الأستاذ وتلاميذه ، وكيف كان له الفضل فى تنظيم الفلسفة حول مسائل تأملية ومعرفية وخلقية وسياسية . وبينما كان اهتمام أفلاطون بالدرجة الأولى بالرياضيات والفلك ، فإنه وجه اهتماماً أقل إلى العلوم الوصفية ، كعلم الحيوان وعلم النبات . ولم تكن الأكاديمية موصدة فى وجه غير الأثينيين ، بل فتحت أبوابها للعديد من الأجانب . ولم يتخرج فيها فلاسفة فحسب ، بل تخرج فيها أيضاً رجال سياسة وقادة عسكريون .

ويرى زيلر أن تعاليم الأكاديمية استمرت تضرب فى إثر الخطوط الفيثاغورية كما أرسى دعائمها أفلاطون ، وإن كانت قد تباينت فى كثير من التفاصيل . ولقد تولى رئاسة الأكاديمية ابن أخته سبيوسيبس (٣٤٧ — ٣٣٦) . فلقد أناط سبيوسيبس أهمية أكبر للإدراك الحسى مما أناطه أفلاطون ، ولكنه اشترط أن تكون الملاحظات أو المدركات خاضعة للطريقة العلمية . وفى عمله الرئيسى بإزاء الأرقام الفيثاغورية التى أقامها كما يبدو على أساس الأشكال المكتوبة ، فإنه أحل الأرقام الرياضية محل الأفكار ، وذلك لأنه نظر إليها باعتبارها منفصلة عن الأشياء المحسوسة .

ولقد ميز عشرة عناصر تمثل للمستويات العشرة من الوجود :

(١) العنصر المطلق . (٢) الكثرة المطلقة . (٣) العدد وبخاصة رقم ٣ وذلك لأنه حاصل على جمع ١ و ٢ وهو بذلك يكون أصغر كمية . (٤) الامتدادات المكانية الهندسية (النقطة والخط والسطح والكتلة) . (٥) الأجسام الكونية التى تدركها الحواس

(أعنى العناصر الخمسة التى تتخذ شكل المجسمات العادية) . (٦) الكائنات الحية (النباتات والحيوانات والبشر والجن وآلهة الكواكب السبعة والإله غير المرئى) . (٧) الفكر . (٨) الغريزة أو الرغبة .

(٩) الحركة (فى نطاق الأنواع التسعة منخفضة المستوى) .

(١٠) الخير ، وهو الكمال فى حالة الراحة .

ويعتقد سبيوسيبس أن الأرقام الرئيسية هى فى الوقت نفسه المبادئ الأزلية للأشياء وهى مراحلها فى التطور . وكان يعتقد أن ما هو أفضل وما هو فى منتهى الكمال لا يكمن فى البداية ، بل يكمن فيما يتطور إليه بعد البدء . وهو يعتقد أن العالم أزلى أبدى ، وأن ما ذكره أفلاطون عن الخلق كما ورد فى تيماوس قد قصد به تحقيق أهداف تعليمية ليس إلا كما يفعل المرء عندما يقوم برسم أشكال رياضية . أما بالنسبة للخلود الروح فإنه يؤيد خلودها حتى بصدد الأجزاء المنحطة منها . والسعادة تعتمد على السلوك الخلقى السليم . والسلوك الخلقى السليم يتشكل من اتباع الطريقة الطبيعية للحياة . بيد أنه لم يقل إن اللذة خير وأناط القيمة لما له فائدة سواء فى إحراز الثروة والصحة . وهو ينظر إلى الآلهة الشعبية باعتبارها قوى طبيعية وقد جلب عليه ذلك الاتهام بالإلحاد .

وبعد سبيوسيبس صار اكسنوقراط رئيساً للأكاديمية واستمر مسئولاً عنها لمدة ربع قرن (من ٩٣٣ إلى ٣١٤) ، وكان رجلاً نقى السريرة وذا خلق شريف ، ولكنه كان ذا مزاج سوداوى ، وكان كثير الإنتاج الفلسفى ، فكان بحق هو الممثل الرئيسى للمدرسة الأكاديمية . ويبدو أنه كان أول من قسم الفلسفة إلى فروعها الثلاثة الرئيسية وهى الديالكتيك والفيزياء والأخلاق . ولقد استمد نظريته حول المقومات الأساسية للأشياء من الفيثاغوريين .

Looloo
www.dvd4arab.com

وبعد اكسينوقراط تولى رئاسة الأكاديمية فيلبس الذى كان عالم رياضيات أكثر منه فيلسوفاً ، ثم تلاه كرانتون . وظلت الأكاديمية مخلصة للنزعة الثنائية بإزاء العالم والإنسانية على النحو الذى استمده أفلاطون من الفيثاغوريين مع تباين التفاصيل التى تقلبت عليها .

مؤلفاته :

لقد كان أفلاطون أكثر حظاً من معظم الفلاسفة القدامى الذين سبقوه. ذلك أن معظم ما قام بكتابته ظل موجوداً خلافاً لمؤلفات طاليس وهرقليطس وأنبادقليس وبارمنيدس وديموقريطس وأناكساغوراس . فكل ما تبقى من كتابات أولئك الفلاسفة لا يعدو شذرات وقطع صغيرة من شيء كان ذات يوم كلاً متكاملاً . والواقع أن الباحثين يحاولون أن يضموا هذه الشذرات بعضها إلى بعض حتى يتسنى لهم فهم الكل . والواقع أن الفلاسفة فى ذلك الوقت كانوا يؤلفون أعمالهم فى كتب ضخمة .

ومما لا شك فيه أن مؤلفات أفلاطون تعتبر أكثر أهمية من مؤلفات الفلاسفة الذين سبقوه ، وذلك لأنها تجمع بين خصائص الشعر الأصيل والفن الراقى ، وبين عمق الفكر الفلسفى . ذلك أن أفلاطون كان يجمع بين الحس والذوق الفلسفى وبين الأسلوب الرفيع والتحكم فى القلم . ومن المعروف أن أفلاطون يختلف عن تلميذه أرسطو فى أنه لم يستبعد الإحساس الوجدانى الفنى من اللغة العلمية الفلسفية . ولقد يكون هذا هو السبب فى أن أفلاطون يخلب الألباب . فهو وإن كان فيلسوفاً أصيلاً فاهماً لما يتسم به العلم والفلسفة من بُعْد فى الأغوار ودقة فى المعانى ، فإنه كان فى الوقت نفسه قادراً على تقديم القصة الممتعة وقرض الشعر المفعم بالإلهام .

ويظهر من كتابات أفلاطون التى قضى فى تأليفها حوالى خمسين عاماً ، أنها تتباين من حيث الصياغة والمضمون . وتتحدد طبيعة كل عمل منها فى ضوء مرحلة النمو الفلسفى التى قيضت له وقت تأليفها ، وما كان يهدف إليه من تأليفه . ولقد ترك لنا الفيلسوف ثلاثة وعشرين محاورة ، وحديثاً بعنوان « الدفاع » Apology . وثمة أحدى عشرة محاورة وثلاث عشرة رسالة منسوبة إلى أفلاطون أجمع النقاد على أن الكثير منها غير مشكوك فى صحة نسبه إليه . وثمة عدد من المحاورات قد استبعدت منذ زمن بعيد من قائمة مؤلفاته بسبب الشك فى صحة نسبها إليه ، ولكنها ما تزال مدرجة فى نطاق أعماله الكاملة .

ولقد تأكد أن من الصعوبة بمكان تحديد الأعمار التى قام خلالها أفلاطون بتأليف محاوراته . ولذا فقد قسمت تبعاً لفترات تقريبية كان يبدع خلالها . وأقدم فترة تبدأ بموت سقراط وتنتهى مع قيام أفلاطون برحلته الأولى إلى صقلية ، أعنى من عام ٢٩٩ ق م حتى عام ٣٨٩ أو عام ٣٨٧ ق م . وفى أثناء هذه الفترة قام الفيلسوف بكتابة « الدفاع » وكريتو وبروتاغوراس والجزء الأول من الجمهورية .

ولقد تضمنت كل محاورة فى هذه الفترة مناقشة لبعض المسائل الأخلاقية مثل : ما الفضيلة ؟ وما الخير ؟ وما الشجاعة ؟ ومعنى احترام القانون ، ومعنى حب الوطن ، وهى الموضوعات التى كان سقراط يحب أن يقوم بمناقشتها . ولقد وقع اختيار أفلاطون على الطريقة الحوارية فى سَوْق محاوراته ، وذلك لأنها تسمح له بأن يضمّنها أقوال سقراط الشهيرة فى صياغة أدبية حيثما كان بمقدوره أن يقدم الأسئلة ويبحث لها عن إجابات فى محاولة لتحديد مفاهيم خلقية معينة ، وبعد ذلك كان يجمعها وفق ترتيب معين ليَخْلُص منها إلى تعميمات . ولقد كان

Loolod www.Loolod.com

أفلاطون معجباً جداً بسقراط ، وظل فى جميع مؤلفاته حتى النهاية يذكر سقراط ويصفه بأنه المعلم العظيم والمجادل المحنّك .

وإنه لمن الصعب أن نقوم بتحديد المراحل التى تضمنتها حياة أفلاطون الإبداعية ، وذلك لأن بعض مؤلفاته يبدو ذا طبيعة انتقالية . وهذا هو السبب الذى استدعى أن يطلق على العديد من محاوراته التى كتبها خلال الثمانينيات من القرن الرابع ق م اسم المؤلفات الانتقالية. وفى هذه الأعمال نجد أن أفلاطون يستخدم سقراط لكى يعبر على لسانه عن آرائه الشخصية التى نضجت فى الأكاديمية ، وهى الأعمال التى تعكس آراءه بإزاء مسائل أخلاقية ومسائل سقراطية لم تصدر عن سقراط فى الواقع .

وهكذا نجد أن سقراط قد صار فى هذه الأعمال مصطبغاً بصبغة أفلاطون وممثلا لفكر أفلاطون المستقل عن فكر أستاذه . فالمناقشة هنا ما تزال دائرة حول سقراط يوجهها ، ولكنه هنا يجادل السوفسطائيين ويهاجمهم ، متهماً إياهم بالافتقار إلى الحقيقة الوضعية وبالانتحاء إلى البلاغة التى لا تعتمد على مبدأ ، ويجابه براهينهم بمقولته المتنامية تدريجياً فيما يتعلق بالأفكار الأزلية التى لا تقبل التغير فى وسط الوجود العالمى الزائل . فسقراط — كما يصوره أفلاطون — يدافع عن ثبات العالم ويدحض آراء كراتيلوس الذى ضرب فى إثر هرقليطس ، ويشجب أفكاره المتعلقة بالتحول الشامل للكون الذى لا نهاية له . ويتضح هنا تأثير أصدقاء أفلاطون من الفيثاغوريين ومذاهبهم المتعلقة بالتناسخ وقَدَر الإنسان بعد الموت . وهكذا نجد أن تأكيد أفلاطون فى محاوراته الأولى على الفكر والأخلاق قد أخذ يُخلى مكانه تدريجياً للمناقشات المتعلقة بالأفكار المجردة .

وكلما كان أفلاطون يقوم بتطوير فكره الفلسفى الخاص به ، كانت محاوراته تعكس أكثر فأكثر أسلوبه الشخصى وطريقة تفكيره الخاصة. وخلال مرحلة النضج فى حياته الإبداعية — وهى التى تحتل بداية النصف الثانى من القرن الرابع قبل الميلاد ، وذلك عندما قام برحلتيه الثانية والثالثة إلى سراقوصة ، وكان قد بلغ فى الرحلة الثانية ستين عاماً ، وفى رحلته الثالثة سبعين عاماً — فإننا نلاحظ أن أعمال أفلاطون قد صارت متّسمة بفكر فلسفى على جانب متميز من الدقة والإبداعية ، وبرؤية فنية واضحة . فصارت أعماله تمثل جوهر ما ذهب إليه بإزاء المُثُل باعتبار أن لها وجوداً ذا أشكال أعلى من الوجود الذى يحدد طبيعة الواقع المادى . فمحاورات هذه الفترة تتسم بأنها تتضمن فى طياتها فكراً مجرداً صعباً ووصفاً تفصيلياً للمثل . فهى تعبر عن اكتمال نضجه الفنى بشكل واضح.

وعندما بلغ أفلاطون الشيخوخة فى العقد الخامس من القرن الرابع قبل الميلاد ، قام بكتابة عمله الرائع «القوانين» يصف فيه شكلاً للحكومة يختلف عن المجتمع المثالى الذى عرض لتفاصيله فى الجمهورية . فهذه الحكومة تبعاً لما ذهب إليه الفيلسوف قريبة من فهم المرء ، ويمكن تحقيقها عملياً . وعلى الرغم من أن كتاب « القوانين » يعتبر عادة ضمن المحاورات ، فإنه يمثل فى الواقع تأملات أفلاطون بإزاء التجسيد العملى الصِّرف للأفكار المتسامية الخاصة بالمثل فى شئون الإنسان الأرضية وفى المسائل التى تخصه من الناحية العملية .

والواقع أن أفلاطون لم يكتب سوى مسودة للقوانين قبل وفاته ، ثم قام واحد من أخلص تلاميذه يسمى فيلبس بصياغة هذا العمل فى صورته النهائية. ومات أفلاطون ولكن أفكاره ظلت حية لآلاف السنين.

www.dvd4arab.com

ويعتبر أفلاطون من أوائل الفلاسفة الذين عبر واعن المفاهيم الأساسية المتعلقة بالمثالية الموضوعية ، وقد قدمها بشكل متكامل . وهكذا نجد أن اسم أفلاطون قد صار رمزاً للمثالية ، بينما صار اسم ديموقريطس رمزاً للمادية .

الديالكتيك أو نظرية المثل :

إن كلمة « ديالكتيك » كانت تعنى فى الأصل « قيادة المناقشة » ، ثم تطور معناها إلى فن تقديم معرفة علمية بواسطة السؤال والجواب ، وانتهت أخيراً إلى أنها فن إحراز المرء للتصور العقلى لما هو موجود . وهكذا صار لفظ ديالكتيك يشير إلى نظرية فى العلم ، أعنى وسيلة لمعرفة الفحوى الحقيقية للأشياء . لقد كان سقراط ينشد معرفة الخير ولكنه لم يصل إلى حل حاسم لما نشده . وكذا فإن أفلاطون قد شغل نفسه فى البداية بالمسائل الأخلاقية المتعلقة بالفضائل المنفصلة بعضها عن بعض ، ولكن دراسته للفضائل انتهت به إلى الوقوف على وَحْدة الخير ، وطالما أن الخير قد صار على يديه موضوعاً للمعرفة ، لزم عن ذلك إذن تساميه عن نطاق الآراء الشخصية . فهو لا بد أن يكون شيئاً محدداً وحقيقياً وغير قابل للتغير . وهذا يصدق أيضاً لا بإزاء الخير فحسب ، بل وبإزاء كل شىء يمكن أن يكون موضوعاً للمعرفة .

وفى ضوء هذا فإن ما ذهب إليه هرقليطس بإزاء عالم يدخل فى مجال الوجود ثم يتوقف عن الوجود مع ما يصيبه من تغير أبدى ، لا يمكن أن يصير موضوعاً للمعرفة . ومن ثم لا بد أن يكون هناك عالم آخر شبيه بالموجود الرئيسى الذى قال به بارمنيدس يقدم الاستجابة لمطلبىْ الديمومة والتماسك بغير عطب ، وهما المطلبان اللذان بدونهما

لا تقوم قائمة للمعرفة . ويرى أفلاطون أن العالم الأول هو عالم المدركات الحسية ، أما العالم الثانى فهو عالم الفكر . والفكر يركّز انتباهه على ما هو علم وليس على ما هو خاص فى الأشياء ، أعنى أنه يركز الانتباه على ما هو مشترك فيما بين جميع الأشياء التى تنتمى إلى « نوع » من الوجود . وهكذا نجد أن صفة الوجود الدائم والجوهرى لا تعزى إلى أى شىء منفصل ، بل تعزى فقط إلى ما يشترك مع الأشياء الأخرى المنتمية إلى نوعه . وهذه الخاصية المشتركة أطلق عليها أفلاطون اسم المثال idea وقد سماها أرسطو المفهوم Concept .

يقول أفلاطون فى هذا الصدد : « إننا نذهب إلى أن تكون فكرة ما موجودة عندما نطلق نفس الاسم على أشياء منفصلة كثيرة » . والواقع أنه فى ضوء الرياضيات تتضح الصورة المعزّوة إلى شكل الأشياء على نحو جلىّ . فشكل المربع مثلاً يتحدد تماماً بغير أدنى تغير مهما كان عدد الأشخاص الذين يتخيلون شكل المربع . فجميع المربعات الفردية لا يختلف اثنان على أنها مربعات . بيد أن الأشكال الفعلية للمربعات تنتمى بالطبع إلى عالم الحواس .

وهكذا تكون الرياضيات قد احتلت مركزاً وسطاً بين عالم الحواس وبين عالم الحقيقة . ومن ثم يرى أفلاطون أن الطبيعة غير الحسية للأشياء هى فقط الحقيقة بمعنى الكلمة . وهى الحقيقة التى ينبغى أن نميزها من ظواهرها المحسوسة . فالأفكار أو المثل عند أفلاطون ليست مجرد موضوعات تتعلق بالفكر كما ذهب إلى ذلك انتستين Antisthenes ، بل هى حقائق موجودة بالفعل . فثمة مثال لكل شىء كائناً ما يكون ، وهذه المثل لا تمثل الأشياء فحسب ، بل تمثل الصفات أيضاً والعلاقات والأنشطة ، وهى لا تمثل الأشياء الطبيعية فحسب بل تمثل أيضاً

Looloo
www.vl4.com

نتاجات الفن . ولا تمثل الأشياء القيمة فحسب ، بل تمثل الأشياء الرديئة والخالية من القيمة أيضاً . فالمثُل تشكّل عالماً قائماً بذاته ، وهو عالم أزلى أبدى غير قابل للتغير ، ولا يمكن فهمه إلا عن طريق الفكر . وهى فى وجودها هـذا النقى والمستقل تتخذ مكاناً لهـا فى مكان سماوى علوى حيث كانت الروح قبل تواجدها فى الجسد فتدركها . وعند أفلاطون فإن كل تعلم وكل معرفة إنما تتشكل جميعاً من استرجاع أو تذكر من جانب الروح لتلك المثُل ، وذلك عن طريق إدراكها للأشياء بواسطة الحواس . والأشياء الأرضية المدركة بالحس ليست سوى صور خيالية للعالم المتألق الخاص بالمثُل . وهذه النظرة يعبر عنها أفلاطون بشكل قوى فى تشبيه المتعلق بالكهف الذى ورد فى بداية الكتاب السابع من الجمهورية .

والواقع أن المثل بالفلسفة الأفلاطونية ذات أهمية تتمثل فى ثلاثة جوانب : الجانب الوجودى ontological والجانب الغائى teleological والجانب المنطق ligical . فمن حيث الجانب الوجودى فإن المثُل تعبر عن الوجود الحقيقى ، أعنى الشىء فى ذاته . فكل شىء ليس هو ماعليه من وجود إلا من خلال وجود المثال المنعكس عليه ، أو من خلال مشاركته فى المثال . وهكذا فإن المثُل تظل هى هى بدون تغير ، بينما تتغير الأشياء التى تنعكس بصورتها عليها . وللمثُل أكثر من هذا أهمية غائية . فجميع الأشياء التى سوف تقع بما فى ذلك السلوك الإنسانى له نهاية وهدف فى الوجود . وهذه الغايات لا يمكن أن تتحقق إلا إذا تحقق ذلك الذى يدرك فى الفكر من أنماط الأشياء الثابتة غير المتغيرة والأولية . وعلى هذا فإن المثُل شبيهة بالصورة المثالية التى ترتسم فى رأس الفنان ، والتى يحاول أن يكسبها صيغة مادية .

وإلى هذا الحد فإن للمثُل أيضاً المدلول السببى والقوة المحركة التى تجعل الأشياء الموجودة فى العالم على ما هى عليه . أما بالنسبة للجانب المنطقى للمثُل ، فإن بمقـدورها أن تحملنا على أن ندخل النظام على الشواش أو اللاتعين الذى تتصف به الأشياء المبعثرة ، وأن تجعلنا نميز بين المتشابهات وغير المتشابهات وأن نضم الكثرة فى الأشياء فى واحد . بيد أن هذه الجوانب الثلاثة ليست على قدم المساواة من الأهمية فى نظر أفلاطون . ففى مؤلفاته المتأخرة نجد أن الجانب المنطقى فيها قد أخذ موقف الصدارة تدريجياً دون أن يسقط من حسابه الجانبين الآخرين وبخاصة الجانب الوجودى .

وهذا يرتبط بسلسلة من المشكلات التى نشأت مع مرور الوقت وبخاصة فى سياق تناوله بالنقد للحركات الفلسفية الأخرى . ففى نطاق تصوره الفلسفى ، فإنه لم يبدأ من مفهوم المثل نفسها ، بل نجد أنه بدأ من المثُل متقدماً شيئاً فشيئاً إلى المفهوم المتعلق بها .

والمشكلة الأولى من هذه المشكلات هى تلك المشكلة المتعلقة بالوجود المطلق للمثُل ، والواقع أن القول بالمثُل لم يتأت عنه صعوبات عندما كانت مرتبطة بالأفكار الخلقية فحسب ، ولكن ترتب عليها أيضاً مضاعفة العالم ، أعنى وجود عالمين عندما صارت جميع المثُل المتعلقة بجميع الأشياء أمراً مسلماً به فى نظريته . وهذه هى الصعوبة التى نعتها أرسطو بالازدواجية لدى نقده لنظرية المثُل . فعندما يكون هناك شيئان بالذات يحملان المشابهة لأحد المثُل ، فلأى منهما يجب علينا أن نعزو المشابهة بين المثال وهذين الشيئين المتعينين ؟ وأكثر من هـذا فإذا كانت المثُل منفصلة عن الأشياء ، فكيف تشترك تلك الأشياء فى الوقت نفسه مع المثُل ؟

www.dvd4arab.com

أما المشكلة الثانية فهى تلك الخاصة بالواحد والكثير . فعندما يكون المثال بمعناه المثالى متعلقاً بمثل أعلى أخلاقى ، فإنه يصير من خلال انتشاره فى جميع الأشياء غير موثوق به ، ويصير مجرد حامل لمعنى « العام » ، فينشأ سؤال هو : كيف يتسنى وجود مثال واحد فى أشياء كثيرة تشترك فيه؟ ويترتب على هذا المشكلة الثالثة المتعلقة بطبيعة المثل. فهذا لا يكون ممكناً إلا عندما يتسنى للواحد أن يصير كثرة ، وأن تستحيل الكثرة إلى واحد !

وأخيراً فإن الامتداد بنظرية المثل إلى الأشياء جميعاً تبرز مشكلة ظاهرية الشىء وحقيقته تحت ضوء جديد . فحيثما كان أفلاطون واقعاً فى المرحلة التى كان مهتماً فيها بالأخلاق ، فإن الأشياء التى كانت معروفة قبلياً كانت المجال المحدود لنظرية المثل ، ولكن بعد تلك المرحلة صارت المسألة منصبة على العلاقة بين الأشياء التى يمكن إدراكها بالحواس وبين المثل ، والعلاقات بين الإدراك الحسى وبين المعرفة .

الأنثروبولوجيا عند أفلاطون :

إن الإنسان كان فى نظر سقراط أهم شىء على الإطلاق فى العالم . والشىء نفسه يصدق بإزاء أفلاطون الذى يعتبره كذلك ، سواء باعتباره الفردى أم باعتباره الاجتماعى . ولقد كانت الروح فى الإنسان هى الكيان الذى يفوق ما هو حسى تماماً كما ذهب سقراط الذى اعتقد فى وجود الروح ولكنه ترك مسألة إمكان بقائها بعد الموت مفتوحة . وبالرغم من أن اقتناعه وإيمانه بأن أهم واجب على الإنسان هو أن يعتنى بروحه ، وأن الجسد يجب أن يسهر على توفير حاجات الروح ويقوم على خدمتها ، فإنه لم يقدم برهاناً على ذلك . أما بالنسبة لأفلاطون فإن الأمر لم يكن كذلك . صحيح أنه شارك أستاذه فى الاعتقاد فى الأهمية

المطلقة للروح ، ولكنه رغب فى أن يبرهن على صحة هذا الاعتقاد . ولكى يحقق هدفه فإنه أرسى أساساً ميتافيزيقياً له استعاره من النزعة النسكية لدى الأورفية الفيثاغورية وقام بربطها بنظرية المثل . ولقد بدأت بوادر ما ذهب إليه أفلاطون فى هذا الصدد فى محاورة جورجياس. ففى وقت كتابة هذه المحاورة كان أفلاطون قد بدأ فى بلورة التغير فى موقفه عن وجهات نظر سقراط بإزاء تثائيته الكونية والأنتروبولوجية. ولقد وجد هذا المفهوم الجديد طريقه فى صورته النهائية فى محاورة فايدو . ومنذ كتابة هذه المحاورة فإن أفلاطون ظل مشايعاً ليس فقط لخلود الروح ، بل وأيضاً لأزليتها . فالروح عنده موجودة قبل ارتباطها بالجسد وتظل موجودة بعد مفارقة الجسد .

ولقد أخذ أفلاطون بالنظرية الأورفية الفيثاغورية المتعلقة بتناسخ الأرواح ، وحاول أن يدعمها بالبراهين الفلسفية ، كالبرهان المتعلق ببساطة الروح وما يتبع ذلك من عدم قابليتها للفساد ، وأيضاً البرهان الخاص بتذكر المثل التى وقفت عليها الروح فى وجودها السابق على تلبسها بالجسد . ومن الجوانب الهامة عند أفلاطون تلك الثنائية الحادة التى تميز نوعين من الوجود :

الأول : الوجود غير المرئى والأزلى ، وهو الذى تنتمى إليه الروح ، والوجود المرئى والزائل وهو الوجود الذى ينتمى إليه الجسد . من هنا فإن الجسد والروح يرتبطان بعضهما ببعض برباط مؤقت . وعلى أساس السلوك الخلقى يتحدد الموقف بالنسبة للروح من حيث كم عدد المرات التى سوف تولد متحدة مرة أخرى بالجسد . ولكن بأشكال متباينة . ففى العالم الآخر ثمة محاكمة تنتظر الروح يتحدد فى ضوئها القدر المحتوم

Looloo
www.dvd4arab.com

مستقبلا تبعاً لما سلكه المرء بروحه خلال وجوده على الأرض. وأفلاطون يؤكد أن هذه الفكرة بالنسبة له ليست أسطورة خيالية ، بل هى حقيقة مؤكدة .

وبينما نجد فى فايدو أن أفلاطون يؤكد بصفة خاصة على بساطة الروح ، فإننا نجد أن محاورة الجمهورية تشتمل على عقيدة ثالوث الروح وهى التى تتضمن الجانب العقلانى ، والجانب الشجاعى وهو يتضمن الشعور الوجدانى والإرادة ، والجانب الثالث هو الجانب الذى يشتمل على الرغبات . أما المقوم الأساسى بالنسبة للروح فهو العقل أو الفكر .

أما الجزء الثانى فإنه يَدْعم العقل بكل ما لديه من قوة ، وقد أوضح أفلاطون هذا الرأى بتشبيه فى محاورة فايدروس Phaedrus بحصانين يوجه سيرهما العقل ، فأحد الحصانين يجاهد للارتفاع إلى أعلى إلى نطاق المثل ، بينما يجتهد الحصان الآخر أن يسحب الحصان الأول والقائد ، أى العقل ، إلى ما هو أرضى . وفى محاورة فايدروس يضيف أفلاطون برهاناً آخر على أبدية الروح بأن ما يحرك ذاته يجب ألا تكون له بداية ولا يكون قابلاً للزوال . ونجد فى محاورة تيماوس Timaeus أن الجزء العاقل فقط من الروح ، وهو الموجود فى الرأس هو الخليق بأن يكون خالداً ، بينما يتعرض الجزء الخاص بالشجاعة والرغبات الحسية للزوال ، لأنهما جزأين غير عاقلين وزائلين بالروح .

وعلى الرغم من أن أفلاطون لم يقدم لنا علم نفس متكاملاً بالمعنى الحديث ، فإننا نجده يقدم ملاحظات هنا وهناك ، كتلك الملاحظات المتعلقة بالمشاعر العاطفية وإشباعها ، وهى المشاعر التى تتضمن التضحية بالذات لدى بعض الحيوانات فى بعض الأحيان ، كما أن أفلاطون عرض للأنانية والشفقة واللذة والألم . بيد أن أفلاطون لم يتعرض بالمناقشة

للكيفية التى يتم التآزر بواسطتها فيما بين الأجزاء الثلاثة للروح لكى تتحقق وحدة الشعور . وبينما نجد أنه تبعاً للأورفية فإن الأرواح الشريرة وحدها هى التى تُسْنَى فى عالم المادة ، فإننا نجد أفلاطون فى الجمهورية يذهب إلى أن الأرواح تهبط « نقية » من السماء بالرغم من أن معظمها تلوث نفسها بالخطايا التى يقترفها أصحابها على الأرض .

الأخلاق عند أفلاطون :

إننا نجد أن أفلاطون خلال الفترة التى سميت بالفترة السقراطية فى بحثه المتعلق بالأخلاق قد انتهى إلى الوقوف على وحدة الخير . وبتعبير آخر فإن الأسماء التى تطلق على الفضائل المتباينة قد تبدت له ألفاظاً كثيرة تعبر عن اتجاه أخلاقى واحد . وهو فى الوقت نفسه قد أعطى صوته لحتمية معرفية تجعل سلوك الإنسان معتمداً على معرفته بالقيم الخلقية . وفى ضوء هذه النظرة فإن الشر يبدو بمثابة خطأ يمكن التخلص منه بواسطة المعرفة . وهذا ما يفهم عادة من نظرية أفلاطون المتعلقة بقابلية الفضيلة لأن تُعَلَّم .

بيد أن هذه النظرية التى اعتنقها أفلاطون حتى وقت كتابة محاورة بروتاغوراس Protagoras قد أسقطها فى صمت فى محاورة جورجياس Gorgias . فهو فى هذه المحاورة الأخيرة لم يعد ينظر إلى الرذيلة باعتبارها مجرد خطأ ذهنى ، بل صار ينظر إليها باعتبارها أحد أمراض الروح يجب معالجته إلى أن يتم الشفاء منه بواسطة علم يناظر الطب . وهذا العلم ليس سوى الفلسفة . أما الوسيلة التى تستخدمها الفلسفة هنا فى علاج أمراض الروح فإنها لم تعد التعليم ، بل إنزال العقوبة بالمريض روحياً . فليس من نكد يصيب المرء أشنع من أن يقترف خطأ ولا يعاقب على

Looloo
www.wwwarabic.com

اقترافه . ذلك أنه عندئذ يصير محروماً من الإمكانية الوحيدة للتحسن. ولعل أن يكون السبب فى هذا التغير فى مذهب أفلاطون هو أخذه بالفلسفة الثنائية للفيثاغوريين ، التى تجد تعبيراً لها فى هيئة أسطورية فى نهاية المحاورة .

والواقع أن أفلاطون قد انثنى مؤقتاً أمام الأفكار التى كانت شائعة ، وهى ليست بذات أهمية بإزاء أفكار أفلاطون الأساسية ، وذلك عندما اعترف فى محاورة مينو Meno بأن الأفكار الصحيحة يمكن أن تؤدى إلى الفضيلة . فالواقع أنها لا تؤدى إلا إلى مستوى أولى للفضيلة الحقيقية بالمعنى الذى يعرفه الفيلسوف . أضف إلى هذا أن نظرية الأمزجة الخلقية التى عرض لها أفلاطون فى الجمهورية ذات أهمية قليلة . فلقد زعمت هذه النظرية وجود أربع فضائل أساسية هى المعرفة والشجاعة والحكمة والعدالة. ووظيفة الفضيلة الأخيرة هى القيام بالحفاظ على النسبة الصحيحة فيما بين الفضائل الثلاث الأولى التى تناظر الأجزاء الثلاثة بالروح . ومنذ كتابة محاورة جورجياس فصاعداً فإن الأخلاق عند أفلاطون ظلت متشبثة تماماً بالنظرة الثنائية ، بمعنى أن ما يتعلق بالجسم من حاجات وشهوات إنما هو السبب فى كل الشقاء والرذيلة ، وأن جميع الخيرات الأرضية بما فى ذلك الحياة ذاتها بلا قيمة ، وبخاصة المسائل المتعلقة بالمال فإنها تعد معوقات تحول دون تقدم الروح بتجاه الخير ، أعنى التشبه بالله وهو فى العالم الآخر المعيار الوحيد ، ذلك أن الروح من حيث طبيعتها الحقيقية تنتمى إلى العالم الفوقانى ، ولا يمكن أن تعثر على سعادتها التامة إلا فى الارتقاء إلى ذلك العالم ، وبالتالى إلى أصلها ومنبعها .

والواقع أن المفهوم الأورفى الفيثاغورى الخاص بالجسد باعتباره سجن الروح وقبرها ، وباعتباره رذيلة قد ابتلى بها المرء ، قد وجد أفضل

وأقوى تعبير له فى محاورة فايدو حيث تم تعريف « الفلسفة الصحيحة » بأنها « التمرس بالإماتة والموت » ثم « الكفاح بعد الموت » . فليس ثمة من طريقة أمام الروح تستطيع بها أن تسترجع بها نقاءها الأصلى ومعرفتها للحقيقة سوى أن تبذل الجهود المتواصلة خلال هذه الحياة وأخيراً بعد الموت لتخليص نفسها من رفيقها الأرضى الذى أجبرت على التلبس به . والواقع أن هذه المعتقدات ظلت تمثل آراء أفلاطون الرئيسية خلال حياته كلها على الرغم من أنها لم تحظ بالتعبير عنها دائماً بنفس الصراحة . وعلى الرغم من أن العالم المرئى قد يكون نسخة من المثل الصحيحة والأبدية ، فإنها تبقى مع ذلك نسخة ملوثة وغير مكتملة . بيد أن الجمال الأرضى قد يصير حافزاً للروح للطيران بأجنحة عشق المعرفة المتعلقة بالجمال فى ذاته كما هو الحال فى الندوة Symposium .

وعلى الرغم من هذا فإن نظرية أفلاطون المتعلقة بالقيم قد ارتبطت بميتافيزيقا الثنائية المباينة للروح اليونانية ، وقد جعلته فى وضع مناهض لقيم الثقافة اليونانية الرئيسية والأساسية . والواقع أن أفلاطون واحد من الشخصيات النادرة التى كانت مفعمة بالحماس فى إيمانها بخلود الروح فلم يكن هناك مناص بالنسبة له من أن تبدو خيرات هذه الحياة باهتة إذا ما قورنت بعظمة الأبدية . بيد أن تقديره الضئيل للحياة الأرضية وجميع المتعلقات الجسدية لم يكن متعلقاً بالتراث اليونانى والتقاليد اليونانية بأى حال من الأحوال .

وعلينا ألا نغتر ونخدع بما ذكره أفلاطون بإزاء التربية الرياضية بالجمهورية . فلقد كان المقصود بها أولاً وقبل كل شىء دعم الموقف الانسجامى للروح ، بالإضافة إلى إخشوشان الجسم وزيادة قوة المقاومة ضد الرغبات والشهوات الحسية . أضف إلى هذا أن موقف أفلاطون

www.dvd4arab.com

بإزاء رفضه لجميع المسائل السياسية بمعناها التقليدى كان منافياً للروح اليونانية . فلقد ذهب أفلاطون إلى اعتبار المواقف التى اتخذها رجال السياسة الكبار والإجراءات التى اتخذوها مدعاة للسخرية والتسفيه . ولقد ناهض أفلاطون أيضاً الروح اليونانية فى الأحكام التى أصدرها بإزاء الشعر . فلقد رفض الاعتراف بالشعر ، اللهم إلا إذا كان يخدم الأهداف الدينية والأخلاقية . ولقد نعى أفلاطون أيضاً على الموسيقى والفن التشخيصى ، إذ أنه ليس موجهاً إلا للتسلية ، أعنى إلى اللذة بدلاً من توجيهه إلى خير الجمهور . والواقع أن الأخطاء التى يبرزها أفلاطون فى الفنون التقليدية تتمثل أولاً وقبل كل شىء فى الموضوعات التى تتناولها وهى عالم الحواس . ومن جهة أخرى فإنها تثير الدوافع والمشاعر الوجدانية والشهوات ، وهى الأشياء التى يضطلع العقل بكبح جماحها .

ومن الناحية الإيجابية فإن الهدف النهائى عند أفلاطون هو الحصول على الخير أو السعادة . وهذا لا يتأتى للمرء إلا بعمل الخير ، وهو ما يكون مصحوباً بالشعور باللذة . فهذا هو ما يُرَدّ إلى حالة من انسجام الروح ، والتوصل إلى تحقيق النظام العقلانى والأخلاقى الذى ينعكس على العالم الخارجى بتحقيق النظام فيه . فذلك هو الطريق لتحقيق الجمال والصحة للروح ، وإلى سيطرة الجزء الإلهى فى قوام الإنسان على الدوافع المنحطة . والواقع أن القوام الخلقى يُرمَّته لدى الإنسان عندما يكون على أحسن وجه له هو ما يسميه أفلاطون بالعدالة . وهو يرسم صورة للإنسان المثالى بأنه الشخص الذى لا يساوره أى شك فى صحة مبادئه حتى ولو تطلب ذلك الموقف أن يتعرض للموت على يد أحد المجرمين بأن يقوم بصلبه فينتصر عليه المجرم .

ومما لا شك فيه أن الأخلاق عند أفلاطون — شأنها شأن الأخلاق السقراطية — تنبنى برمتها على استقلال العقل . ومن ثم فإنها تصير فى استقلال تام عن الدين . وهذا على الأقل بإزاء الدين الذى كان سائداً لوقته . فهو فى الواقع يقوم بتصحيح الدين جرياً وراء اكسينوفان وهرقليطس ، وذلك بتطهير الأفكار المتعلقة بالآلهة من العناصر التشبيهية بالبشر والمشوبة بعدم النقاء . بيد أن الأخلاق عند أفلاطون تقوم بصفة أساسية على دين من خَلْقه هو . والدين الأفلاطونى يتشكل من وحدانية فلسفية تطابق فيها بين الله ومثال الخير والاعتقاد فى العناية الإلهية مع الاعتقاد بأن العالم من عمل العقل وهو نسخة من عالم المثل ، وأن عبادة الله تتمثل فى اتباع طريق الفضيلة وإحراز المعرفة . والخير فى نظر أفلاطون هو شىء مطلق ، وهو بهذا يفنِّد مذهب بروتاغوراس القائل : إن الإنسان هو مقياس جميع الأشياء ، وقال بدلاً من ذلك إن الله هو مقياس جميع الأشياء . فأهم رسالة يجب على الإنسان أن يضطلع بها فى حياته هى أن يبذل قصارى جهده فى أن يصير على نفس النحو من كمال الله .

وفى أعماله الأخيرة يهاجم أفلاطون الإلحاد بجميع أشكاله ، ويقدم تصوراً كاملاً للألوهية . وكلما كان يتقدم فى السن ، فإنه كان يزداد تمسكاً بمعتقداته الدينية . فلقد أخذ يعتقد فى أن الكواكب آلهة منظورة . كما أنه أخذ يعزو إلى الآلهة الشعبية قيمة تربوية معينة . ومن العجيب أن نجد أن أفلاطون الذى قام بتأليف محاورة « الدفاع » هو نفسه الذى يطالب فى شيخوخته بعقوبة الإعدام بإزاء الملحدين الذين لا رجاء من شفائهم من إلحادهم . فالدين فى نظره قد صار فى النهاية وسيلة للتربية الأخلاقية .

Looloo
www.alvd4arab.com

الدولة عند أفلاطون :

كانت الأخلاق والسياسة مرتبطتين بعضهما ببعض عند اليونان . فطالما أن حكومة المدينة كانت قائمة ، فقد كان من المستحيل أن ينظر إلى الفرد باعتباره منفصلاً عن المجتمع المحلى . وحتى بروتاغوراس الذى انتحى فى فلسفته منحى ذاتياً لم يكن يشك فى أن المرء مَسُوق بغريزة طبيعية تجاه تشكيل مجتمعات . بيد أن الدساتير التى بزغت إلى الوجود مع مرور الوقت قد أدت فى الواقع إلى تحرر الفرد إلى حد بعيد من العيوب التى كانت تشوب كلاً من الديموقراطية والأوليجارشية. ففى ظل الأوليجارشية نجد الطاغية غير الملتزم بالدستور ، كما نجد الجماهير غير المنضبطة بأى نظام فى ظل الديموقراطية . ولقد عانى أفلاطون من هذين الطرفين المتطرفين فى مسقط رأسه ذاكراً ذلك فى كتاباته .

ولقد أدى إعدام سقراط فى النهاية إلى اعتقاده بأن لا أمل فى إحراز تحسن سياسى عن طريق إدخال تغيرات فى الدستور بالطريقة التقليدية ، وأن لا سبيل للتخلص من الشر إلا عن طريق الإصلاح الأخلاقى للدولة. ولقد أخذ أفلاطون هذا الاتجاه نقلاً عن الفيثاغوريين. فنجده فى محاورة « جورجياس » يتخذ موقفاً صريحاً مضاداً للدولة الاستعمارية . فالدولة يجب ألا تقام على أساس من شهوة القوة ، سواء لصالح بعض الأفراد أم لصالح طبقات معينة . فهدف الدولة يجب أن يكون تربية المواطنين لكى يصيروا مواطنين صالحين .

وهكذا نجد أن جمهورية أفلاطون قد ساد عليها فكرة الخير التى تجد تعبيراً لها فى مفهوم « العدالة » وهو يعنى التنظيم الصحيح للحاجات الروحية والجسمية للفرد وللمجتمع الإنسانى . ولقد ترتب على هذا

أيضاً اشتمال « الجمهورية » على أساس ميتافيزيقى يناظر ثنائيته الحادة بين الجسد والروح ، أو بين الأرضى والأبدى . وما هو جسدى وما هو أرضى يجب أن يكون وسيلة ، بينما يكون الروحى والأبدى هو الغاية . ولعل المثل الذى ضربه أفلاطون بالكهف فى بداية الكتاب السابع وأسطورة الروح فى نهاية الكتاب العاشر يبرهنان على ذلك .

والواقع أن الأسس الميتافيزيقية للدولة عند أفلاطون تتبدى فى بِنْيَتها . فالطبقات الثلاث التى ينقسم إليها المواطنون شاهد على تناظر نظريته المتعلقة بالأقسام الثلاثة للروح . فالقسم العقلانى فى الروح يناظر طبقة الحكام الذين تربوا تربية فلسفية ، بينما تناظر طبقة الجنود القطاع الشجاع بالروح . وتناظر طبقة الفلاحين والتجار الجزء الشهوانى بها . وهذه الطبقة الثالثة لم تعالج بتفصيل أكثر ، وذلك لأنها لا تعدو أن تكون مجرد أداة فى يد الحكومة ، وهكذا نجد أن الحكومة عند أفلاطون حكومة أرستقراطية بالدرجة الأولى وإن كانت فى الواقع أرستقراطية الطبقة المثقفة .

ولم يكن هناك ما يبدو لأفلاطون أكثر زيفاً من الدعوة للمساواة المطلقة بإزاء توزيع الحقوق السياسية . فليست المساواة فى الحقوق السياسية فى رأيه هى تلك المساواة الحسابية (أعنى المساواة الميكانيكية أو الآلية) ، بل هى المساواة الهندسية (أعنى تلك المساواة المتدرجة تبعاً لقدرات المواطنين) . فهذه المساواة الهندسية يجب أن تكون المبدأ الذى يحكم توزيع الحقوق . وليست النزعة نحو عمل الخير هى وحدها الخاصية التى تصنع الحاكم الصالح . وليست عبقرية السوفسطائى الذى يسبر أغوار النفس البشرية ويعرف عادات الناس ورغباتهم هى التى تشكل شخصية الحاكم المصيب فى حكمه ، وإنما المهم هو معرفة الخير

Looloo
www.dvd4arab.com

وتطبيقه بإزاء تربية الجمهور . ويتبع هذا أن تكون المشكلة الرئيسية هى كيفية إعداد الحكام الأكفاء ، ومن ثم فإن الموضوع الرئيسى فى التربية هو تحديد ما يجب اتخاذه من وسائل تربوية فى سبيل إعداد الطبقتين اللتين تحتلان المكانة العليا ، أعنى طبقة الفلاسفة وطبقة الجند . أما الطبقة الثالثة فيسمح لها بأن تحتفظ بملكيتها الخاصة وبالأسرة . أما الحكام والحراس ، أعنى طبقة الفلاسفة وطبقة الجند فيجب عليهما أن تخضعا لأصول التربية . فأطفال هاتين الطبقتين يجب أن يتم الحصول عليهم من رجال ونساء على مستوى صحى ممتاز ، وأن يخضعوا لتوجيه الدولة ، وذلك لضمان إنتاج جنس نبيل قادر على النهوض بالأعمال العظيمة .

والواجب أن ينشأ هؤلاء الأطفال فى مجتمع مشترك فى مؤسسات حكومية . ولدى بلوغهم العشرين من العمر ، فإن العملية الأولى لفرزهم تطبق عليهم . وبعد هذا فإن عليهم أن يمروا فى مرحلة تدريبية ، وأن يخضعوا خلالها لتدريب عسكرى ورياضى لفترة فيما بين سنتين وثلاث سنوات. وبعد ذلك يكون عليهم أن يجتازوا دراسة إعدادية فى الرياضيات والفلك والموسيقى . وفى السنة الثالثة يخضع أولئك الأولاد لمرحلة فرز جديدة يتسنى بعدها بالنسبة لأولئك الذين يجتازون الاختبار أن يبدأوا فى تعلم الجدل (الديالكتيك) ، ويكرس لذلك خمس سنوات . وفى النهاية فإنهم ينخرطون فى ممارسة العمل فى وظائف قيادية بالجيش والإدارة المدنية ، وحالما يبلغون سن الخمسين فإن المشكلات المتعلقة بالحكومة توكل إليهم . والإناث يحصلن على نفس القدر من التربية الرياضية ومن التربية العقلية . ولا بد من فرض رقابة صارمة على المواطنين بإزاء الحياة العقلية والخلقية ، ولا بد أن تتخذ الدولة شكل

المجتمع الدينى ، وذلك بأن تدمج الطقوس الدينية والعلم سوياً فى كلٍ منسجم بعضه مع بعض .

أما تفاصيل العبادة فإنها تتحدد بما يقرره كهنة أبولو . أما الشعر والموسيقى فلا بد من إخضاعهما لرقابة صارمة وألا يسمح بهما إلا فى وضع ترانيم للآلهة وأن تخصص الأغانى لمدح الرجال النبلاء . أما شعر هوميروس والتراجيديا والكوميديا فلا تحتل أى مكان لها فى الدولة عند أفلاطون . وكذا فإن الفن يجب أن يخضع لأشكال من الرقابة الصارمة وأن يتخذ أشكالاً بسيطة . وكل شىء يجب أن يخضع لهدف تحقيق فكرة الخير . وفى سبيل تحقيق ذلك فإن أفلاطون لم يُضَحِّ بالإبداعات اليونانية فى الفن والشعر فحسب ، بل إنه ضحى بالزواج والحياة الأسرية أيضاً . والواقع أن « الجمهورية » لم تتضمن أى ذكر للحقوق الفردية ، كما أنها لم تُقِم أى اعتبار للفرد (إلا باعتباره أداة مفيدة للمجتمع). وحتى النشاط الذى يبذله الحكام فإنه يوصف بأنه تضحية تبذل من أجل الدولة ، ولسوف يجازى عنه المرء فى الحياة الأخرى .

وأفلاطون لا يعترف بوجود فرق بين شعب وآخر ، كما لا يعترف بتباين الأشكال السياسية التى يستوجبها وجود تباينات فيما بين الشعوب ، كما أنه لا يأخذ فى اعتباره ما يحمله التطور التاريخى من تباينات بينها . فهو يعبر بكلمات تخلو من أى غموض عن ملامح الدولة كما يتصورها بكل تأكيد . فالدولة عنده راسخة الأركان ولا يعتريها التغير ، شأنها شأن عالم المثل نفسه . فالدولة عنده تقوم كمثل أعلى رائع يسمو عن الدساتير التى سبقته خلال التاريخ ، وهى الدساتير التى تخضع لأقسى النقد وأمرّه من جانب أفلاطون . وهذا يتساوق مع النظام الأفلاطونى الذى لا يرى

www.dvd4arab.com

فى الوجود الإنسانى الحسى والفردى وسيلة لتحقيق المثل الأعلى للوجود بل يجد فيه عقبة بإزاء المعرفة الحقيقية والخلق القويم .

ونحن نستطيع أن نشاهد إلى أى حد كان تحقيق أفكار أفلاطون فى الممارسة العملية عزيزاً وأملاً منشوداً عنده . وهذا لا يتبدى فقط فى رحلاته المتكررة إلى سراقوصة ، وقد علّق أمله على ديونيسيوس الثانى ومن بعده ديو ، بل نشاهد ذلك أيضاً فيما بذله من جهد لمراجعة أفكاره التى تضمنتها مؤلفاته بعد بلوغه الشيخوخة . فنجد فى الجمهورية أن أفلاطون قد جعل من الطاغية الملك الذى يستحق التقدير . ولكنه أخذ فى تعديل فكرته عن الحاكم الجدير بالتقدير فيما بعد فى كتابه « السياسة » حيث أحل الملك محل الحاكم الفيلسوف ، وهو شخص لديه خبرة سياسية ولا يكون ملزماً بقوانين معينة ، بل تكون لديه معرفة حقيقية وينفّذ ما يراه خليقاً بأن ينفّذ من أجل الدولة ، وهو الذى يضع الرجال الأكفاء فى الأماكن المناسبة لهم ، ويكون شأنه شأن النسّاج الماهر الذى يعرف كيف يربط جميع الخيوط فى الآلة السياسية فى كل متّسق .

وإلى جانب هذا المثل الأعلى للحاكم المطلق المستنير ، نجد أن أفلاطون يعترف بضرورة قيام دولة دستورية كبديل مؤقت له . وهو يميز بين ثلاثة أشكال يمكن أن تتخذ الدولة شكلاً منها هى الملكية والأرستقراطية والديموقراطية ، وهى الأشكال التى يقابلها الحكم المطلق والأوليجارشية (حكومة القلة) وحكم الغوغاء على التوالى . والواقع أن الأفكار التى أذاعها أفلاطون هنا قد تبلورت على يد أرسطو فى كتابه « السياسة » من جهة ، كما نجدها فى آخر أعمال أفلاطون ، أعنى « القوانين » من جهة أخرى . وفى هذا الكتاب نجد أن أفلاطون قد نبذ الكثير من مقترحاته المتطرفة ومنها شيوعية النساء والأطفال والتنازل عن الملكية

الخاصة ، بل وحتى إسناد الحكم إلى فيلسوف . ويُحِلّ محل ذلك مجلس دولة على منوال المجالس الفيثاغورية التى كانت تتشكل من حراس القوانين تكون مهمته رعاية الزيجات والحياة الأسرية والحفاظ على عدد محدد من الحصص تقسم الأرض بمقتضاها إلى أقسام بحيث يزيد ما تدره أربعة أضعاف ما تحتاج إليه الأسرة لسد احتياجاتها . أما بالنسبة للتجارة والصناعة والزراعة فإن أفلاطون يرى أنها يجب أن تسلم إلى أيدى أسرى الحروب والعبيد .

أما فى الكتاب الثالث فإن أفلاطون يقوم بتقديم فكرة خصبة بإزاء دستور مكون من عناصر مأخوذة من الأشكال الثلاثة السياسية الأساسية ، وذلك بعد أن يقوم بتقديم مسح سريع لتطور الحضارة والدولة . ولكن على الرغم من هذه التنازلات لتحقيق الحياة الأرضية ، وهى التنازلات التى قدمها أفلاطون بالتفصيل ، فإنه ظل متمسكاً بإصرار بفكرته السياسية الأساسية القائلة إن الدولة هى مؤسسة تستهدف إعداد الروح لحياتها الأبدية . أما بإزاء فكرة قيام الدولة على أساس من العقل ، فإن أفلاطون قد امتد بها إلى آفاق بعيدة بحيث تستحيل إلى دولة دينية إلى حد بعيد ، وقد أخذت التربية الدينية كنظام محدد تحل محل الجدل (الديالكتيك) . أما بالنسبة لمذهب تناسخ الأرواح ، فإن أفلاطون أبقى عليه ، كما أن الفن والشعر قد خضعا لديه لتحقيق أهداف خلقية ودينية . أما بخصوص احتقاره لجميع الأشياء الأرضية ، فإنه ذهب به إلى أغوار بعيدة المدى إلى حد أنه صار يعلن أن الشئون البشرية لاتستحق تناولها بالدراسة بجدية . وأفضل شىء للإنسان أن يكون « دُمْيَة فى يد الإله » .

www.dvd4arab.com

وبينما كان أفلاطون فى كتاباته الأولى يعزو الخطأ والشر إلى النوازع الجسدية التى تتصارع مع طبيعة الروح التى تعلو عن المستوى الحسى ، فإننا نجده فى كتابه « القوانين » قد أحل محل هذه الثنائية القول بروح أرضية شريرة يعزو إليها الشرور ، سواء كانت شروراً إيجابية أم شروراً سلبية . وهذه الروح الأرضية ذات تأثير طفيلى فى الإنسان . ولقد عزا إلى هذه القوة الرهيبة الإلحاد الذى يزعزع الركائز التى ينبنى عليها دور الدولة . ولقد أدى هذا المعتقد الذى تسلط على أفلاطون فى شيخوخته وقلقه المرضى على حرمان أتباعه من السعادة الروحية إلى أن يقترح بعض الإجراءات ، وذلك بتنفيذ حكم الإعدام فى أولئك الذين ظلوا يصرون على التشبث بخبثهم برغم ما أسدى لهم من تعليم . وهكذا نجد أن أفلاطون بلجوئه إلى استخدام العنف ضد العقل ، يكون قد جعل حرية الفكر تحت رحمة الدولة ، كما استحالت الفلسفة لديه إلى نزعة دجماطيقية .

الفيزياء عند أفلاطون :

الواقع أن سقراط قد أدار ظهره منذ البداية للعلم الطبيعى . وكذا فإن أفلاطون لم يكن يعبأ كثيراً بأن يكرس أى اهتمام بهذه الدراسة ، وذلك بسبب اعتقاده بأن العالم الوحيد الخليق بأن تطوّقه المعرفة الحقيقية والفكر السديد، إنما هو عالم من طبيعة تسمو عن المستوى الحسى ويتعلق بالعقل . أما بالنسبة للطبيعة ، أعنى النطاق المجسَّم ، فإن ما يصل إليها من طريق الحواس ، إنما هو فكرة مشوَّشة وغامضة تصل إلى أذهاننا ولا يمكن الوثوق فى صحتها . ولقد انصبت جميع جهود أفلاطون وأفكاره على محاولة وقف البشرية على فهم للعالم الذى يعلو عن المستوى الحسى وهو

عالم المثل المدرك بالعقل . وهو العالم الذى يوفر لنا الأساس الوحيد للمجتمع البشرى .

ولقد شكل نظامه الفلسفى قواماً كلياً مكتفياً بذاته ، على الرغم من أن الطبيعة قد اعتبرت بمثابة نسخة أقل مرتبة من عالم المثل . فالطبيعة لاتحمل فى ذاتها الحقيقة بمعنى الكلمة ، وبالتالى فليس من الممكن فهمها بالفكر . على أنه بعد انخراطه فى الشيخوخة ، نجد أنه فى النهاية قد وجه انتباهه إلى العالم الظاهرى ، وذلك فى « طيماوس » Timaeus التى تعتبر محاورته العلمية الوحيدة . ولابد أن أفلاطون قد عدَّل موقفه بناء على اعتبارات محددة ، وإنا لنجد أفلاطون نفسه يقدم بعض التبريرات لموقفه الجديد تحت تأثير الفيثاغورية . فالواقع أن الفيلسوف قد حصل على معرفته بعلمين محددين من خلال الفيثاغورية كانا مناسبين لنظامه الفلسفى الخاص بالمثل ، كما أنهما قد شكلا فى الوقت نفسه رابطة بين عالم العقل وعالم المادة .

أما العلم الأول فهو الرياضيات التى تلقى الضوء على ما كان أزلياً ، وبواسطتها ندرك ماهو متعال على الحواس فيما هو مادى .

أما العلم الثانى فهو الفلك الذى يعمل على تحويل الأنظار من الأرض ويوجه الانتباه إلى أعماق الكون إلى تلك الأجسام السماوية المفعمة بالأسرار التى تحرك نفسها بنفسها والتى يبدو أنها حية وأنها آلهة مرئية ، ويبدو أن حركاتها محكومة بالعدد والقياس ويمكن تفهمها بالعقل المفكر .

والواقع أن الرياضيات كانت لدى أفلاطون بمثابة عامل مساعد فى النزعة النسكية الأفلاطونية ، بينما كانت الآلهة الكوكبية منتمية إلى العالم السماوى . ومن ثم فإننا نجد هنا سبباً كافياً لتوجيه انتباه أفلاطون إلى

www.dvd4arab.com

الكون ، الذى اعتبر نظامه الإلهى نموذجاً على الإنسان أن يحذو حذوه . وأكثر من هذا فثمة نظرة جديدة إلى العالم قد أخذت بالفعل فى احتلال مركز البؤرة وأخذت تشيع بين الناس ، الأمر الذى حمل أفلاطون على الإحساس بهواجس شديدة . هذه النظرة الجديدة كانت الفلسفة الذرية ، وهى فلسفة مادية أخذت تنظر إلى كل شىء باعتباره مجرد عمليات ميكانيكية ، وأنه مجرد قوة لضرورة عمياء .

والواقع أن هذا المفهوم الذى كان جوهره دالاً على الإلحاد ، كان مناقضاً تماماً لنزعته المثالية ، مما اضطر أفلاطون إلى اتخاذ موقف التحدى . لقد صار محتماً عليه إذن أن يتسلح بالمعرفة العلمية التى كانت ذائعة لوقته بما فى ذلك الطب الذى كان جديراً أيضاً باهتمامه ، وذلك حتى يتسنى له أن يشرح أفكاره حول العلاقة بين العالم المرئى وعالم المثل الذى قال به . فكان فى ذلك شبيهاً ببارمنيدس الذى قال بوجود « الحقيقة » التى تتعارض مع عالم الحواس ، وذلك باستعراضه لعالم الظواهر كما قدمه المناصرون للحواس من الفلاسفة المعاصرين له .

على أنه ليس من سبيل للربط فيما بين ما تضمنته محاورة أفلاطون المسماة « تيماوس » Timaeus يبقى فلسفته إلا بعقد مقارنة بقصيدة بارمنيدس التعليمية بجزأيها . على أن نظرية أفلاطون فى المعرفة لاتترك أى مجال للمعرفة التجريبية ، إذ أن مثل تلك المعرفة التجريبية تكون مناقضة لمذهبه العام . وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على رفض أفلاطون للتجارب العلمية ، لا لأنها طريقة غير ناجعة للتوصل إلى المعرفة فحسب ، بل لأنها فوق ذلك ، وأهم من ذلك ، تعتبر تطفلاً وقحاً من جانب الإنسان بالتدخل فى النظام الإلهى للطبيعة . ومن ثم فهولايترك أدنى شك فى مناقشاته فى تيماوس فى أننا لانتناول المعرفة الحقيقية بالمعنى

الذى يذهب إليه ، بل نتناول ما يبدو أنه معرفة ، أو أننا بصدد أحكام احتمالية لا يتم الحصول عليها باستنباط منطقى مترابط ، بل بواسطة استنتاجات لا يعتد بها ولايعتمد عليها . فهى فى الواقع لا تعدو أن تكون « مجرد لعبة وتسلية » . فمن الضرورى إذن حتى يتسنى لنا أن نفهم الفيزياء عند أفلاطون فهماً صحيحاً ، أن نضع نصب أعيننا أنه لم يبعد قيد أنملة عن مفهومه الثنائى للعالم ، وأنه لم يتنازل عن نظريته الخاصة بوجود عالمين .

والواقع أن الأفلاطونيين قد صاروا يجدون صعوبة كأداء فى إقامة قنطرة بين العالم الفوقانى المتعلق بالمثل وبين عالم الظواهر المتعلقة بالحواس . فكل مثال هو واحد فحسب ، ولكن الأشياء التى تنخرط تحته لانهائية فى العدد ، وكل مثال هو أزلى أبدى وغير قابل للتغير ، ولكن الأشياء تستحدث فى الوجود ثم تأخذ فى الزوال ، وهى فى حالة تغير مستمر . والمثال هو على ماهو عليه من حيث النقاء والوجود الكامل ، ولكن الأشياء لم تكن على هذه الحالة على الإطلاق ، والمثال له وجود كامل ، بينما الأشياء تقع بين الوجود وعدم الوجود ، تماماً كما أن الرأى الذى تكون الأشياء هى الموضوع الذى ينصب عليه فإنه يقع فيما بين المعرفة واللامعرفة . فهذا النقص الذى يتصف به الوجود الحسى يمكن أن يفسر فى رأى أفلاطون بأنه يعزى إلى تواجد جانب من المثال من جهة ، بينما يتعلق الجزء الآخر بمبدأ مغاير . فالمثال هو مصدر كل ماهو حقيق وكامل فى ذلك الوجود . أما طبيعة المبدأ الثانى فإنه يوجد فيما يميز الظاهرة الحسية من المثال ، فهو لا يتم تصوره إلا باعتباره شيئاً غير محدد ودائم التغير وغير موجود بذاته ولا سبيل إلى معرفته .

www.dvd4arab.com

ويرى أفلاطون أن الطبيعة الأساسية للعالم المنظور تتشكل من كونها قد تكونت بواسطة الأشكال والأرقام . ونحن نقع على هذا فى تناوله للعناصر الأربعة . فلدى تطبيق قياس أحجام الأجسام الصلبة الذى أسسه صديقه ثيوتيتوس ، فإنه صار يعزو إلى العناصر أربعة أو خمسة مجسمات منتظمة باعتبار أنها الأشكال الأساسية. فالمكعب يناظر الأرض، والهرم يناظر النار ، والشكل المثمن يناظر الهواء ، والعشرونى الوجه يناظر الماء . أما الشكل ذو المائة وجه الذى يوجد بعد الكرة السماوية فقد استخدمه الله فى التخطيط للكون ككل . وهذه الأحجام ذات القياسات المحددة قد استحالت بعدئذ إلى أسطح ، ثم استحالت الأسطح إلى خطوط ، ثم استحالت الخطوط إلى نقط أو إلى خطوط ذرية . وباستحالة هذه الذرات إلى أشكال هندسية صغيرة ، فقد صار من الممكن استحالة العناصر بعضها إلى بعض . وهذه الآلية الخاضعة لقانون معين جنباً لجنب مع العمليات الخاصة بها تتضمن التلاحم والانفصال والتخلخل والتكثف ، وأيضاً السخونة والبرودة ، وهى تلعب دور الأسباب المتزامنة فى خلق العالم، بينما نجد أن القوة الخَلْقية الحقيقية هى العقل الذى يعمل مستهدفاً غاية محددة . والواقع أن هذا المفهوم الغائى المتعلق بالطبيعة هو الذى يميز أفلاطون بشكل جوهرى عن التفسير السببى الميكانيكى للعالم الذى قدمه ديموقريطس .

وفى هذا الصدد يقول يوسف كرم فى كتابه « تاريخ الفلسفة اليونانية » إنه لما أراد أفلاطون أن يبين كيف تحقق النظام فى العالم وحصلت الصور الكلية فى الأجسام ، أنطق « تيماوس » الفيثاغورى بقصة التكوين ، وقد أورد آراءه على لسان واحد من الفيثاغوريين ، لأنها قائمة على مبادئ عقلية رياضية ، وفضّل القصة على الحوار والخطاب

ليدل على أن العالم المحسوس لايمكن صياغته فى قضايا ضرورية ، وأن العقل البشرى لايستطيع أن ينفذ إلى أغراض الله فى الطبيعة . فليس أمامه إلا الظن والتشبيه .

قال تيماوس : « كل ما يحدث فهو يحدث بالضرورة عن عِلّة . والعالم حادث قد « بدأ من طرف أول » لأنه محسوس . وكل ماهو محسوس فهو خاضع للتغير والحدوث وله صانع . ولما كان الصانع خيِّراً والخيِّر برىء من الحسد، فقد أراد أن تحدث الأشياء شبيهة به على قدر الإمكان ، فرأى أن العاقل أجمل من غير العاقل ، وأن العقل لايوجد إلا فى النفس، فصوَّر العالم كائناً حياً عاقلاً لا على مثال شىء حادث ، بل على مثال « الحى بالذات » أجمل الأحياء المعقولة الحاوى فى ذاته جميع هذه الأحياء ، كما أن العالم يحوى جميع الأحياء التى من نوعه » . فالعالم واحد لأن صانعه واحد ونموذجه واحد ، وهو كل محدود ليس خارجه ما يؤثر فيه ويفسده ، فلا تصيبه شيخوخة ولامرض وهو كروى لأن الدائرة أكمل الأشكال ومتجانس يدور على نفسه فى مكانه . أما نفسه فهى سابقة على الجسم صنعها الله « من الجوهر الإلهى البسيط والجوهر الطبيعى المنقسم ومزاج من الإثنين » . فكانت غلافاً مستديراً للعالم تحويه من كل جانب « وتتحرك حركة دائرية وتحرك الباقى » وتترك المحسوس المنقسم والمعقول البسيط » ، وتنفعل بالسرور والحزن ، والخوف والرجاء ، والمحبة والكراهية ، وتملك أن تخالف قانون العقل فتصير شريرة حمقاء وتضطرب حركتها فتنزل النكبات بالعالم . أما جسم العالم فلما شرع الله فى تركيبه أخذ ناراً ليجعله مرئياً ، وتراباً ليجعله ملموساً ، ووضع الماء والهواء فى الوسط .

www.dvd4arab.com

وفى تيماوس أيضاً — كما يذكر زيلر — فإن أفلاطون يعرض أيضاً لمذهب تناسخ الأرواح . فهو يذهب إلى أن ثمة سلسلة من التدهور المستمر فى خلق الموجودات . فالنساء خلقن من أصلاب الرجال ، وكذا فإن أنواع الحيوانات المتباينة خلقت ابتداء من أرقاها إلى أحطها مأخوذة من أصلاب البشر . والواقع أن أفلاطون فى مناقشته للجسم البشرى قد استخدم ثروة من التفاصيل الطبية فى هذه المحاورة . وهذا يدل على معرفته بالأطباء الفيثاغوريين مثل الكمايون وغيره من الأطباء . وأعظم الكائنات الحية هى النجوم وبخاصة الكواكب التى تدور حول الكرة الأرضية التى تظل ثابتة فى مركز الكون . وعندما تعود جميع الكواكب إلى أوضاعها الأصلية ، فعندئذ تكون قد بلغت من العمر عشرة آلاف سنة . وهكذا نجد أن الكون ككل هو كائن حى عظيم يشتمل على الكائنات المائتة والخالدة معاً ، وهى نسخة من الله الذى يفهم بالفكر ، وهو كبير جداً وجميل للغاية وعظيم وكامل تمام الكمال . وهذه الآراء نجدها عند أفلاطون فى كتابه « القوانين » باستثناء تعديلين هما خروج الأرض من مركز العالم ودخول الروح الشريرة فى روح العالم.

* * *

الفصل الثامن عشر

ارسطو

(٣٨٤ — ٣٢٢ ق م)

ترتبط حياة أرسطو وشخصيته بمقدونيا بالقرب من البلدة التى ولد بها . والواقع أن مقدونيا قد لعبت خلال القرن الرابع قبل الميلاد دوراً حاسماً بشكل مطّرد فى حياة الشعب اليونانى . فهى تقع بمنطقة كان يطلق عليها عادة اسم اليونان الشمالية .

وأرسطو هو ابن نيكوماخوس الذى كان يشتغل طبيباً خاصاً للملك المقدونى أمينتاس . وجرياً وراء التقاليد ، فقد خضع أرسطو فى طفولته للتعليم الذى كان يلقنه له والده ، وكان عبارة عن المبادئ العلمية التى تتعلق بفنه . وبذا فإنه منذ السنوات الأولى من حياته اتجه عقله إلى الدراسة الواقعية . وبعد وفاة والده استمر تعليم أرسطو فى ظل توجيه مرشده بروكسينوس .

أما عن الدراسة التى حصل عليها أرسطو قبل التحاقه بأكاديمية أفلاطون ، فإن ما يقال عنها لايعدو أن يكون مجرد تخمين . ذلك أن باقى المصادر تؤكد أن أرسطو لم يصل إلى أثينا إلا وهو فى السابعة عشرة أو الثامنة عشرة . والمرجح أن أرسطو قد التحق بأكاديمية أفلاطون دون أن يكون قد تلقى دراسة فلسفية مُسبقة .

ولقد قبل أكثر من هذا إن أرسطو قبل أن يلتحق بالأكاديمية كان قد درس البلاغة على يد الخطيب الشهير أيسوقراط (٤٣٦ — ٣٢٨ ق م)

www.dvd4arab.com

وأنه لم يلتحق بالأكاديمية إلا بعد أن بلغ الثلاثين بعد أن تبرم بالبلاغة . ولكن مهما يكن من شيء فإن ما حصل عليه أرسطو من تلمذته على يد أيسوقراط لا يقاس إلى ما أفاده من تلمذته على يد أفلاطون بالأكاديمية .

والواقع أن مدرسة أيسوقراط البلاغية كانت ذات شهرة واسعة فى ذلك الوقت . وكانت معروفة أكثر من مدرسة أفلاطون . ولقد أنشأها أيسوقراط فى حوالى عام ٣٩٣ ق م ، أى قبل إنشاء الأكاديمية بما لايقل عن خمس أو ست سنوات . وهناك بعض المصادر الأخرى تقول إن المدرستين قد أنشئتا فى وقت واحد . ومما لاشك فيه أن أيسوقراط كان خطيباً نابغاً ، وقد بدأ فى جذب طلاب البلاغة إليه من كل حدب وصوب باليونان . فليس إذن من المستغرب أن يكون أرسطو قد بدأ تعليمه بمدرسته .

وأكثر من هذا فإن من يقوم بمدارسة فلسفة أرسطو يكتشف حبه العظيم للبلاغة ، كما أن بحثه تحت عنوان « البلاغة » يؤكد خبرته الواسعة وحصافته فى هذا المجال ، كما يؤكد حبه للبحوث المتعلقة بها . وحتى فى فلسفته النظرية فإننا نجده قد كرس مكانة هامة للبلاغة ، بل إنه يطلق على منهجه الأساسى فيما يتعلق ببحوثه المنطقية — وهو المنهج الذى يدعو إليه فى مقالته بعنوان « مقالات » — اسم « المنهج البلاغى » . ومن المعروف أيضاً أنه عندما التحق بالأكاديمية فقد عهد إليه أن يقوم بتدريس منهج خاص ، وذلك بإلقاء محاضرات تنصب أساساً على البلاغة .

والواقع أن التقارير الخاصة بتاريخ حياته التى تشير إلى ما نشأ من خلاف بين أرسطو وأيسوقراط ، فإنها تعزى إلى أن أرسطو صاحب فكر مستقل وأصالة ترفض الإذعان . ومن الملاحظ أيضاً أن البحوث

الأولى التى قام أرسطو بتأليفها بعد التحاقه بالأكاديمية تتسم أيضاً بميل إلى البلاغة . ومن الجدير بالذكر أن أيسوقراط فى شبابه كان فى لاريسا بشمال اليونان حيث كان على علاقة بجورجياس (٤٨٣ — ٣٨٠ ق م) الذى لم يكن ذا شهرة ذائعة كسوفسطائى فحسب ، بل أيضاً كخطيب موهوب . إذن فمن الممكن أيضاً أن يكون أرسطو قد درس البلاغة عندما كان لا يزال فى الشمال قبل وصوله إلى أثينا .

وفى سن الثامنة عشرة توجه أرسطو إلى أثينا والتحق بالأكاديمية حيث ظل هناك عشرين عاماً حتى وفاة أفلاطون على الأرجح . ولقد أظهر أرسطو تفوقاً ونبوغاً إلى أن بلغ الرشد . ولقد كان الانطباع الذى تلقاه من الأكاديمية عميقاً جداً بحيث ترك آثاراً فى فكره غير قابلة للذبول أو المحو ، وظل لمدة طويلة قبل أن يتسنى له أن يتحرر من تأثير أفلاطون وأن يشق لنفسه خطوطاً جديدة غير مسبوقة .

وبعد موت أفلاطون ترك أرسطو أثينا ، وذلك بلا شك لأنه صار مستقلا فى تفكيره . على أن رحيله عن أثينا لايعنى انقطاع صلته بالأكاديمية فتعاونه مع أكسينوقراط أنشأ فرعاً للأكاديمية فى أسوس وظل يعلم فيها ثلاث سنوات . وهناك استطاع تلاميذ أفلاطون أن ينجحوا فيما أخفق فيه أستاذهم أفلاطون فى صقلية ، إذ أنهم استطاعوا أن يكسبوا صداقة الأمير الحاكم وأن يؤثروا فيه سياسياً وأخلاقياً . فلقد أعطى الأمير هرمياس أرسطو ابنة أخيه بيثياس ، وهى فى الوقت نفسه ابنته بالتبنى وزوّجها له . وهناك أيضاً صار ثيوفراسطس تلميذاً لأرسطو . وأغراه بأن يقيم فى ميتيلين ، وهى بلدة ليست بعيدة عن مسقط رأس ثيوفراسطس . وفى السنة التالية ، أى فى عام ٣٤٣ ق م ، تلبى دعوة من فيلب ملك مقدونيا للإقامة فى بيللا للإشراف على تعليم ابنه الإسكندر الذى كان عمره

Loolaa
www.dvd4arab.com

عندئذ ثلاثة عشر عاماً ، واستمر فى عمله كرب له إلى أن بلغ ستة عشر عاماً ، فأعلن والده أنه قد بلغ سن الرشد وعينه نائباً له ليحل محله عند تغيبه لسبب أو آخر .

ولا شك أن هرمياس الذى عقد تحالفاً مع فيليب تحسُّباً للحرب التى كانت على الأبواب بين مقدونيا والفرس ، كان صاحب الفضل فى إسناد تعليم الإسكندر إلى أرسطو . وظل أرسطو فى مَعِيَّة الإسكندر إلى أن قام الأخير بحملته إلى آسيا . ولقد قام الإسكندر بإعادة بناء مسقط رأس أرسطو اعترافاً بفضله عليه ، وقد أخذ أرسطو فى تحذير الإسكندر من معاملة الهلينيين والبرابرة على قدم المساواة . ولم تنقطع صُلة أرسطو بالإسكندر إلا بعد قتله ابن أخيه كاليستين بعد اتهامه بالضلوع فى مؤامرة ضده .

بيد أن برتراند رسل يحذر من أن كل ما يتعلق بالعلاقات التى نشأت بين أرسطو والإسكندر ليس مؤكداً ، بل إن القصص الخرافية قد حيكت بإزاء تلك العلاقة . فزعم البعض أن ثمة خطابات كانت متبادلة بين الرجلين ولكنها خطابات منحولة على الأرجح . والواقع أن المعجبين بأرسطو والإسكندر ينحون إلى الاعتقاد فى أن أرسطو كان له تأثير بعيد المدى فى شخصية الإسكندر . فنجد أن هجل Hegel يعتقد أن ما أبداه الإسكندر من ممارسات ، إنما يدل على الجانب المفيد عملياً من الفلسفة . بيد أن بن A. W. Benn يقول : « إنه لمن المؤسف لو أن الفلسفة لم تقدم شهادة على وجودها سوى ما اتصف به الإسكندر من أخلاق دنيئة ... الغطرسة والسكر والقسوة والانتقام والاعتقاد فى الخرافات بشكل صارخ . ذلك أن الإسكندر قد جمع فى شخصيته جميع تلك الرذائل الجنونية والاستبدادية » .

على أن رسل يتخذ موقفاً مباينا لموقف بن . فعلى الرغم من أنه يعترف بما ذكره بن عن أخلاق الإسكندر الدنيئة ، فإنه يعتقد مع ذلك أن ما اضطلع به كان على أكبر جانب من الأهمية والفائدة ، فحَسْبه أنه حافظ على الحضارة الهلينية . فلولاه لكانت قد مُحِقت وتلاشت من الوجود . أما عن تأثير أرسطو فى الإسكندر ، فإن أمامنا الخيار فى الانتقاء من بين الاحتمالات المتباينة المتوافرة أمامنا . وبالنسبة لرسل فإنه يعتقد أن تأثير أرسطو فى الإسكندر كان منعدماً تماماً . ذلك أن الإسكندر كان صبياً عنيداً ومندفعاً وفاتر العاطفة . فلم يكن على وفاق مع والده ، والأرجح أنه لم يكن صبوراً بإزاء التحصيل المعرفى . ولقد ذهب أرسطو إلى أن التعداد النموذجى لسكان الدولة يجب ألا يزيد عن مائة ألف مواطن ، كما أنه كان يدعو إلى مذهب التوسط الذهبى golden mean .

ومن المؤكد أن الإسكندر كان ينظر إلى معلمه باعتباره شخصاً غير عملى ، وقد عينه والده كرب له لكى يحول بينه وبين اقتراف ألوان السلوك الرديئة . ولكن الواقع أن الإسكندر كان يبدى الاحترام المبالغ فيه للحضارة الأثينية من منطلق شعوره بالنقص باعتباره مقدونياً ، بيد أن هذا الاتجاه كان سمة مشتركة بين أسرته المالكة التى كانت ترغب فى البرهنة على أنهم لم يكونوا برابرة . وكان موقفهم شبيهاً بموقف الطبقة الأرستقراطية من الروس خلال القرن التاسع عشر تجاه أهل باريس . وهذا بالتالى لم يكن بفضل تأثير أرسطو فى تلميذه . ومعنى هذا أن تأثير أرسطو فى الإسكندر كان منعدماً تماماً كما يؤكد رسل ذلك .

وبالإضافة إلى هذا فإن تأثير الإسكندر فى أرسطو كان ضئيلاً .

Looloo
www.dvd4arab.com

فنجد أن ما ذهب إليه أرسطو بإزاء دولة المدينة Sity State كان غير متمش تماماً مع عصر الإمبراطوريات . ويعتقد رسل أن رأى أرسطو فى الإسكندر حتى النهاية كان مشوباً باحتقار ذلك الولد الكسول والعنيد الذى لا يستطيع بحال أن يستوعب شيئاً من الفلسفة . فالعلاقة بين أرسطو وتلميذه كانت خالية من التأثير المتبادل فيما بينهما كما لو أنهما كانا يعيشان فى عالمين متباينين .

وفى أثناء ذلك قام أرسطو فى عام ٣٣٥ بالإقامة فى أثينا حتى عام ٣٢٣ ق م ، وهى السنة التى مات فيها الإسكندر . وفى خلال هذه الفترة قام بتأليف معظم كتبه ، كما قام بإنشاء مدرسته بالجزء الشرقى من المدينة ، وسميت تلك المدرسة بمدرسة المشّائين ، لأن أعضاءها كانوا يناقشون المسائل العلمية بينما كانوا يسيرون ذهاباً وإياباً . ولقد أنشئت المدرسة تحت رعاية المقدونيين . وعندما مات الإسكندر ، فإن الأثينيين قاموا بالثورة وتربصوا بأصدقائه ومن بينهم أرسطو الذى اتهم بالخروج على الدين ، ولكنه خلافاً لسقراط هرب من أثينا لتحاشى العقوبة . ولكنه مات فى العام التالى ، أى فى عام ٣٢٢ ق م .

وإلى جانب أوجه الشبه بين مدرسة المشّائين وبين أكاديمية أفلاطون فإن مدرسة أرسطو قد استحالت إلى منظمة علمية ذات مكتبة ضخمة وضمت فى رحابها العديد من الأساتذة ، كما خضعت لنظام ثابت ومحدد لإلقاء المحاضرات التى كانت تعاليم أرسطو الأساس فيها . ولقد استمر هذا الفيلسوف العملاق نشيطاً فى توجيه وتعليم تلاميذه العديدين إلى ما قبل موته بوقت قصير . على أنه بعد موت الإسكندر وقيام الحزب القومى بزعامة ديموستين ، صار ينظر إلى مدرسة أرسطو بعين الريبة بسبب علاقتها الوثيقة بالمقدونيين .

ويقال إن أرسطو منذ مطلع شبابه لم يكن ملتزماً بأن يحظى مظهره الخارجى بالقبول من جانب المحيطين به برغم كلفه الشديد به ، كما أنه لم يكن متمتعاً بالوسامة ، فكان هزيل الجسم وذا ساقين هزيلتين معوجتين وذا عينين ضيقتين ، كما أنه كان يتلعثم وهو يتحدث إلى من يوجه إليه الحديث . ولكنه صار فيما بعد مهتماً بارتداء أفخم الملابس لكى يعوض نفسه عن سوء خلقته ، كما يقال إنه كان يرصّع أصابعه بالكثير من الخواتم الغالية ، ويصفف شعره بطريقة غير مألوفة لكى يلفت الأنظار نحوه .

ويبدو أن أرسطو فى شبابه كان محباً للتظاهر بما كان يرتديه من ملابس ملفتة للأنظار ، كما كان يبدو فى حديثه متكلفاً ، كما كان سلوكه الخارجى بوجه عام يثير سخط الكبار من حوله وبخاصة أولئك الكَلِيفين بالوقار . ولكن الحق يقال إن أرسطو فى أعماله التى ألفها بعد نضجه فلسفياً يبدو فيلسوفاً ينوط كل اهتمام بالمسائل الروحية ، كما أنه فى سلوكه الشخصى كان عازفاً عن تُرَّهات الحياة اليومية والمظاهر الخارجية الفارغة . ولكن يبدو أنه لدى التحاقه بأكاديمية أفلاطون كان ما يزال متلبساً بعادات شبابه المتسمة بالسطحية والاهتمام بالمظاهر الخارجية . وواضح من وصف أفلاطون لشخصيته أنه كان شخصاً عنيداً فيقول عنه إنه شبيه بالمهر الذى يحتاج إلى لجام يوقفه عند اللزوم .

أما بخصوص عاداته الاجتماعية فإنها تهم من يقوم بمدارسة حياته وفكره ، وذلك لأنها تخص فيلسوفاً ذائع الصيت مثل أرسطو . فيقال إنه كان على جانب كبير من الغرور والغطرسة ، كما أنه كان شخصية طموحة وبخاصة فى أواخر أيامه . وقد عرف عنه أنه كان يبدى مضايقة شديدة بإزاء ما صدر ضده من قرارات فى دلفى . ولكنه لم يكن يبدى

Loolaa
www.dvd4arab.com

اهتماماً بذلك ، مؤكداً أن تلك القرارات لن تؤثر على صيته وسمعته العظيمة . بيد أنه قدم الشكاوى إلى أنتيباتر نائب الإسكندر الأكبر فى اليونان .

والواقع أن الدارسين لشخصية أرسطو قد اهتموا بإلقاء الضوء على أوجه الشبه بينه وبين أستاذه أفلاطون وأوجه الاختلاف بينهما . وثمة بعض المصادر قد صورت أوجه الاختلاف على أنه بلغ مستوى العداء بينهما . صحيح أن مبالغة أرسطو بمظهره قد جعلت أفلاطون يشمئز منه ويتضايق من وجوده ، معتبراً أن هذا النوع من السلوك حتى ولو كان يخص شاباً يافعاً ، فإنه لا يليق بأى حال بالفيلسوف الخليق بهذا النعت . أضف إلى هذا ما كان يهتم به أرسطو من عناية زائدة عن الحد بلحيته وملبسه وبحذائه ، كما أنه كان يقص شعر رأسه مخالفاً ما كان شائعاً وقتئذ ، كما أنه كان يتباهى بالخواتم التى كان يزين بها أصابعه . ولقد كان يبدو فى ملامح وجهه ما ينم عن التهكم وعدم التقبل والاستهتار بما يقال . وكان نتيجة ذلك أن أفلاطون كان يتحاشى مصاحبته مفضلاً عليه أكسينوقراط وأسبيوسبس وبعض تلاميذه الآخرين .

ويقال إن أرسطو لم يقف مكتوف اليدين أمام إهانات أفلاطون أستاذه له ، بل أخذ فى مهاجمته بوقاحة . وكان من نتيجة موقفه المستمر انفصالها بعضهما عن بعض وإنشاؤه لمدرسة مستقلة له . أما تعليق أفلاطون على سلوك أرسطو فهو وصفه بأنه شبيه بالمهر الذى يرفس أمه . وأفلاطون يشير بهذا إلى إنكار أرسطو للجميل الذى أسداه له بتعليمه فى الأكاديمية . ولقد اختار أرسطو موقعاً لمدرسته فى مواجهة الأكاديمية ، وكان يمشى حول المكان مع أصدقائه فى تحد لأستاذه

أفلاطون . ويقال إنه ترك الأكاديمية وبنى مدرسته قبل وفاة أفلاطون بينما يؤكد بعض الدارسين أن أرسطو ظل بالأكاديمية حتى وفاة أستاذه .

أما عن قصة نزوح أرسطو من مسقط رأسه إلى أثينا ، فيقال إنه قرر فى عام ٦/٣٦٧ ق م أن يتوجه إلى أثينا ليشرف على ضيعة أبيه ، ولكنه بددها واضطر إلى العمل فى الجندية ، ولكنه ما لبث أن اشتغل بالطب . وفى ذات يوم بينما كان يستمع إلى إحدى المناقشات الفلسفية قرر أن يكرس حياته للفلسفة .

وعلى الرغم من أن أرسطو قد نشأ فى رحاب أسرة كانت تشتغل بالطب وأنه من ثمة قد درس الطب بنفسه ، فإنه لم يعمل كطبيب محترف . ولكنه خلال حياته ظل مهتماً بالمسائل الطبية ، فاحتل مبحث الطب مكانة ممتازة فى بحوثه الفلسفية ، فكان يقوم بشرح بعض من جوانبها العميقة بأمثلة كان يستقيها من ممارسة الطب . وأكثر من هذا فإنه بلا شك قد اتخذ موقفاً علمياً بإزاء الطب ، كما كان يتخذ موقفاً نقدياً بإزاء ما يقدمه من تشخيصات .

بيد أن موقف أرسطو من الطب ، وكذا موقف أفلاطون منه ، كان مبايناً عن موقف الفيثاغوريين الذين انهمكوا فى ممارسة الطب . ويقال إن أرسطو قد مرض ذات يوم وعندما قام الطبيب بتشخيص المرض ووصف العلاج ، فإنه طلب منه ألا يعالجه كما يعالج أحد رعاة الغنم أو الفلاحين ، بل عليه أن يقوم بشرح المرض له وأسبابه ومايتصف به وإلقاء الضوء على تأثير العقار الذى يصفه له فى تحسين حالته وشفائه . وبذا فإن أرسطو أثبت عدم استعداده لإتباع الوصفات الطبية دون أن يعرف الأسباب التى تختفى وراء أعراض المرض .

www.dvd4arab.com

أما أرسطو كفيلسوف ، فإنه مختلف من زوايا متباينة عن أسلافه من الفلاسفة . فهو أول فيلسوف قام بالكتابة كأستاذ متحكم فى قلمه ، فكتاباته منظمة إلى أبعد حد . أما مناقشاته فإنها مقسمة إلى رءوس موضوعات . أضف إلى هذا أنه معلم متمكن ومتمرس بأصول التعليم ، وليس نبياً ملهماً . أما عمله فإنه متصف بالروح النقدية وخال تماماً من العواطف الفياضة . أما بالنسبة للعناصر الأورفية التى ظلت معتملة فى أعمال أفلاطون فإنها تُقُصِّيت على يد أرسطو وامتزجت بجرعة قوية من الواقع والفكر العادى ، ولكنه مع ذلك لم ينفض عن فلسفته ما اتسم به الطابع الأفلاطونى . بيد أنه لم يكن مفعماً بالعاطفة ولم يكن متصفاً بالإحساس الدينى العميق . والواقع أن الأخطاء التى وقع فيها السابقون عليه كانت هى ذاتها الأخطاء التى يقع فيها الشباب الذين يحاولون المستحيل . أما عن أخطائه هو فإنها أخطاء الشيوخ الذين لا يتسنى لهم التحرر من انحيازاتهم التى اعتادوا عليها . فأرسطو كان عظيماً ببزاء التفاصيل وببزاء النزعة النقدية ، ولكنه لم يستطع النجاح فى إقامة بناء ضخم متكامل فى رأى رسل ، وكان ذلك راجعاً إلى الافتقار إلى وضوح الرؤية .

وإذا نحن تأملنا فلسفة أرسطو ، فإننا نلاحظ أولاً ذلك الترابط الوثيق بأستاذيه السابقين سقراط وأفلاطون . بيد أن ذلك الترابط لا يعنى أن فلسفة أرسطو ليست سوى امتداد لفلسفة أفلاطون . صحيح إن أرسطو قال أيضاً بالمثُل باعتبارها النماذج التى يشير إليها الواقع . بيد أن المثُل التى قال بها أرسطو ليست مثُلاً موجودة فى عالم آخر هو العالم الروحانى كما زعم أفلاطون ، وإنما هى مُثل محصورة فى نطاق العقل البشرى . وكما يقال دائماً فإن أفلاطون صعد بمثُله إلى السماء ، بينما

قام أرسطو بإنزالها إلى الأرض . وبينما شكك أفلاطون فى المحسوسات التى ندركها بالحواس الخمس ، فإن أرسطو جعل تلك المحسوسات مصدراً للمعرفة ولكنها ليست المعرفة التى يعتمد عليها . فهناك عند أرسطو قوتان أساسيتان فى مُكنة المرء: القوة الأولى هى قوة الإدراك ، والقوة الثانية هى قوة التصور أو تحويل المدركات الجديدة إلى مفاهيم تجمع تحتها تلك المدركات الجديدة .

ولعلنا نزعم أن تفكير أرسطو كان تفكيراً تحليلياً تركيبياً فى الوقت نفسه . فمن حيث كونه تفكيراً تحليلياً فإنه يتضح فى نقطة البداية حيث يحاول الغوص إلى الأسس الغائرة تحت سطح المدركات الحسية . أما من حيث كونه تفكيراً تركيبياً فإنه يتضح فى تجميع الكثير من المدركات الحسية تحت مفاهيم أشمل وأعم . وعلى الرغم من أنه أخذ عن أستاذه أفلاطون مفهوم الشكل ، فإنه يستخدمه بطريقة جديدة . فالشكل لديه متضمَّن فى الأشياء، وهو السبب الذى يعبر عن نفسه من خلالها ويعطيها هيئتها الخارجية . بيد أن فلسفته فى الواقع تشبه فلسفة سقراط وأفلاطون من حيث إنها ترنو إلى إبراز أهمية المفاهيم أو التصورات الذهنية وجعلها فى مركز البؤرة من الفكر . بيد أن أرسطو قد نزع الفلسفة من الأدب والفن . فبينما نشاهد فى أعمال أفلاطون أدباً وخيالاً يستهوى خيال الأدباء ، فإن أعمال أرسطو تركز على الفكر والمنطق، كما أنها تحقق ترابطاً متيناً بالواقع وعدم الاحتفال بعالم بعيد عن المجال الإنسانى يمكن أن يسبح فيه خيال الشاعر ويهفو إليه قلب الفنان . فأسلوب أرسطو يتسم بالإيجاز والتركيب والتركيز والوضوح والواقعية وبخصوبة المصطلحات الفلسفية .

www.dvd4arab.com

ولعل أول مايجول بالخاطر بإزاء فلسفة أرسطو هو نقده لنظرية المثل وإحلاله محلها مذهب الكليات doctrine of universals . ولقد بدأ أرسطو بتوجيه سهام النقد إلى نظرية المثُل كما وردت عند أفلاطون فى محاورة بارمنيدس Parminides . ولعل أقوى ما قدمه أرسطو من براهين ضد نظرية المثل — فى رأى رسل — برهان « الإنسان الثالث » «third man» . فإذا كان الإنسان إنساناً لأنه يشبه إنساناً مثالياً ، فلا بد أن يكون هناك بالتالى إنسان مثالى آخر يكون الإنسان العادى والإنسان المثالى على منواله . أضف إلى هذا أن الإنسان هو من جهة إنسان ومن جهة أخرى حيوان ، ومن ثم ينشأ السؤال عما إذا كان الإنسان المثالى هو أيضاً حيوان مثالى . فإذا كانت الإجابة بالإيجاب ، فلا بد أن تكون هناك حيوانات مثالية كثيرة ، كما تكون هناك أنواع من الحيوانات المثالية .

ويعتقد رسل أن ميتافيزيقا أرسطو يمكن أن توصف بأنها هى ميتافيزيقا أفلاطون مخففة بواسطة الفكر الواقعى العادى والبديهى . بيد أن المزج بين مثالية أفلاطون وبين الفكر الواقعى العادى والبديهى من الصعوبة بمكان . فعندما يتناول المرء ميتافيزيقا أرسطو ، فإنه يعتقد أنه يتناول وجهات نظر عادية تصدر عن شخص ليس له اهتمام بالفلسفة ولكنه ما يفتأ يجد أمامه فكر أفلاطون مصاغاً فى قوالب جديدة .

وعند أرسطو ثلاثة علوم : العلوم النظرية ، والعلوم العملية ، والعلوم الشعرية . وأكثر من هذا فإن النوع الأول ينقسم إلى الفيزياء والرياضيات والميتافيزيقا (أطلق عليها اسم الفلسفة الأولى) أو اللاهوت . أما العلوم العملية فإنها تتشعب إلى علم الأخلاق وعلم السياسة ، برغم أنه يطلق على النوعين اسم علم السياسة .

أما المنطق عند أرسطو فإنه يعتمد على ما سبق أن أرساه كل من سقراط وأفلاطون ، ولكنه يمتد به إلى أبعد حد ، بحيث جعل منه كياناً قائماً بذاته ، بل جعل منه أداة ذهنية هيمنت على فكر المفكرين والفلاسفة والعلماء قروناً عديدة ، لدرجة أنه صار فى أنظار البعض بمثابة لجام أو صَفْد يَحُدّ من حريتهم الفكرية . ويعتمد منطق أرسطو على سبيلين أساسيين : القياس وهو النزول من القاعدة العامة أو المفهوم إلى الجزئيات . والاستقراء وهو الصعود من الوقائع الجزئية إلى القاعدة العامة أو المفهوم .

يقول برتراند رسل : إن أرسطو قد ظهر بفلسفته فى أواخر الفترة الإبداعية للفكر اليونانى . ولقد ظل العالم بعد وفاته لمدة ألفى عام قبل أن ينجب أى فيلسوف يمكن أن يعتبر فى مستواه . فمنذ بداية القرن السابع عشر كان كل تقدم فلسفى جاد يبدأ بالهجوم على جانب ما من جوانب فلسفة أرسطو . وهذا ما يزال حادثاً حتى الآن بإزاء المنطق الأرسطوطالى .

الميتافيزيقا عند أرسطو :

الواقع أن نظرية الكليات universals تتصدر الميتافيزيقا عند أرسطو . فاللغة نستخدمها باللسان أو بالقلم تتضمن الأسماء والصفات . والأسماء التى نسمى بها الأشياء والأحياء والناس تشير إليهم ، بحيث يشير الاسم إلى شىء بالذات أو إلى شخص بالذات . ومن جهة أخرى فإن ثمة أسماء تشير إلى فئات من الأشياء . من ذلك مثلا كلمة « شجرة » فهى لا تحدد شجرة بالذات ، بل ينسحب المعنى بإزاء أى شجرة هنا أو هناك ، وبإزاء أى شجرة كانت وكائنة وسوف تكون . وثمة أيضاً

الصفات ، كأن نقول أبيض وأسود وخفيف ونحو ذلك . فأرسطو يعنى بالكليات ما يشير إلى الفئات أو إلى الصفات . ولا تضم الكليات مفردات الأشياء أو الأشخاص .

وما يميز اسم العَلَم هو تلبسه « بمادة » أما ما يشير إلى صفة أو إلى فئة مثل حار أو إنسان ، فإن أرسطو ينعته بأنه « كلّى » . وبينما يتلبس الجزئى بمادة ما ، فإن الكلّى لايمكن أن يتلبس بأى مادة . ذلك أن مادة أى شىء هى حالة مرتبطة به بشكل خاص ، وهى قوام لا يعزى إلى أى شىء آخر . وعلى العكس من هذا فإن الكلّى يتصف بالعمومية ، إذ أن ما ينعت بأنه عام يعزى إلى أكثر من شىء واحد . ومعنى هذا أن الكلى لا يمكن أن يوجد بذاته ، بل يوجد فقط فى أشياء بعينها .

يقول رسل : إن مذهب الميتافيزيقا الأرسطية يبدو لأول وهلة بسيطاً للغاية . فأنا عندما أقول لك : « هناك شىء اسمه كرة القدم » فإنك ستقول : « هذه بديهية » . ولكن إذا زعمت أن كرة القدم يمكن أن توجد بغير لاعبين ، فإنك ستنظر إلىّ مندهشاً لأنى أقول كلاماً غير معقول . وعلى النحو نفسه فإنى لا أستطيع أن أقول إن هناك أبوة أو أمومة دون أن يكون هناك أولاد ، ولا أستطيع أن أقول إن هناك احمراراً دون أن يكون هناك شىء لونه أحمر . ولكن هذا التوافق لايتبدى إلا من طرف واحد ، بمعنى أن الأبوة أوالأمومة لا يوجدان دون وجود أولاد . ولكن الأب أو الأم كشخصين يمكن أن يوجدا أو كانا يوجدان قبل إنجاب الأولاد . وكذا يقال عن اللون الأحمر من حيث عدم إمكان وجوده بغير الشىء الذى يتصف بأنه أحمر . ولكن ذلك الشىء الذى يتصف بالاحمرار يمكن أن يكون أوكان أو سوف يكون دون أن يكون لونه أحمر .

ويقول رسل : إن ما قلناه هنا يستشف من استخدامنا للغة . فثمة أسماء الأعلام من جهة ، وثمة الصفات من جهة أخرى . ولكن أرسطو يفسر هذه العلاقة بين اسم العلم والصفة بطريقة ميتافيزيقية . فاسم العَلَم عنده مادة أو موضوع . أما الصفة فهى المحمول .

ويميز أرسطو أيضاً بين «الشكل» «form» وبين «المادة» «Matter» . على أن استخدام أرسطو للفظ « مادة » كمقابل « للشكل » أو الصيغة يختلف عن استخدام لفظ « مادة » كمقابل للفظ « عقل » .

ويورد رسل مثالاً بتمثال مصنوع من الرخام . فالرخام فى هذه الحال هو المادة ، بينما يعزى الشكل الذى يعطيه النحات لذلك الرخام إلى الشكل أو الصيغة . أما ما ذكره أرسطو بهذا الخصوص فهو قيام شخص بصنع كرة من البرونز . فالبرونز هو المادة ، والشكل الكروى الذى تلبَّس به البرونز هو الشكل أو الصيغة ، ويذكر أرسطو مثالاً آخر عن البحر الهادئ . فالماء هو المادة ، أما ما يتصف به ذلك البحر من هدوء وخلو من الأمواج فهو الشكل أو الصيغة .

وبالنسبة لجسم الإنسان ، فإن الجسم نفسه من حيث إنه كائن حى هو مادة ، ولكن الوظائف التى يضطلع بها هى الشكل أو الصيغة . خذ مثالاً بالعين . فالعين فى ذاتها مادة ، ولكن قيامها بالرؤية هو الشكل أو الصيغة . وهنا نجد أن أرسطو يقدم مبدأ جديداً هو مبدأ الغائية . فالعين إلى جانب كونها مادة ، فإنها تتلبس بشكل أو بصيغة غائية هى الرؤية . ولكن العين بعد موت صاحبها أو بعد إخراجها من مكانها ، تفقد قدرتها على الرؤية ، وبالتالى فإنها تستحيل إلى مادة ، وتكون عندئذ قد فقدت الشكل أو الصيغة الغائية التى كانت تضطلع بها قبل وفاة صاحبها أو قبل اقتلاعها من مكانها .

www.dvd4arab.com

والشكل أو الصيغة يكسب المادة وحدتها وغائيتها . بيد أنها تتضمن ما هو أكثر من هـذا عند أرسطو . فهو يعتقد أن شكل الشيء أو صيغته هو الجوهر وهو القوام الأساسى . فالأشكال جوهرية . فعندما يقوم شخص ما بعمل كرة من البرونز ، فإن المادة والشكل يوجدان قبل قيامه بصنع الكرة . وكل ما يقوم بعمله هو أنه يجمع فيما بينهما . فهـذا الرجل لم يقم بخلق الشكل أو الصيغة ، كما أنه لم يقم بخلق النحاس من العدم . وليس كل شيء يتضمن مادة . فثمة أشياء أزلية ليست مادة ، باستثناء تلك الأشياء التى يمكن أن تتحرك فى الفضاء . ولكن الأشياء تتزايد فى وجودها الواقعى بأن تكتسب شكلاً أو صيغة . فالمادة بغير شكل أو صيغة هى مجرد إمكانية Potentiality .

ويذهب رسل إلى نقد أرسطو بإزاء قوله إن الأشكال أو الصيغ هى جواهر substances ذات وجود مستقل عن وجود المادة التى تتمثل فيها . فهو يكون بذلك قد حطم ما وجهه من نقد إلى ماذهب إليه أفلاطون بإزاء نظرية المثُل Platonic Ideas . ذلك أن أرسطو يقول إن الأشكال أو الصيغ لها وجود حقيقى أقوى من وجود المادة . فهذا يذكرنا بحقيقة وجود المثُل الأفلاطونية . وعلى هذا فإن التغيير الذى فعله أرسطو بصدد ميتافيزيقا أفلاطون أقل خطورة بكثير مما زعمه .

ويورد رسل ما ذهب إليه زيلر بصدد مسألة المادة والشكل أو الصيغة على النحو التالى : « إن ما قال به أرسطو بإزاء « الأشكال » مماثل لما قال به أفلاطون بإزاء « المثل » ، فثمة فى الحالتين وجود ميتافيزيقى قائم برأسه ، يشكل شرطاً لازباً لوجود الأشياء المحسوسة أمامنا فى عالم الواقع » .

ويعتقد رسل أن أرسطو إذا كان يرغب فى أن يتميز من أستاذه أفلاطون ، فقد كان عليه إذن أن يذهب إلى القول بأن لكل موجود حسى جزئى شكلاً أو صيغة يتفرد بها ولا يشاركه موجود حسى جزئى آخر فيها .

والواقع أن ما ذهب إليه أرسطو بإزاء المادة والصورة أو الصيغة يرتبط ارتباطاً حميماً بما ذهب إليه بإزاء مفهومى الإمكانية potentiality ومفهوم التحققية actuality . وعنده أن الإمكانية ترتبط بالصور التى يمكن أن يتلبس بها الشيء أو الشخص . وكذا فإن التحققية ترتبط بالمادة . وعنده أيضاً أن الوجود الحقيقى منوط بالإمكانية أو الصورة . ذلك أن الإمكانية أو الصورة تتصف بالثبات وعدم التغير ، خلافاً للمادة أو التحقق فإنهما متغيران بل وزائلان . فروح الإنسان صورة أو إمكانية أما جسده فهو مادة أو تحققية . وعنـد أرسطو نجد أن الله متجرد من المادة ومن التحققية ، وهو صورة أو إمكانية صرفة . ولكنه لا يتلبس بجسد ، وبالتالى فإنه غير قابل للتغير بأى حال من الأحوال خلافاً للبشر .

الأخلاق عند أرسطو :

الخير عند أرسطو هو السعادة ، وهو عبارة عن نشاط يصدر عن الروح . ولقد قال أرسطو : إن أفلاطون كان على حق عندما قسم الروح إلى جزأين : أحدهما عاقل ، والآخر غير عاقل . وهو يقسم الجزء غير العاقل إلى جزء يغتذى كما هو الحال فى النباتات ، وجزء مُشْتَهٍ كما هو الحال عند الحيوانات . والجزء المشتهى قد يكون عاقلاً إلى حد ما ، وذلك عندما تكون المسرات التى يهفو إليها المرء متفقة مع ما يقول به العقل . وهذا يشكّل ركناً أساسياً فى تحديد معنى الفضيلة . ذلك أن العقل عند

Looloo
www.dvd4arab.com

أرسطو هو عقل تأملى بحت ، وأنه بغير مساعدة الشهوة فإنه لا يكون مفعماً بأى نوع من النشاط .

وثمة نوعان من الفضيلة عند أرسطو : نوع عقلانى intellectual ونوع آخر أخلاق moral ، جرياً وراء تقسيم الروح إلى جزأين . والفضائل العقلانية تأتى عن التعليم ، بينما تأتى الفضائل الأخلاقية عن التلبس بالعادات . ومن واجب المشرِّع أن يجعل المواطنين فضلاء ، وذلك بأن يشكِّل لديهم عادات طيبة . فنحن نصير عادلين وذلك بأن نقوم بأداء أعمال عادلة . والشىء نفسه ينطبق بإزاء الفضائل الأخرى. فإذا نحن أجبرنا على أن نتلبس ونكتسب عادات جيدة ، فإننا مع مرور الوقت — كما يعتقد أرسطو — سوف نجد المتعة فى الإتيان بالتصرفات الجيدة .

وثمة جانب هام فى الأخلاق عند أرسطو هو الوسط الذهبى golden mean . فكل فضيلة هى وسط بين طرفين متباعدين كلاهما رذيلة . ولقد برهن أرسطو على ما ذهب إليه بالقيام بتناول العديد من الفضائل . فالشجاعة وسط بين الجبن والتهور . والكرم وسط بين البخل والتبذير ، والثقة بالنفس وسط بين الغرور والضعة .. إلخ .

* * *

الفصل التاسع عشر

ابيقـــور

EPICURE

(٣٤١ — ٢٧٠ ق م)

ولد فى أسرة فقيرة فى ساموس بجوار أثينا فى عام ٣٤١ ق م ، وقضى صباه فى ساموس . قال إنه بدأ فى دراسة الفلسفة وهو فى الرابعة عشرة . وفى الثامنة عشرة فى الوقت الذى توفى فيه الإسكندر تقريباً ، ذهب إلى أثينا لكى يثبت جنسيته ، ولكنه وهو هناك صدر أمر بطرد المستعمرين الأثينيين من ساموس ، فصارت أسرته من اللاجئين فى آسيا الصغرى . وفى عام ٣١١ أنشأ مدرسته التى كانت بميتيلين فى بادئ الأمر ثم فى لامباسكوس ، ثم استقرت منذ عام ٣٠٧ فى أثينا ، حيث توفى فى عام ٢٧٠ ق م .

وبعد سنوات من المعاناة فى شبابه ، فإن حياته فى أثينا كانت هادئة ولم يكن يعكر صفوها سوى صحته العليلة ، فصار لديه بيت وحديقة ، وقد كان يعلِّم بالحديقة التى كانت منفصلة عن البيت . وكان إخوته الثلاثة وغيرهم من بين أعضاء مدرسته منذ البداية ، ولكن اتسعت دائرة تلاميذه بأثينا ، كما اتسعت دائرة معارفه من الأصدقاء بل ومن العبيد أيضاً . وكان يتمتع بروح الصداقة الإنسانية النقية ، وقد قام بكتابة خطابات لطيفة إلى الأطفال الصغار من أبناء جلدته وكانت حياة جمعيته بسيطة للغاية ، وكان الطعام الأساسى المقدم على المائدة المشتركة هو الخبز

www.dvd4arab.com

والماء ، وكان أبيقور يجد فيهما الكفاية . وكانت جماعته تعتمد فى سد نفقاتها على المساهمات المالية الاختيارية .

استهدفت فلسفة أبيقور ضمان الهدوء . واعتبار اللذة شيئاً جيداً . يقول فى هذا الصدد : « إن اللذة هى البداية والنهاية للحياة المباركة » . واللذة التى يعنيها هى لذة المعدة ولذة الحواس . وحتى بالنسبة للذات العقلية والقلبية الوجدانية فإنها ترتكز على اللذة الجسمية وتنبثق منها . والفضيلة فى رأيه هى الحكمة فى ارتشاف اللذة .

ولا يتفق أبيقور مع بعض السابقين عليه القائلين بالنهم فى ارتشاف اللذة ، وذلك بتمييزه فيما بين اللذات الإيجابية واللذات السلبية ، أو بين اللذات الديناميكية واللذات الساكنة . وتتجه الملذات الدينامكية إلى التوصل إلى غاية مرغوبة بعد الإحساس بالألم . أما الملذات الساكنة فإنها تتشكل من حالة من الاتزان وتجنب الألم .

ولعلنا نزعم أن فلسفة أبيقور تنحو بصفة أساسية إلى تجنب الألم أكثر من الحصول على اللذة . ذلك أن المعدة المملوءة قد تصيب المرء بالتخمة ولكن الاستمرار فى حالة الشبع بغير تعرض للجوع وبغير امتلاء المعدة بما لا طاقة لها به ، فإنه الكفيل بإحراز الحياة السعيدة ، بل يترتب على ذلك أيضاً الاستمتاع بالمتع العقلية والروحية .

وعلى هذا الأساس فإن أبيقور اعتمد فى تناول طعامه على تناول الخبز فقط ، ولكنه فى أيام الأعياد كان يأكل الجبن أيضاً . وهو يعتقد أن الرغبات المتعلقة بالثروة والجاه إنما هى رغبات زائفة ، وذلك لأنها تجعل الإنسان فى حالة من القلق بينما هو يصبو إلى الرضى . فالخير الأسمى يتمثل إذن فى الفطنة أو فى استشراف العواقب . فذلك هو السبيل لتحقيق

الحياة السعيدة . والمسألة لا تتطلب أكثر من اعتمال البداهة بغير اعتماد على المنطق أو على الرياضيات أو على التدريب المقصود الذى قام أفلاطون بتحديده . وأبيقور يدعو إلى الهرب من أى شكل من أشكال الثقافة . وكان من النتائج الطبيعية لمبادئه أن صار ينصح بتجنب الحياة العامة ، وذلك لأنه كلما أحرز الإنسان قدراً من القوة والتأثير فى الآخرين ، زاد بالتالى عدد الأشخاص الذين يحسدونه ويتمنون له الضرر . فالإنسان العاقل هو ذاك الذى يحاول العيش فى الظل بعيداً عن الأنظار ، وبذا لا يكون له أعداء .

أما بالنسبة للجنس فإن أبيقور يرى أن الزواج مدعاة لجلب الشقاء . ومن ثم فإنه ينبذ الزواج وإن كان يبدى إعجابه بالأطفال الصغار . فالعلاقات الجنسية لم تجلب للإنسان أى خير . ولكن أبيقور يؤمن بالصداقة ويرى فيها الأمان .

ومن خلال مشكلة تجنب الخوف انتهى أبيقور إلى فلسفة نظرية . فهو يرى أن هناك مصدرين أساسيين للخوف هما الدين والخوف من الموت . وهذان النوعان من الخوف يرتبطان بعضهما ببعض ، حيث إن الدين يشجع وجهة النظر القائلة إن الموتى تعساء ولا ينعمون بالسعادة. وواضح أن أبيقور — وهو الذى عاش فى القرن الرابع قبل الميلاد — كان يعنى الدين الشائع لعهده ، ومن ثم فإنه انتحى إلى البرهنة على أن الآلهة لا شأن لها بالمسائل الإنسانية ، وأن الروح تتحلل مع الجسم . وبينما نجد أن الناس المعاصرين ينظرون إلى الدين باعتباره وسيلة للعزاء ، فإن أبيقور شاهد فيه العكس ، ووجد فيه الشقاء والخوف . وعلى هذا الأساس فإنه شيد مذهباً يرنو إلى علاج الناس من المعتقدات التى تشيع الخوف فى قلوبهم .

Looloo
www.dvd4arab.com

وعلى الرغم من أن أبيقور كان مادياً ، فإنه لم يكن جبرياً . إنه جارى ديموقريطس فى الاعتقاد بأن العالم مكون من ذرات ومن الخلاء، ولكنه لم يعتقد — كما ذهب ديموقريطس — أن الذرات محكومة فى جميع الأوقات بالقوانين الطبيعية . فلقد كان مفهوم الضرورة عند اليونان دينياً فى أصله ، فاعتقد أبيقور أنه إذا لم يتمكن من تحطيم الضرورة بالكامل ، فإنه لا يكون بذلك قد حطم الدين . والروح فى رأيه مادية أيضاً وهى تتكون من الحرارة والتنفس . والنَّفس التى هى صميم الروح وجوهرها تختلف عن الهواء . وذرات الروح موزعة على الجسم . ويعزى الإحساس إلى وجود جسيمات دقيقة تلقى بها الأجسام فتظل متحركة باستمرار إلى أن تلمس ذرات الروح . وقد تظل تلك الأجسام الدقيقة موجودة حتى بعد أن تكون الأجسام التى أفرزتها قد تحللت . وهذا يفسر الأحلام . وعند الموت فإن الروح تتبدد ، بينما لا تستطيع ذراتها أن تحس برغم استمرار وجودها ، وذلك لأنها لم تعد مرتبطة بالجسد .

أما بالنسبة للآلهة فإن أبيقور يعتقد بجَزْم فى وجودها . ذلك أنه لا يستطيع أن ينكر وجودها بسبب ظاهرة انتشار فكرة وجود الآلهة على نطاق واسع بين الجماهير . بيد أنه مقتنع بأنها لا تجشم نفسها المشقة بالتدخل فى عالم البشر . وعلى هذا فليس هناك أساس للخوف من غضب الآلهة أو من التعرض للعذاب بعد الموت . وعلى الرغم من أن الإنسان خاضع لقوى الطبيعة ، فإنه مع ذلك متمتع بحرية الإرادة ، وهو سيد مصيره بقدر ما يتسنى له من حدود . وهو يقرر بأننا برغم عجزنا عن الهرب من الموت ، فإننا إذا ما استطعنا تفهُّم الموت بالتفهُّم الصحيح ، فإننا سوف لا نجده شراً على الإطلاق .

* * *

الفصل العشرون

زينـــون الرواقى

ZENON

(القرن الرابع ق م)

كان زينون فينيقياً ، ولد بجزيرة قبرص فى النصف الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد ، وكانت أسرته تشتغل بالتجارة ، فانتقل معها إلى أثينا . وهناك شغف بدراسة الفلسفة ، وآمن بآراء الكلبيين ، ولم يكن لديه صبر كاف للتعمق فى مسائل الميتافيزيقا ، لكنه وجه اهتمامه الأكبر إلى الفضيلة ، ولم تكن للفيزياء أو الميتافيزيقا أهمية فى نظره إلا بقدر خدمتهما للفضيلة .

بدأ زينون بالتأكيد على حقيقة وجود العالم الخارجى كما يبدو لنا . وظل يقول بالحتمية الكونية وبالحرية الإنسانية . واعتقد أنه لا يوجد شىء اسمه الصدفة ، وأن عمل الطبيعة محدد بدقة بواسطة القوانين الطبيعية . وفى بداية الوجود لم يكن هناك سوى النار ، وبعد ذلك بدأت العناصر الأخرى ، كالهواء والماء والأرض وَفْق هذا الترتيب فى البزوغ شيئاً فشيئاً . ولكن آجلاً أم عاجلاً سوف يحترق الكون كله فيرتد كل شىء مرة أخرى إلى النار . بيد أن هذا سوف لا يكون نهاية المطاف ، بل إن الدورة سوف تعود من جديد ، فيظهر الهواء ثم الماء ثم الأرض ، ثم يحترق كل شىء وتبدأ دورة تالية إلى ما لا نهاية . فكل شىء يحدث الآن قد حدث قبلاً ، وسوف يحدث مرة أخرى إلى غير نهاية .

www.dvd4arab.com

بيد أن زينون وتلاميذه لم يستسلموا للمادية الحتمية ، بل قالوا بالآلهة التى تنظم كل شىء لأهداف محددة . فلكل شىء عدا الشئون الإلهية هدف يرتبط بالإنسان . فبعض الحيوانات مفيدة للإنسان بالتغذى على ألبانها ولحومها ، وبعضها الآخر مفيد للإنسان لأنه يتعلم الشجاعة بتحدى قوتها . وحتى البق مفيد للإنسان ، لأنه يعلمه أن يستيقظ مبكراً وألا يظل راقداً بكسل على السرير .

والله عند الرواقيين ومن بينهم سينيكا Seneca, Lucius Annaeus ليس منفصلاً عن العالم . إنه روح العالم وكل واحد من البشر يتضمن جزءاً من النار الإلهية . وجميع الأشياء هى أجزاء من نظام واحد ووحيد يسمى الطبيعة . ولا تكون حياة المرء منسجمة مع قوانين الطبيعة إلا إذا وجه إرادته إلى الأهداف التى رسمتها . وتتكون الفضيلة من إرادة متفقة مع الطبيعة . والشخص الشرير على الرغم من أنه يطيع الله قسراً ، فإنه يفعل ذلك بغير مشيئته . وكما يقول كلينثز الرواقى فإن ذلك الشخص مثل كلب ربط إلى عربة وقد أجبر على السير وراءها إجباراً .

وفى حياة الفرد فإن الفضيلة هى الخير الوحيد . أما الأشياء الأخرى مثل الصحة والسعادة والممتلكات فليست بذات قيمة . وحيث إن الفضيلة تكمن فى الإرادة ، فإن كل شىء حسن أو ردىء فى حياة الإنسان ، إنما يتوقف عليه هو شخصياً فحسب . إنه قد يصير فقيراً ولكنه لا يعبأ بالفقر ويظل شخصاً فاضلاً . وقد يلقى به أحد الطغاة فى السجن ، ولكنه مع ذلك يستطيع أن يظل محتفظاً بانسجامه مع الطبيعة . ولقد يحكم عليه بالموت ، ولكنه يستطيع أن يموت بشرف مثل سقراط . إن الطغاة لا يحوزون من القوة إلا ما يمكن أن يفرضوه على الأشياء

الخارجية . أما الفضيلة وهى الخير الوحيد ، فإنها تظل بكاملها فى دخيلة المرء .

من هنا فإن كل إنسان يستمتع بالحرية الكاملة بشرط أن يحرر نفسه من الرغبات الأرضية . ويخطئ من يحكم بأن لتلك الرغبات أهمية . والحكيم هو الشخص الذى يصدر أحكاماً صحيحة ويكون سيداً لمصيره فى كل ما يكون له قيمة طالما أن أية قوة خارجية لا تستطيع إجباره على أن يضرب عُرْضَ الحائط بما يراه حقاً وفضيلة .

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

الفصل الحادى والعشرون

افـــلوطين

PITINUS

(٢٠٤ — ٢٧٠ ميلادية)

هو مؤسس الأفلاطونية الجديدة ، ويعتبر آخر الفلاسفة القدامى الكبار : وتتوافق حياته تقريباً مع الفترات المنكوبة فى التاريخ الرومانى. وقبل ميلاده بفترة قصيرة صار الجيش يحس بقوته ، وأخذ يمارس ضغطه فى اختيار الأباطرة فى مقابل مكافآت مالية ، ثم يقوم بعد ذلك باغتيالهم لكى تتاح فرصة جديدة لاختيار إمبراطور جديد .

وفى هذا المناخ السياسى الردىء ، كان من الطبيعى أن تنتفى السعادة فى الواقع المحيط بالمرء ، ومن ثم فعلى الفيلسوف أن يبحث عن السعادة فى التأمل وفى الأفكار التى تبعد عن الانطباعات الحسية . بيد أن سعادة هذا شأنها لا بد أن تتضمن عنصراً من التوتر . فهى ليست مثل السعادة التى يحسها الطفل ، بل هى سعادة الحكيم .

ولا بد أن أفلوطين قد تأثر بالمصريين لزمانه . وهو نفسه يقول إنه ولد فى مصر وأنه درس فى شبابه بالإسكندرية حيث عاش حتى التاسعة والثلاثين ، وقد درس على يدى أستاذه أمونيوس ساكاس Ammonius Saccas الذى كثيراً ما يعتبر مؤسس الأفلاطونية الجديدة .

ويعتقد أفلوطين أن الخطيئة هى نتيجة حتمية للإرادة الحرة التى يجعلها مناهضة للحتمية وبأكثر تحديداً ضد التنجيم : بيد أنه لاينكر

التنجيم إنكاراً قاطعاً ، ولكنه يحاول أن يضع له حدوداً لا يتجاوزها بحيث يتيح الفرصة لاعتمال الإرادة الحرة . وهو يتخذ الموقف نفسه بصدد السحر . فهو يذهب إلى أن الحكيم مستثنى من قوة وسلطان الساحر . يحكى بورفيرى أن فيلسوفاً منافساً لأفلوطين حاول أن يحيك سحراً ضده ، ولكن لأن أفلوطين كان مملوءاً بالقداسة والحكمة ، فإن فاعلية السحر انصبت على ذلك المنافس .

وإذا نحن تأملنا فلسفة أفلوطين وحاولنا وزن قيمتها ، فإننا سنحكم بأن لتلك الفلسفة الفضل فى قيام الفلسفة المدرسية التى ازدهرت خلال العصور الوسطى ، بل إن لها الفضل فى قيام النهضة ، وأنها مهدت السبيل أمام إعادة تنشيط الفلسفة اليونانية برمتها وما تبع ذلك من تيارات فلسفية متباينة .

بيد أن فلسفة أفلوطين قد عملت على تشجيع الناس على الانحصار فى دخائلهم دون التطلع إلى الخارج . فهى تشجع النظرة الذاتية التى بدأت مع بروتاغوراس وسقراط وأفلاطون والرواقيين والأبيقوريين ، صحيح إن الفضيلة كما قررها أفلاطون اشتملت على ما يستطيع العقل البشرى إحرازه من معرفة ، ولكن تلك النظرة الأفلاطونية استحالت على أيدى الأفلاطونية الجديدة بزعامة أفلوطين إلى عزوف عن فهم العالم الخارجى ، وأيضاً العزوف عن محاولة إصلاح المؤسسات الاجتماعية .

ولا شك أن أفلوطين كان بداية ونهاية فى الوقت نفسه . فالفلسفة المسيحية التقطت هذه الفلسفة الأفلاطونية الجديدة وجعلتها عباءة خامة تقوم بتصنيعها طبقاً للمواصفات المسيحية . أما أن فلسفة أفلوطين

Loolod
www.dvd4arab.com

تعتبر نهاية ، فإن هذا الفيلسوف يعتبر نهاية المطاف بالنسبة للفلسفة اليونانية ، فهذه الفلسفة تعتبر الفصل الأخير فى فصول التاريخ الفلسفى اليونانى الذى انتهى دوره بانتهاء حياة هذا الفيلسوف . وبتعبير آخر نقول إن اليونان من بعده تكون قد أكملت مهمتها بعد أن أرست قواعد أى فلسفة تالية فى شتى بقاع العالم .

* * *

الفصل الثانى والعشرون

القـــديس اوغسطين

AUGUSTINE, St.

(٣٥٤ — ٤٣٠ ميلادية)

أسقف هيبون (إفريقيا) قضى شبابه متّبعاً المانوية ، ثم ارتد مرة أخرى إلى الكاثوليكية بفضل أمه مونيكا Monica والقديس أمبروسيوس Embrose, St. أشهر آباء الكنيسة الغربية . خطيب ولاهوتى وفيلسوف وكاتب . قاوم البدع الدوناتية والبيلاجية ، وحاول التوفيق بين العقل والإيمان . مؤلفاته عديدة أهمها : « الاعترافات » و « مدينة الله » و « فى النعمة » .

وكان القديس أوغسطين كاتباً خصباً وبخاصة بصدد المسائل اللاهوتية . ويمكن تقسيم فلسفته إلى ثلاثة جوانب أساسية : الفلسفة البحتة وبخاصة نظريته حول الزمن ، ثم فلسفة التاريخ كما تتضح فى « مدينة الله » ، ثم أخيراً نظريته المتعلقة بالخلاص .

والواقع أن القديس أوغسطين لم يشغل نفسه فى غالبية الأحيان بالفلسفة البحتة ، ولكنه عندما كان يفعل ذلك ، فإنه كان يبدى مقدرة هائلة . ولعل أن تكون نقطة البداية لديه هى ملاحظته أن الأفلاطونية لا تتفق فى بعض النقط مع ما جاء بسفر التكوين بالكتاب المقدس . وهو يؤكد منذ البداية أن مفهوم الخلق من العدم ما هو وارد بالعهد القديم ، غريب تماماً عن الفكر اليونانى وعن الفلسفة اليونانية ،

Lucieo
www.al-maktabeh.com

فعندما يتحدث أفلاطون عن الخلق ، فإنه يتخيل مادة أولية يقوم الإله بإعطائها الصياغة أو الشكل. والشيء نفسه يَصْدق بإزاء أرسطو . فالإله لديهما بمثابة صانع أو مهندس معمارى وليس خالقاً . فالمادة لديهما ذات وجود أزلى وغير مخلوقة . فالصياغة وحدها هى التى يمكن أن تعزى إلى إرادة الإله . ويذهب القديس أوغسطين على العكس من هذا إلى أن العالم قد خلق لا من مادة معينة ، بل من العدم . فالله هو الخالق للمادة وليس مجرد منظم أو مرتب لها .

أما عن مفهوم الزمان فإن القديس أوغسطين يذهب إلى القول بأن الزمان قد خلق عندما خلق العالم . فالله أزلى بمعنى أنه خارج نطاق الزمان . فبالنسبة لله لايوجد قبل أو بعد ، بل يوجد حضور أو آن أزلى أبدى . وقد أدى هذا المفهوم للزمان الذى قال به القديس أوغسطين إلى نظرية مدهشة وروائعة عن النسبية . وينكر أوغسطين الماضى والمستقبل من حيث وجودهما موضوعياً ، ويقول إن الماضى كما نحسه هو حاضر مضى وأن المستقبل هو حاضر متوقع أو مرتقب .

ومعنى هذا فى الواقع أن أوغسطين يرد الزمان إلى ذاتية المرء . وهكذا صار المفهوم الذاتى للزمان عند أوغسطين بمثابة استشراف لنظرية كانط عن الزمان ، وأيضاً بمثابة استشراف للكوجيتو عند ديكارت .

ويؤكد أوغسطين أن التنجيم ليس شيئاً رديئاً وعملاً شريراً فحسب ، بل إنه زيف من الزيف أيضاً . ويدلل على هذا باختلاف الحظ بالنسبة للتوأمين ، مع أنهما ينتسبان إلى نفس البرج الذى يعتمد عليه المنجم فى التنجيم . وكذا فإنه يشجب مفهوم القَدَر عند الرواقيين ، وهو المفهوم

المرتبط لديهم بالتنجيم . ذلك أن الملائكة والناس يتمتعون جميعاً بالإرادة الحرة . صحيح أن الله سابق المعرفة بخطايانا ، ولكننا لا نقع فى الخطيئة بسبب تلك المعرفة القبلية . ومن الخطأ الاعتقاد بأن الفضيلة تجلب التعاسة حتى فى هذه الدنيا . ذلك أن السعادة أو التعاسة حالاتان نفسيتان ترتبطان بالحالة النفسية للمرء .

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

الفصل الثالث والعشرون

الفـــارابى

(؟ — ٩٥٠)

هو أبو نصر محمد الفارابى ، ولد فى فاراب بتركستان ، وتوفى فى دمشق . وهو يعتبر من أعظم فلاسفة العرب . درس فى بغداد وحران ثم أقام فى حلب فى بلاط سيف الدولة الحمدانى خلال الفترة (٩٤٤ — ٩٦٧) . وحاول التوفيق بين الفيلسوفين أرسطو وأفلاطون من جهة . وبين الدين والفلسفة من جهة أخرى . لقب « بالمعلم الثانى » بعد أرسطو ، وكان ضليعاً فى الرياضيات والموسيقى . أهم مؤلفاته : « رسالة نصوص الحكم » و « السياسة المدنية » و « رسالة فى آراء أهل المدينة الفاضلة » و « كتاب الموسيقى الكبير » .

وتقوم فلسفة الفارابى لا على محاربة الجسم والبعد عن اللذائذ لتطهير النفس والترقى إلى مدارج الكمال ، بل تقوم على الدراسة والتأمل . وطهارة النفس فى رأيه لاتتم عن طريق الجسم والأعمال البدنية فحسب ، بل عن طريق العقل والأعمال الفكرية أولاً وبالذات . فهناك فضائل عملية جسمية ، ولكنها لا تذكر فى شىء بجانب الفضائل العقلية النظرية . ولئن كانت الأعمال الحسنة والخلال الحميدة متضمنة بعض الخير ، فالخير كل الخير فى مسألة نتدارسها ، وحقيقة نكشف النقاب عنها ، ومعرفة تهذب بها نفوسنا وتسمو عقولنا .

وعنى الفارابى كل العناية بموضوع السعادة ، فخصه بكتابين من كتبه هما : « تحصيل السعادة » و « والتنبيه على السعادة » . وقد تأثر فيهما بكتاب أرسطو « الأخلاق النيقوماخية » .

وقد يكون الفارابى أكثر فلاسفة الإسلام اشتغالاً بالمسائل الاجتماعية وهو يتعرض لها فى كثير من مؤلفاته ، ويعنى بها عناية تدل على الرغبة والاهتمام . وبين رسائله القليلة التى وصلت إلينا رسالتان هما « السياسة المدنية » و « آراء أهل المدينة الفاضلة » يحاكى بها جمهورية أفلاطون ، وتحوى كثيراً من الآراء الأفلاطونية .

فعلى طريقة أفلاطون يرى الفارابى أن المدينة كلٌّ مترابط الأجزاء ومتكامل بعضه مع بعض ، كالبدن إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر . وبديهى أن الأعمال الاجتماعية متفاوتة بتفاوت غاياتها ، وأسماها وأشرفها ما اتصل برئيس الجماعة ، لأنه من المدينة كالقلب من الجسم . فهو مصدر الحياة وأصل التناسق والنظام ، وليست وظيفته سياسية فقط ، بل هى أخلاقية أيضاً .

ويعرض الفارابى للأحلام فيوضحها توضيحاً يَقْرُبُ كثيراً من بعض الآراء العلمية الحديثة ، ويرى أن المخيلة متى تخلصت من أعمال اليقظة تفرغت أثناء النوم لبعض الظواهر النفسية فتخلق صوراً جديدة أو تجمع صوراً ذهنية قديمة على أشكال مختلفة محاكية ومتأثرة فى ذلك ببعض الإحساسات والمشاعر الجسمية أو العواطف النفسية والمدركات العقلية . فهى قوة مخترعة قادرة على الخلق والإيجاد والتصوير والتشكيل ، ولها أيضاً قدرة عظيمة على المحاكاة والتقليد ، وفيها استعداد كبير للانفعال والتأثر . فأحوال النائم العضوية والنفسية والحساسات ذات أثر

Loolos www.al-maktabeh.com

واضح فى مخيلته ، وبالتالى فى تكوين أحلامه . وما اختلفت الأحلام فيما بينها إلا لاختلاف العوامل المؤثرة فينا ، فنحلم بالماء أو بالسباحة مثلاً فى لحظة يكون مزاجنا فيها رطباً . وكثيراً ما مثّلت الأحلام تحقيق رغبة أو الفرار من فكرة بغيضة . ويؤكد الفارابى أن للأحلام لدى بعض الناس قدرة تنبؤية : فيفسر بها النبوءة .

* * *

الفصل الرابع والعشرون

ابن سينا

AVICENNE

(٩٨٠ — ١٠٣٧)

ولد فى أخشنة قرب بخارى ، وتوفى فى همذان « حسّاب وطبيب » من كبار فلاسفة العرب وأئمة مفكريهم . تعمق فى درس فلسفة أرسطو وتأثر أيضاً بالأفلاطونية الجديدة قائلاً بوجود العقل العام . دافع عن خلود النفس ووحدة الخالق وعطفه . غير أن آراءه فى الخلق لا تخلو من شىء من الحلولية الأفلوطينية . كان لابن سينا تأثير عميق فى الصوفية . من مؤلفاته الطبية : « القانون فى الطب » و « الشفاء » . ومن مؤلفاته فى الفلسفة : « الإشارات والتنبيهات » . ومن مؤلفاته فى المنطق كتاب « النجاة » . ولا يزال قسم من مؤلفاته مخطوطاً فى خزائن الكتب . له فى النفس القصيد المشهورة مطلعها :

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

ويبرهن ابن سينا على وجود النفس بما نتمتع به من حركة وإدراك. فأما الحركة فضربان : قسرية ناتجة عن دفعة خارجية تصيب جسماً ما فتحركه ، وغير قسرية وهى التى تعنينا هنا . وهذه بدورها أنواع : فمنها ما يحدث على مقتضى الطبيعة ، كسقوط حجر من أعلى إلى أسفل ، ومنها ما يحدث ضد مقتضى الطبيعة ، كالإنسان الذى يمشى على وجه الأرض مع أن ثقل جسمه كان يدعوه إلى السكون ، أو كالطائر الذى يحلق فى الجو بدل أن يسقط إلى سطح الأرض . وهذه الحركة المضادة

للطبيعة تستلزم محركاً خاصاً زائداً عن عناصر الجسم المتحرك وهو النفس، وأما الإدراك فأمر امتازت به بعض الكائنات على بعض . وإذن لا بد للكائنات المدركة من قوى زائدة على الكائنات غير المدركة .

أما البرهان الثانى الذى يقدمه ابن سينا للتدليل على وجود النفس فإنه يرتكز على فكرة « الأنا » ووحدة الظواهر النفسية . فإذا ما كان المرء يتحدث عن شخصه أو يخاطب غيره ، فإنما يعنى بذلك النفس لا الجسم . فحين تقول : « أنا خرجت » أو « أنا نمت » ، فلا يخطر ببالك حركة رجليك ولا إنماض عينيك ، بل ترمى إلى حقيقتك وكل شخصيتك . فنشاط المرء يدور حول مركز ثابت . فوحدة الظواهر النفسية تستلزم أصلاً تصدر عنه وأساساً تعتمد عليه .

وأما البرهان الثالث الذى يقدمه ابن سينا على حقيقة النفس فهو برهان الاستمرار ، وملخصه أن حاضرنا يحمل فى طياته بُعْدَ ماضينا وبعداً لمستقبلنا . وحياتنا الروحية هذا الصباح ترتبط بحياتنا أمس دون أن يحدث النوم أى فراغ أو انقطاع فى سلسلتها ، بل وترتبط بحياتنا منذ أعوام مضت .

أما البرهان الرابع والأخير الذى يقدمه ابن سينا للبرهنة على وجود النفس ، فهو برهان الرجل الطائر أو المعلق فى الفضاء . وملخصه كما يلى : هب أن شخصاً ولد مكتمل القوى العقلية والجسمية ، ثم غطى وجهه بحيث لا يرى شيئاً مما حوله ، وترك فى الهواء كى لا يحس بأى احتكاك أو اصطدام أو مقاومة ، فإنه لا يشك بالرغم من كل هذا فى أنه موجود وإن كان يعز عليه إثبات وجود أى جزء من أجزاء جسمه . فشعوره بأنه موجود لم ينتج قط عن طريق الحواس ، ولا عن طريق الجسم بأسره ، بل لابد له من مصدر آخر مغاير للجسم تمام المغايرة هو النفس بالتأكيد .

الفصل الخامس والعشرون

ابن رشـــد

AVERROES

هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد . عين طبيباً للبلاط خلفاً لابن طفيل (١١٨٢) وشجعه الخليفة على وضع شروح لأرسطو . صرف همه إلى التوفيق بين الفلسفة وبين الإسلام . نفاه الخليفة يعقوب المنصور (١١٨٤ — ١١٩٩) إلى البسانة (أسبانيا) بعد أن أحرق مؤلفاته الفلسفية . استعاد حظوته لدى الخليفة بعد انتصاره على الفونس الثامن (١١٩٥) . توفى فى مراكش (١١٩٨) . له « تهافت التهافت » وهو رد على اتهامات الغزالى للفلاسفة . أثرت كتبه التى نقلت إلى اللاتينية فى الفكر الفلسفى فى الغرب .

والواقع أن ابن رشد كان أكثر أهمية للفلسفة المسيحية منه للفلسفة الإسلامية . فقد كان بالنسبة للفلسفة الإسلامية نهاية المطاف فيها . أما بالنسبة للفلسفة المسيحية فقد كان البداية . فلقد ترجمت مؤلفاته إلى اللاتينية فى أوائل القرن الثالث عشر بواسطة ميشيل سكوت . وتنتمى أعماله إلى النصف الأخير من القرن الثانى عشر . وكان تأثيره فى أوربا عظيماً جداً ، ليس فقط فى نطاق المدرسيين ، بل أيضاً فى عدد كبير من المفكرين الأحرار غير المحترفين بالفلسفة الذين أنكروا الخلود وقد أطلق عليهم اسم الرشديين . ومن بين الفلاسفة المحترفين الذين تأثروا بابن رشد : الفرنسسكان وهم أكثرهم إعجاباً به ، وكذا أساتذة جامعة باريس .

www.dvd4arab.com

يرى ابن رشد أن الطفل يولد ولديه استعداد لتقبل المعلومات العامة. فإذا ما أخذ فى الدراسة والتعلُّم تحول هذا الاستعداد إلى عقل بالفعل، ولا يزال العقل ينمو ويرقى حتى يتصل بالعقول المفارقة ويستمد منها الفيض والإلهام. وهذا هو الكمال الأسمى الذى نطمح إليه جميعاً. والطريق الموصلة إليه هى تنمية المعلومات وترقية المدارك الإنسانية. فالعلم وحده هو سبيل إسعاد المرء واتصاله بعالم العقول والأرواح. أما ما يذهب إليه المتصوفة من أن الإنسان يستطيع الصعود إلى هذه المرتبة دون علم ولا بحث، فهو ادعاء باطل وقول هُرَاء.

أما بالنسبة لنظرية النبوة فقد عرض لها فى « تهافت التهافت »، مفنداً اعتراضات الغزالى عليها ومدافعاً فى الوقت نفسه عن الفلاسفة القدامى والمحدثين. وهو يرى أن هذه النظرية وإن تكن من صنع فلاسفة الإسلام وحدهم، فهى مقبولة فى جملتها، ولا يحق للغزالى أن يعترض عليها. فما دمنا نسلم بأن الكمال الروحى لايتم إلا باتصال العبد بربه، فلا غرابة فى أن تفسر النبوة بضرب من هذا الاتصال. غير أن هذه التفسيرات العلمية يجب أن تبقى وقفاً على الفلاسفة والعلماء. ذلك أن عامة الناس لايدركون كنهها ولا يستطيعون الوقوف على حقيقتها. والجدير بنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم، وأن نقدم لكل طائفة ما يناسبها من غذاء عقلانى.

• • •

الفصل السادس والعشرون

القـــديس توما الاكوينى

AQUINAS, St. THOMAS

(١٢٢٥ — ١٢٧٤)

يعتبر توما الأكوينى أعظم فيلسوف من الفلاسفة المدرسيين: وفلسفته تعتبر هى الفلسفة الوحيدة المعترف بها فى جميع المعاهد التعليمية الكاثوليكية التى تقوم بتدريس الفلسفة. والواقع أن أهمية هذا الفيلسوف ليست أهمية تاريخية فحسب، بل إن أهميته تتمثل أيضاً فى تأثيره المستمر وعلى نطاق واسع حتى وقتنا هذا، كما هو الحال بالنسبة لأفلاطون وأرسطو وكانط وهجل، بل إن تأثيره الحالى يفوق تأثير هذين الفيلسوفين الأخيرين.

كان القديس توما الأكوينى ابناً للكونت أكوينو الذى كانت تقع قلعته فى مملكة نابولى. ولقد ظل ست سنوات يدرس فى جامعة نابولى، ثم التحق راهباً بالدومينيكان، وذهب إلى كولونيا لكى يدرس تحت إشراف البرتوس ماجنس Albertus Magnus الذى كان أهم داعية للأرسطوطالية بين فلاسفة عصره. وبعد أن قضى فترة فى كولونيا وباريس، عاد إلى إيطاليا فى عام ١٢٥٩ حيث قضى باقى حياته هناك، باستثناء ثلاثة أعوام فيما بين ١٢٦٩ و ١٢٧٢ قضاها فى باريس لفض الخلافات القائمة مع السلطات الجامعية المناوئة للأرسطوطالية.

www.dvd4arab.com

والواقع أن الأكويني خلافاً للسابقين عليه ، كان حاصلاً على معرفة دقيقة بفلسفة أرسطو . فلقد وافاه صديقه وليم موربيك William of Moerbeke بترجمات عن اليونانية لأعمال أرسطو ، وهو نفسه كتب تعليقات عليها . وحتى زمانه كانت أفكار الناس عن أعمال أرسطو غامضة بسبب إضافات الأفلاطونية الجديدة . أما هو فقد ضرب في إثر آراء أرسطو الحقيقية ، وأبدى كراهية للأفلاطونية حتى كما تبدت في كتابات أوغسطين . ولقد نجح الأكويني في إقناع الكنيسة بأن نظام أرسطو أفضل من نظام أفلاطون كأساس لإرساء قواعد الفلسفة المسيحية ، وأن الفلاسفة الرشديين قد أساءوا تفسير فلسفة أرسطو .

وما تمتاز به فلسفة الأكويني توصلها إلى تكييف فلسفة أرسطو للعقيدة المسيحية ولكن بأقل قدر من التغيير . ولقد كان ينظر إليه في زمانه باعتبار أنه مجدد شجاع . وحتى بعد موته فإن الكثير من المؤيدين والمعارضين له في جامعتي باريس وأوكسفورد قد أخذوا في تناول فلسفته بالمناقشة بعناية وتقدير . فالجميع يشهدون له بأنه كان متمكناً من التبويب ومن فهم معارضيه . وأكثر من هذا فإن ما يمتاز به الأكويني هو الأمانة في تقديم الحجج المناهضة لآرائه . فهو يعرض تلك الحجج المناوئة بالتفصيل ، ثم يأخذ في الرد عليها وتفنيدها بهدوء وموضوعية ، متجنباً كل اندفاع في الدحض أو التفنيد . وهو يميز بوضوح ودقة بين البراهين المستفادة من العقل وبين الحجج المستمدة من الوحي .

على أن آراءه الخاصة بالزواج والأسرة قد سبقت ببراهين ربما كانت مقبولة في زمانه ، ولكنها ليست كذلك في ضوء التغيرات

الحضارية من جهة ، وفي ضوء ما كشفت عنه البحوث النفسية من جهة أخرى . من ذلك براهينه على أهمية الأب للأسرة ، فيقول إنه ضروري للأسرة ، لأنه أكثر عقلانية من الأم ، ولأنه يستطيع أن يوقع عقوبات بدنية أشد على الأولاد بفضل قوته البدنية الأقوى . فمن الواضح اليوم أن الأب الحديث ليس أكثر عقلانية من الأم ، كما أن العقوبات البدنية ليست أفضل وسيلة في التربية ، بل إنها ضارة في معظم الأحيان . ناهيك عن أن ضرب الأولاد ليس بحاجة إلى قوة عضلية كبيرة كما يزعم .

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

الفصل السابع والعشرون

ماكيـــافيلى

MACHIAVELLI, NICCOLO

(١٥٢٧ — ١٤٦٧)

على الرغم من أن عصر النهضة لم ينجب فيلسوفاً ذا أهمية نظرية ، فإنه أنجب ماكيافيلى الذى اشتهر بفلسفته السياسية . بيد أن شهرة ماكيافيلى محفوفة بالذم والاستهجان من الوجهة الأخلاقية المحافظة . والواقع أن فلسفته يمكن أن توصف بأنها عملية وعلمية فى الوقت نفسه . فهى عملية لأنها تقوم على الخبرة السياسية التى لاتزال سائدة حتى أيامنا هذه ، وأغلب الظن أن السياسة فى جميع أشكالها لن تخرج عن الحدود التى رسمها لها ماكيافيلى . فهو صاحب مبدأ الغاية تبرر الوسيلة ، أو بتعبير آخر إن الوسيلة التى تنجح فى تحقيق الغاية خليقة بالتقدير ، بغض النظر عن الحُكْم الخلقى الذى يصدر بصددها .

وماكيافيلى من فلورنسا ، وهو ابن أحد المحامين ، ولم يكن بغنى أو بفقير ، بل كان متوسط الحال . وعندما بلغ العشرين من عمره حكم سافونارولا Savonarola, Girolamo فلورنسا ، وكانت نهايته الوخيمة عاملاً مؤثراً جداً فى نفسية ماكيافيلى ، وبعد شنق سافونارولا بوقت قصير حصل ماكيافيلى على وظيفة بسيطة فى حكومة فلورنتين Florentine (١٤٩٨) وظل فى خدمتها ، وأسندت إليه فى بعض الأحيان بعثات دبلوماسية هامة ، إلى أن استعاد المديكيون الحكم فى

عام ١٥١٢ ، فألقى القبض عليه لمعارضته لهم ، ولكن أفرج عنه وسمح له بأن يعيش فى المنفى بالريف بجوار فلورنسا . فصار كاتباً نتيجة عدم وجود وظيفة أخرى يتكسب من ورائها . وأهم كتبه « الأمير » ، وقد ألفه فى عام ١٥١٣ ، وأهداه إلى لورنزو الثانى Lorenzo ، وذلك أملاً فى نيل حظوة المديكيين ، ولكن دون جدوى . وتعزى النغمة السائدة بهذا الكتاب جزئياً إلى هذا الهدف العملى . أما كتابه «المقالات» الذى قام بتأليفه فى نفس الفترة ، فإنه يتسم بقدر أكبر من التحررية . وظل فى المنفى حتى وفاته وهو يشتغل بالتأليف .

وفى كتابه « الأمير » يقول : إن غاية الأمير يجب أن تكون إحراز القوة والأمن فى الداخل وبسط نفوذه على مواطنيه . وأيضاً الامتداد بسلطانه إلى الخارج . فإذا أراد صيانة سلطانه من الذبول والأفول وجب عليه أن يأخذ نفسه بعدم التقيد بالفضيلة كما هى شائعة فى أذهان العامة ، بل يجب عليه أن يستخدم ماهو خير وماهو شر تبعاً لظروف الموقف أما من يريد أن يسير سيرة فاضلة وفق مبدأ أخلاقى يترسَّمه ويؤمن به فى كل موقف ، فعليه أن يبعد عن سُدَّة الحكم وأن يحيا حياة شخصية بعيدة عن المسئوليات السياسية ، وإلا هلك حتماً وسط العديد من الأشرار المتربصين به .

وليس من مهام الأمير وضع التشريعات ، بل هو رجل سلاح أولاً وأخيراً . فالحرب صناعته فى الخارج ، والقمع صناعته بالداخل . فعليه ألا يبالى بأن يتهمه المحيطون به بالقسوة ، بينما هو يريد أن يحمل رعيته على طاعته والتزام الحدود التى وضعها . ذلك أن ماقد يبدو أنه قسوة ، هو فى الواقع شاهد على القوة التى تحيط من تسوّل له نفسه

Looloo
www.looloo.com

خرق القانون بالداخل ، كما تخيف من تسوّل له نفسه الإغارة على الحدود من الخارج .

وواضح أن دعوة ماكيافيلى إلى الاستبداد منافية تماماً لروح الديموقراطية والعدالة . ناهيك عن أن الحكم بالسيف وحده لايكفل النظام بالداخل ، ولاصد العدوان من الخارج .

• • •

الفصل الثامن والعشرون

فرانسس بيكون

BACON, FRANCIS

(١٥٦١ — ١٦٢٦)

على الرغم من أن فلسفة فرانسس بيكون ليست ممتازة فى جميع جوانبها ، فإن لها أهمية خاصة ، إذ أن بيكون يعتبر المؤسس للمنهج الاستقرائى الحديث ، والرائد فى التنظيم المنطق للعملية العلمية .

هو ابن السير نيكولاس بيكون اللورد المهيمن على الخاتم الملكى ، كما كانت عمته زوجة السير وليم سيسيل الذى صار لورد بورجلى . وهكذا ترعرع بيكون فى إطار الشئون السياسية ، دخل البرلمان فى الثالثة والعشرين ، وصار مستشاراً لاسكس . ومع ذلك فعندما فقد اسكس الثقة ساعد على محاكمته واتهامه . ولما آل العرش إلى جاك الأول اصطنع بيكون الملق والدسيسة ، ومالأ الملك فى استبداده وقضاء مصالحه ومصالح الأسرة المالكة ، فبلغ أرقى المناصب القضائية حتى صار الوزير الأول سنة ١٦١٨ . وفى تلك السنة اتهمه مجلس النواب بالرشوة واختلاس مال الدولة ، فاعترف للحال بما عزى إليه ، فحكم عليه مجلس اللوردات بغرامة قدرها أربعون ألف جنيه ، وبحرمانه من ولاية الوظائف العامة ، ومن عضوية البرلمان ، ومن الإقامة بالقرب من البلاط . وبفضل رعاية الملك لم يقض فى السجن سوى بضعة أيام ، ولم يؤد الغرامة ، ولكنه حاول عبثاً استرداد الأعيان

Lotus
www.lotus-tv.com

بيد أن بيكون اهتم بالأزمة التى تجابه العلوم فى وقته . إنه وجد أن العلوم تعالج بالطريقة القياسية ، أى البدء من النظرية إلى التطبيق ، أو من العموميات إلى الخصوصيات والجزئيات . فرأى أن البدء من الوقائع الجزئية لاستخلاص القوانين العامة هو الخليق بالاتباع ، وهو الضامن للتقدم العلمى . والغريب أنه لم يتوسع فى تطبيق فكرته ، بل كان يتصور العلوم على ما رأى بالجامعة ، وظل طوال حياته قليل الإلمام بمكتشفات القرن الرابع عشر وعصر النهضة ، جاهلاً بالرياضيات وبما اتخذت من شأن فى تكوين العلم الطبيعى ، بل إنه رمى كوبرنيك بالدجل ، ولم يدرك أهمية قوانين كبلر وبحوث جليليو .

ولكنه مع ذلك أبرز الجوانب التى تعطل مسيرة العلم ، وكان له الفضل فى إبرازها وإعلان خطرها ومايمكن أن تضرب به التقدم العلمى . فمن أجل تكوين العقلية العلمية لابد من وضع أصول لمنطق جديد . ولكن قبل تحديد معالم ذلك المنطق لابد من التنبيه إلى تلك المعوقات لهدمها ، وقد أطلق عليها اسم الأصنام ، وهى أربعة أنواع على النحو التالى :

أولا — أوهام القبيلة : وهى ناشئة عن طبيعة الإنسان ، لذا كانت مشتركة بين جميع الناس . فنحن ميالون بالطبع إلى تعميم بعض الحالات دون التفات إلى الحالات المعارضة لها ، وإلى تحويل المماثلة إلى تشابه ، وإلى أن نفرض فى الطبيعة من النظام والاطراد أكثر مما هو متحقق فيها ، وإلى أن نتصور فعل الطبيعة على مثال الفعل الإنسانى ، فنتوهم لها غايات وعللاً غائية .

ثانياً — أوهام الكهف : وهى ناشئة من الطبيعة الفردية لكل منا . فإن الفردية بمثابة الكهف الأفلاطونى ، منه ننظر إلى العالم ، وعليه

ينعكس نور الطبيعة فيتخذ لوناً خاصاً . وهذه الأوهام صادرة إذن عن الاستعدادات الأصلية وعن التربية والعلاقات الاجتماعية والمطالعات . فمثلاً من الناس من هم أكثر ميلاً إلى الانتباه إلى ما بين الأشياء من تنوع ، بينما آخرون أكثر ميلاً إلى البحث عن وجوه الشبه ، إلى غير ذلك من اتجاهات .

ثالثاً — أوهام السوق : وهى الناشئة عن الألفاظ ، فإن الألفاظ تتكون طبقاً لحاجات العملية والتصورات العامة ، فتسيطر على تصورنا للأشياء ، فتوضع ألفاظ لأشياء غير موجودة ، أو لأشياء غامضة أومتناقضة . وهذا أصل كثير من المناقشات التى تدور كلها حول ألفاظ فحسب .

رابعاً — أوهام المسرح : وهى المتأتية عما تتخذه النظريات المتوارثة من مقام ونفوذ . وهنا يحمل بيكون على أرسطو وأفلاطون وغيرهما .

ومن الجدير بالملاحظة أن هذه الأصنام ليست أغاليط استدلالية كالتى يذكرها أرسطو ، بل هى عيوب فى تركيب العقل تجعلنا نخطئ فى فهم الحقيقة ، ويجب التحرر منها لكى يتسنى للمرء أن يشق طريقه إلى الحقيقة ، ولكى يتسنى له إحراز التقدم العلمى .

وبعد أن قام بيكون بهدم المعوقات أمام التقدم العلمى ، فإنه بدأ بعد ذلك فى تشييد البناء الإيجابى ، وذلك بأن أوصى باتباع الطرق الآتية بصدد التجارب العلمية :

أولاً — تنويع التجربة : وذلك بتغيير المواد وكيانها وخصائصها ، وتغيير العلل .

ثانياً — تكرار التجربة : مثل تقطير الكحول الناتج من تقطير أول .

Looloo
www.dvd4arab.com

ثالثاً — مد التجربة : أى إجراء تجربة على مثال تجربة أخرى مع تعديل فى المواد .

رابعاً — نقل التجربة من الطبيعة إلى الفن : كإيجاد قوس قزح فى مسقط ما ، أو من فن إلى آخر أو من جزء من فن إلى جزء آخر .

خامساً — قلب التجربة : مثل الفحص عما إذا كانت البرودة تنتشر من أعلى إلى أسفل بعد أن نكون قد عرفنا أن الحرارة تنتشر من أسفل إلى أعلى .

سادساً — إلغاء التجربة : أى استبعاد الكيفية المراد دراستها . مثال ذلك وقد لاحظنا أن المغنطيس يجذب الحديد خلال أوساط معينة أن ننوّع هذه الأوساط إلى أن نقع على وسط أو أوساط تلغى الجاذبية .

سابعاً — تطبيق التجربة : أى استخدام التجارب لاستكشاف خاصية نافعة ، مثل تعيين مبلغ نقاء الهواء وسلامته فى أمكنة مختلفة أو فصول مختلفة بتفاوت سرعة التنفس .

ثامناً — جمع التجارب : أى الزيادة فى فاعلية مادة ما بالجمع بينها وبين فاعلية مادة أخرى ، مثل خفض درجة تجميد الماء بالجمع بين الثلج وملح البارود .

تاسعاً — التجربة بالمصادفة : أى أن التجربة لاتجرى لتحقيق فكرة معينة ، بل لكونها لم تجر بعد ، ثم ينظر فى النتيجة ماذا تكون ؟ مثل حدوث الاحتراق فى أثناء إجراء التجربة فى إناء معلق كما يحدث عادة فى الهواء .

* * *

الفصل التاسع والعشرون

هـــوبز

HOBBES, THOMOS

(١٥٨٨ — ١٦٧٩)

كان هوبز فيلسوفاً له جوانب متعددة . فبينما نجده فيلسوفاً تجريبياً من أمثال لوك وبركلى وهيوم، فإننا نجده مختلفاً عنهم من حيث عشقه للمنهج الرياضى ، ليس فقط فيما يتعلق بالرياضيات البحتة ، بل وأيضاً فى تطبيقاتها . ولقد كانت نظرته العامة مستلهمة من جاليليو أكثر من استلهامها من بيكون .

كان أبوه قسيساً ، وكان سريع الغضب وغير متعلم ، وقد فقد وظيفته بسبب شجار نشب بينه وبين قسيس من جيرانه عند باب الكنيسة. وبعد ذلك قام عم هوبز بتنشئته ، فحصل على معرفة جيدة بالكلاسيكيات. وفى الخامسة عشرة توجه إلى أوكسفورد حيث تلقى المنطق وفلسفة أرسطو. ولقد زعم أنه لم يستفد سوى القليل من دراسته الجامعية . والواقع أن الجامعات بوجه عام كانت موضوع نقده فى كتاباته . وفى عام ١٦١٠ عندما بلغ الثانية والعشرين ، صار معلماً للورد هاردويك . وفى هذه الأثناء بدأ يقف على أعمال جاليليو وكبلر ، وقد كان لهما تأثير عميق فيه. وعاش هوبز فترة فى باريس حيث بدأ فى دراسة إقليدس ، ثم زار جاليليو فى عام ١٦٣٦ وعاد إلى انجلترا فى عام ١٦٣٧ .

ظل هوبز مؤمناً بالآراء التى عبّر عنها فى كتابه « اللوياثان » ، وهى

Looloo
www.dvd4arab.com

الآراء المناصرة للملكية المتطرفة فترة طويلة. وعندما عقد البرلمان الطويل فى عام ١٦٤٠ وأعلن سخطه على الحكم المطلق أحس هوبز بالخوف وهرب إلى فرنسا .

وفى باريس لقى الترحاب من جانب كثير من الرياضيين ورجال العلم المبرّزين ، وكان واحداً ممن اطّلعوا على كتاب « التأملات » لديكارت قبل نشره ، وكتب اعتراضاته بصدده ، وهى الاعتراضات التى قام ديكارت بنشرها والرد عليها فى نفس الوقت .

واستمر هوبز نشيطاً ، سواء فى ذلك الوقت ، أم فى أى فترة من حياته الطويلة . فجادل مع المطران برامهول حول حرية الإرادة ، ولقد كان هوبز جبرياً متشدداً . وفى شيخوخته كانت شهرته خارج انجلترا أقوى من شهرته فيها . ولكى يملأ وقت فراغه فإنه قام بكتابة سيرته الشخصية وهو فى الرابعة والثمانين باللاتينية ، كما قام وهو فى السابعة والثمانين بترجمة هومر .

وفى مستهل كتابه « اللوياثان » نجد هوبز يعلن نزعته المادية المطلقة. فيقول إن الحياة ليست سوى حركة الأطراف ، ولذا فإن الأشياء المتحركة بذاتها تتضمن حياة اصطناعية . والمجتمع المشترك الذى يسميه «اللوياثان» هو ابتكار مصطنع ، وهو فى الواقع امتزاج اصطناعى . ولم يقصد بلفظ المجتمع المشترك معنى مجازياً ، بل قصد المعنى المباشر لذلك . والملكية هى روح اصطناعية . أما المواثيق والاتفاقيات التى خلق « اللوياثان » بواسطتها فى بادئ الأمر ، فإنها تحل محل الأمر الإلهى عندما قال : « دعنا نصنع الإنسان » .

والجزء الأول من « اللوياثان » يتناول الإنسان كفرد ، كما يعرض للفلسفة العامة التى يرى هوبز أنها ضرورية لاستهلال كتابه . والإحساسات

عنده تحدث بواسطة ضغط الأشياء علينا ، أما الألوان والأصوات وغيرها من الخصائص التى نظن أنها موجودة فى الأشياء فهى فى الواقع ليست فى الأشياء . أما الخصائص الموجودة فى الأشياء التى تناظر إحساساتنا فهى حركات . فالإحساس هو حركة فى ذرات الجسم الحاسّ صادرة عن حركة فى الجسم المحسوس . والحركة الخارجية تنتقل إلى الدماغ ومنه إلى القلب بواسطة أعضاء الحواس والأعصاب ، فتصادف مقاومة وصدى ، لأن الأعضاء الباطنة هى أيضاً فى حركة متصلة . فهوبز يتابع العلم القديم فى اعتبار القلب مركز الإحساس ، وكذلك الوجدان . فاللذة مثلاً ما هى إلا حركة فى القلب .

وحركات الدماغ مرتبطة بعضها ببعض بحيث إذا تكررت حركة لحقتها أخرى . لذا تتعاقب الصور بنفس ترتيب الإحساسات لتعاقب حركات الدماغ بهذا الترتيب . ويفسر هوبز الإرادة أيضاً تفسيراً آلياً . ذلك أنه يقول إن الحركة الدماغية التى هى التصور إذا ما بلغت إلى القلب نشّطت الحركة الحيوية أو عاقتها .

وطالما أن الإحساس هو المصدر الوحيد للمعرفة ، فإن معرفتنا مقصورة إذن على ما نتناوله بالفعل من الماديات المحدودة . وعلى هذا فإن سلوك الإنسان برمته يقوم على أساس غريزة حب البقاء . وهذه الغريزة بالإضافة إلى الحياة الإنسانية كالحركة بالإضافة إلى الطبيعة . ومن الخطأ الاعتقاد بغريزة اجتماعية تحمل الإنسان على الاجتماع والتعاون ، وإنما الأصل أو « حال الطبيعة » أن الإنسان ذئب للإنسان ، وأن الكل فى حرب ضد الكل ، وأن الحاجة واستشعار القوة يحملان الفرد على الاستئثار بأكثر ما يستطيع الظفر به من خيرات الأرض .

Loolaa

بيد أن الطبيعة الإنسانية تشتمل على العقل إلى جانب الهوى . والعقل المستقيم يحمل الناس على التماس وسائل لحفظ بقائهم أفعل من التى يتوصل بها الفرد بجهاده وحده . وعلى هذا يكون على كل فرد أن ينزل عن حقه المطلق إلى سلطة مركزية فتحل الحياة السياسية محل حال الطبيعة .

ومن هذا التعاقد تنشعب الأخلاق التى تتلخص فى عبارة واحدة هى : « لا تصنع بالغير ما لا تريد أن يصنع الغير بك » .

والسلطة السياسية العامة يجب أن تكون مطلقة قوية إلى أبعد حد ، بحيث لا يعود الفرد بإزائها شيئاً مذكوراً ، ويكون واجبه الخضوع المطلق ، وإلا عاد الجميع إلى التخاصم والتنابذ . ومن حق السلطة السياسية المطلقة هذه تقرير المعتقدات الدينية والقواعد الأخلاقية وحسم المنازعات والخلافات لإقرار النظام . فالدين هو مخافة القوات غير المنظورة التى تعترف بها الدولة ، والخرافة هى مخافة القوات غير المنظورة التى لا تعترف بها الدولة .

والعلم هو معرفة المعلولات بعللها والعلل بمعلولاتها . والعلم قياسى ، لأن القياس برهان النتيجة . وموضوع العلم الأجسام ، لأن كل موجود فهو جسمى . وحيث إن الجسم إما طبيعياً أو صناعياً أو اجتماعياً ، انقسم العلم إذن إلى علم طبيعى يشتمل على المنطق والمبادئ الأولى والرياضيات والطبيعيات ، وإلى مدنى يشتمل على الأخلاق والسياسة . وللظواهر جميعاً علة واحدة هى الحركة . فالهندسة تفحص القوانين الرياضية للحركة وتفحص الميكانيكا مفاعيل حركة جسم فى آخر ، وبفحص علم الطبيعة عن مفاعيل الحركات الحادثة فى ذرات الأجسام ، وبفحص علم الإنسان والسياسة الحركات الحادثة فى نفوس الناس والباعثة على العلم .

* * *

الفصل الثلاثون

ديـــكارت

DESCARTES, RENE

(١٥٩٦ — ١٦٥٠)

ولد ديكارت فى لاهى من بلدان مقاطعة النورين على الشاطئ الأيمن لنهر الكروز بفرنسا ، وينتسب إلى أسرة من صغار الأشراف الفرنسيين . كان أبوه مستشاراً ببرلمان بريتانى . أما أمه فماتت بعد مولده بثلاثة عشر شهراً . فكفلته جدته وقامت على تربيته هى وإحدى المرضعات المخلصات . وتلقى علومه الأولى فى مدرسة لافليش إحدى مدارس اليسوعيين ، فبقى بها ثمانى سنوات تعلم خلالها العلوم والفلسفة .

وقضى ديكارت الفترة ما بين عام ١٦٢٨ و ١٦٢٩ فى هولندة ، وكانت فترة خصبة فى إنتاجه العقلى . فكتب رسالة صغيرة فى الميتافيزيقا موضوعها وجود الله ووجود الروح ، كما حرر كتاباً سماه فيما بعد « العالم » أراد فيه أن يبسط رأيه فى كيفية نشوء العالم بمقتضى قوانين ميكانيكية صرفة . بدا للفيلسوف أن الله خلق المادة خواء ، ثم قام بترتيبها وفقاً للقوانين التى لم يزل يراعيها فى حفظ العالم .

ولكن حادثاً وقع فى عام ١٦٣٣ كان له أثر كبير فى حياة ديكارت الفكرية . ذلك أن هيئة التفتيش حكمت على العالم الإيطالى جليليو لقوله بدوران الأرض . وقد كان ديكارت نفسه يقول نفس الشىء بكتابه « العالم » ، فخاف أن ينشر هذا الكتاب . وفى عام ١٦٣٧ قام بنشر

toobo
www.dvd4arab.com

« المقال فى المنهج » وقرأته الأميرة اليزابث ابنة فردريك الخامس ملك بوهيميا المخلوع ، وكانت أشد أفراد أسرتها ولعاً بالكتب والقراءة . فبدأت بمراسلة ديكارت حوالى عام ١٦٤٠ ، فرحب بها إلى أن تمكنت الصداقة بينهما ، فأهدى إليها كتابه « المبادئ » سنة ١٦٤٤ .

وبعد ذلك جاءته دعوة من الملكة « كريستين » ملكة السويد ، فذهب إلى استكهلم بعد تردد منه وإلحاح من الملكة ، ولكن جوها البارد لم يلائمه ، فأصيب بالتهاب رئوى ، ومات على إثره فى عام ١٦٥٠ .

كان ديكارت يميل إلى إظهار احتقاره للماضى ولكل ما يمت بشىء إلى شواغله العلمية . وكان يزهو أحياناً بجهله بفلسفة أرسطو ، فقال فى أحد ردوده على « فوتيوس » : « لقد أخذْتَ فى التدليل على أننى لا أفهم ألفاظ الفلسفة المشائية ، وهذا صحيح ، ومن المؤكد أننى لا أفهم وزناً لذلك ، لأننى أرى من العبث أن نبذل فى تلك الدراسة عناية وانتباهاً زائدين » . ولم يكن تقدير ديكارت لتحصيل اللغات وللدراسات التاريخية بأحسن من تقديره لفلسفة أرسطو . قال : « ليست معرفة الرجل الفاضل باللغتين اليونانية واللاتينية بألزم من معرفته باللغة السويسرية مثلاً أو البروتينية السفلى . وليست معرفته لتاريخ الإمبراطورية الرومانية الجرمانية بألزم من معرفته لتاريخ أصغر دولة قد توجد فى أوربا ... » . وقال أيضاً فى موضوع آخر : « هل من عرف اللغة اللاتينية كان بذلك أكثر علماً من ابنة شيشرون عند خروجها من مهد الحضانة » .

ويذهب ديكارت إلى أن جميع الأنشطة الذهنية التى نستطيع بها أن نصل إلى معرفة الأشياء دون أن نخشى الزلل عبارة عن فعلين اثنين هما الحدس والاستنباط .

والحدس عند ديكارت هو الرؤية العقلية المباشرة التى يدرك بها الذهن بعض الحقائق التى تذعن لها النفس وتَيْقن بها يقيناً لاسبيل إلى دفعه . والحدس نظرة عقلية بلغت من الوضوح والتمييز أن زال معها كل شك . ويقابل ديكارت بين الحدس والاستنباط الذى لا يتم بتمامه فى زمان واحد ، ولكنه يقتضى حركة من حركات الذهن ، إذ يستنتج شيئاً من شىء آخر .

وبالحدس يستطيع كل إنسان أن يعلم أنه موجود بالضرورة ، لأنه يفكر ، وأن المثلث شكل محدود بثلاثة أضلاع ، ويعلم حقائق أخرى كثيرة قد تفوتنا معرفتها ، لأننا لا نلق بالاً إليها لبساطتها . والحقائق التى من هذا القبيل نستطيع أن نصل إليها بفضل ما لها من بداهة ذاتية . ولذلك سمى ديكارت الحدس « نوراً فطرياً » أو غريزة عقلية نكتسب بها من المعارف فوق ما نظن .

ووسيلة بلوغ اليقين الرياضى هى الاستنباط ، وهو قوة نفهم بها حقيقة من الحقائق على أنها نتيجة حقيقة أخرى نحن على يقين منها . وهو فعل ذهنى بواسطته نستخلص من شىء لنا به معرفة يقينية نتائج تلزم عنها . ويلاحظ أن الاستنباط الديكارتى يختلف عن القياس فى منطق أرسطو ومنطق القرون الوسطى . ذلك أن القياس القديم رابطة بين أفكار ، فى حين أن الاستنباط رابطة بين حقائق . والحدس والاستنباط كلاهما يرجعان آخر الأمر إلى فعل واحد : لأن الاستنباط كما رأينا سلسلة حدوس . وكل شخص عاقل قادر على الحدس والاستنباط ، وقادر على القيام بهما بالفطرة من غير تعلم .

ويذكر ديكارت أربع قواعد فى « المقال فى المنهج » ، وأولاها متصلة بالحدس والثلاث الأخر متصلة بالاستنباط . والغرض من هذه

Looloo
www.dvd4arab.com

القواعد الأربعة أن نصف النحو الذى يعمل الذهن وَفْقه حين يفكر تفكيراً رياضياً وهى :

الأولى : أن لا أتلقى على الإطلاق شيئاً على أنه حق ما لم أتبين بالبداهة أنه كذلك ، بمعنى أن أبذل الجهد فى اجتناب التعجل وعدم التشبث بالأحكام السابقة ، وأن لا أدخل فى أحكامى إلا ما يتمثل لعقلى فى وضوح وتميز يزول معهما كل شك .

الثانية : أن أقسم كل واحدة من المعضلات التى أبحثها ما استطعت إلى القسمة سبيلاً ، وبمقدار ما تدعو الحاجة إلى حلها على أحسن الوجوه.

الثالثة : أن أرتب أفكارى ، فأبدأ بأبسط الأمور وأيسرها معرفة ، وأتدرج رويداً رويداً حتى أصل إلى معرفة أكثرها تعقيداً ، بل أن أفرض ترتيباً بين الأمور التى لا يسبق بعضها البعض الآخر بالطبع .

الرابعة : أن أستعين فى جميع الأحوال بالإحصاءات الكاملة والمراجعات الوافية ، بحيث أصير على ثقة من أننى لم أغفل شيئاً يتصل بالمشكلة المعروضة للبحث .

ويستعين ديكارت بالشك المنهجى . فشكه أقرب ما يكون إلى الصورية منه إلى أن يكون شكاً حقيقياً . ذلك أن الفيلسوف كما يستفاد من طريقته فى التعبير عن الشكل ، وكما يستفاد من بواعثه ، لم يفكر فى اصطناع الشك إلا بعد حين ، فلم يجئ شكه نتيجة أزمة نفسية كما هو الحال عند الغزالى من مفكرى الإسلام ، أو عند القديس أوغسطين من مفكرى المسيحية ، بل كان شكه منهجاً أو طريقة لجأ إليها بعد تفكير وروية . والشك الديكارتى شك نافع إذا ما استُخدم بحيطة وتبصر ، فهو يكون إذن منهجاً مشروعاً لا غبار عليه ، بل الأولى أن يقال إنه منهج مترو يتمتع به كل فكر جاد يريد أن يَسْبر الحقيقة ، وأن يتقدم إلى آفاق جديدة .

* * *

الفصل الحادى والثلاثون

سبينوزا

SPINOZA

(١٦٣٢ — ١٦٧٧)

يعتقد برتراند رسل أن سبينوزا هو أنبل الفلاسفة الكبار وأجدرهم فى رأيه بالحب . فمن الناحية العقلية هناك بعض الفلاسفة الذين برُّوه وتفوقوا عليه ، ولكن من الناحية الأخلاقية فإنه أسْماهم جميعاً حسب اعتقاده . ولكنه كان يعتبر خلال حياته وحتى بعد موته بقرن كامل رجلاً على جانب كبير من المراوغة ، بل ومن الدهاء .

ولد سبينوزا يهودياً ، ولكن اليهود أخرجوه من زُمْرتهم . أما المسيحيون فإنهم بدورهم أبدوا له المقت . وعلى الرغم من أن فلسفته بكاملها محكومة بفكرة الألوهية ، فإن الأصوليين من المسيحيين اتهموه بالإلحاد . ناهيك عن أن ليبنتز الذى يدين له بالكثير ، أنكر فضله عليه ، بل وتجنب بحرص أن يقول كلمة مدح واحدة فيه ، بل وصل إلى حد أن يكذب فينكر معرفته به ، ناعتاً إياه باليهودى المرطوق .

كانت حياة سبينوزا بسيطة للغاية . أما أسرته فقد توجهت إلى هولندة من أسبانيا أو ربما من البرتغال للهرب من محاكم التفتيش . وهو نفسه تلقى تعليمه فى مدرسة يهودية ، ولكنه وجد أن من المستحيل أن يظل ملتزماً بما تعلمه . وعلى الرغم من أنه قد عُرض عليه مبلغ كبير كل سنة نظير إخفائه شكوكه الدينية ، فإنه رفض قبوله . وعندما رفض

Looloo
www.dvd4arab.com

المنحة المذكورة فقد رتبت محاولة لاغتياله . وعندما فشلت تلك المحاولة انصبت عليه جميع اللعنات من جانب المحفل اليهودى . ثم عاش حياة هادئة بأمستردام ، وبعد ذلك فى هامبرج ، متكسباً من تلميع عدسات النظارات . لقد كانت مطالبه قليلة وبسيطة ، وأبدى خلال حياته لامبالاة نادرة بإزاء المال ومتع الحياة . والقليلون الذين عرفوه أحبوه حتى ولو لم يوافقوه على مبادئه . والواقع أن الحكومة الهولندية بتحرريتها المعتادة تسامحت بإزاء آرائه فيما يتعلق بالمسائل اللاهوتية . ووافته منيته فى الخامسة والأربعين من عمره بالسل الرئوى .

وأهم مؤلفاته بعنوان « الأخلاق » ، وقد طبع هذا العمل بعد موته . أما نظريته الأساسية فهى مستمدة من حيث الأساسيات من فلسفة هوبز ، على الرغم من أن هناك اختلافات فى أنحاء متباينة بينهما . وهو يعتقد أن الإنسان وهو فى حال الطبيعة لا يكون محكوماً بصواب أو بخطأ ، وذلك لأن الخطأ يتبدى فى الخروج على قواعد قانون معين . ويذهب إلى القول أيضاً بأن الملك لا يمكن أن يخطئ ، وهو يوافق هوبز على « أن الكنيسة ينبغى أن تخضع خضوعاً تاماً للدولة » . ويعارض بشكل قاطع كل شكل من أشكال الثورة حتى ولو كانت الثورة ضد حكومة رديئة ، ويستشهد بالاضطرابات التى وقعت فى انجلترا كبرهان على الضرر الذى ينشأ عن مقاومة السلطة بالقوة . بيد أنه يختلف مع هوبز فى أنه ذهب إلى أن الديموقراطية هى أكثر أشكال الحكومة قرباً من الطبيعة . ويختلف معه أيضاً فى قوله إن الأفراد يجب ألا يضحوا بجميع حقوقهم لصالح الملك . ولكنه يعتقد بصفة خاصة أن حرية الرأى هامة . ولكن سبينوزا لا يستطيع أن يوفق بين هذا الرأى الأخير وبين قوله بوجوب إعطاء الدولة حق التحكم فى المسائل الدينية .

ويتناول سبينوزا الأخلاق من ثلاث زوايا . فهو يبدأ بالميتافيزيقا ، ثم ينحو إلى سيكولوجية العواطف والإرادة ، ثم ينتهى إلى وضع أخلاق تقوم على ما قرره من ميتافيزيقا وعلم نفس . فبالنسبة للميتافيزيقا لديه فإنها تعديل لميتافيزيقا ديكارت . وبالنسبة لعلم النفس فإنه متأثر بهوبز ، ولكن الأخلاق لديه أصيلة ، وهى أكثر الأشياء قيمة فى الكتاب . على أن العلاقة بين سبينوزا وديكارت تختلف على نحو ما عن العلاقة بين أفلوطين وأفلاطون . ذلك أن ديكارت كان رجلاً متعدد الجوانب ، كما كان مفعماً بالطموح العقلى البالغ ، ولكنه لم يكن مثقلاً بالحماس الشديد للأخلاق . فعلى الرغم من أنه قام باستحداث « البراهين » التى ترنو إلى مساندة المعتقدات المستقيمة ، فإن براهينه كان من الممكن استغلالها بواسطة الشكاك كما فعل كارنيدز ببراهين أفلاطون . وعلى الرغم من أن سبينوزا لم يكن خلوا من الاهتمامات العلمية ، بل قام بتأليف مقال حول قوس قزح ، فإنه كان مهتماً بالدرجة الأولى بالدين والفضيلة . فلقد قبل من ديكارت ومن معاصريه فيزياء مادية وحتمية ، وحاول من خلال هذا الإطار أن يعثر على ما يسمح باقتفاء أثر الفضيلة . وكانت محاولته رائعة ، وهى تثير الإعجاب حتى لدى هؤلاء الذين لا يرون أنها كانت محاولة ناجحة .

وكل شىء فى نظر سبينوزا محكوم بحتمية منطقية مطلقة . فليس هناك شىء اسمه الإرادة الحرة فى المجال العقلى ، كما لا يوجد شىء اسمه الصدفة فى عالم الفيزياء . فكل شىء يمكن أن يحدث ، إنما هو تعبير عن طبيعة الله الغامضة ، ومن المستحيل منطقياً أن تسير الأحداث على خلاف ما هى عليه . وهذا يؤدى إلى نشوء صعاب فيما يتعلق بالخطيئة لم يتوان النقاد عن إبرازها . فأحد النقاد فى ملاحظته بإزاء ما قرره سبينوزا من

www.dvd4arab.com

أن كل شيء قد سبق أن قرره الله، وبالتالى فإنه حسن يتساءل بحُنْق: هل كان من الخير أن يقوم نيرون بقتل والدته ؟ وهل كان من الخير أن يأكل آدم التفاحة ؟ ويجيب سبينورا على ذلك بأن ما كان إيجابياً فى هذين الفعلين كان خيراً، وما كان سلبياً فقط فيهما كان رديئاً، ولكن النقص لا يوجد إلا من وجهة نظر الكائنات المحدودة . أما بإزاء الله فلا توجد أى نقيصة ، لأنه الوحيد كلى الكمال ، ومن ثم فإن الشر الذى نراه فيما يبدو لنا أنه خطايا، لا يوجد عندما يُنظر إليه باعتبار أنه أجزاء من الكل.

ويعتقد سبينوزا مثلما اعتقد سقراط وأفلاطون أن كل خطأ فى التصرف إنما يعزى إلى خطأ فى التفكير . فالمرء الذى يفهم بكفاية ظروفه الخاصة ، سوف يتصرف بحكمة ، بل سوف يكون سعيداً فى مواجهة ما قد يبدو للآخرين سوء حظ . إنه سوف لا يهفو إلى إنكار الذات . ذلك أنه يعتقد أن السعى وراء ما يرضى الذات ، إنما هو على نحو ما المهيمن على السلوك الإنسانى برمته . بيد أن مفهومه عما سوف يختاره الشخص العاقل كهدف للأثرة يختلف فى الواقع عما يذهب إليه الشخص الأنانى العادى .

وطالما أن ما يحدث لنا يصدر عن ذواتنا إذن فهو خير . ولكن ما يصدر عن خارج أنفسنا هو الرديء . فإذا ما حصلنا على فهم واضح ومتمايز عن الكون ، فإننا سوف نفهم أيضاً أن ذلك الجزء من طبيعتنا الذى هو العقل — وهو أفضل جزء من ذواتنا — سوف يقودنا إلى ما هو خير . فاتباع العقل إذن هو اتباع لجوهر الكون . وطالما أن الكون ككل خلو من الشر ، إذن فاتباعنا لهذا الجوهر الكونى الموجود فينا ، سوف يحقق لنا الخير بالكامل ويذب عنا بالتالى أى شر .

* * *

الفصل الثانى والثلاثون

لـــوك

LOCKE, JOHN

(١٦٣٢ — ١٧٠٤)

يعتبر جون لوك نبى ثورة عام ١٦٨٨ ، وهى أكثر الثورات اعتدالاً ونجاحاً . فقد كانت أهدافها معتدلة للغاية ، ولكنها أنجزت بدقة ، ولم تعد هناك حاجة بعد ذلك إلى ثورة أخرى فى انجلترا . والواقع أن لوك يجسد روحها بأمانة ، ومعظم أعماله قد ظهر بعد سنوات قليلة من عام ١٦٨٨ . أما عمله الأساسى فى الفلسفة النظرية فقد كان بعنوان « مقال فيما يتعلق بالفهم الإنسانى » ، وقد انتهى من كتابته فى عام ١٦٨٧ ونشره عام ١٦٩٠ .

أما والد لوك فقد كان بيوريتانياً (تطهرياً) نافح إلى جانب البرلمان. وفى عهد كرومويل عندما كان لوك بأوكسفورد ، كانت الجامعة لا تزال مدرسية فى فلسفتها . كره لوك كلاً من النزعة المدرسية وتعاليم المستقلين . كان متأثراً بديكارت أكثر من غيره . وعندما اشتغل بالطب فإن اللورد شافتسبرى صار زبونه الدائم وعاش لوك فى حمايته . وعندما سقط شافتسبرى فى عام ١٦٨٣ هرب لوك معه إلى هولندة وظل هناك حتى قيام الثورة . وبعد الثورة باستثناء سنوات قليلة اشتغل خلالها فى وزارة التجارة ، كانت حياته مكرسة للعمل الأدبى والمناقشات العديدة التى دارت حول كتبه .

www.dvd4arab.com

أما السنوات التى سبقت ثورة ١٦٨٨ والتى لم يكن بمقدور لوك أن يلعب خلالها أى دور نظرى أو عملى فى السياسة الإنجليزية دون تعرضه لمخاطرة شديدة ، فإنه كان يقضيها فى تأليف كتابه « مقال فيما يتعلق بالفهم الإنسانى » . وهذا هو أهم كتبه ، وهو الكتاب الذى انبنت عليه شهرته ، ولكن تأثيره فى فلسفة السياسة كان عظيماً جداً ومستمراً ، إلى درجة أن من الواجب اعتباره مؤسس التحررية الفلسفية ، ومؤسس التجريبية فى نظرية المعرفة .

والواقع أن لوك هو أكثر حظاً من جميع الفلاسفة . لقد أكمل عمله فى الفلسفة النظرية فى اللحظة التى سقطت فيها حكومة بلده فى أيدى رجال شاركوه فى نفس آرائه السياسية . فمن حيث التطبيق والنظرية فإن آراءه التى نادى بها وجدت قبولاً لدى معظم السياسيين والفلاسفة ذوى الشأن وأصحاب التأثير لعدة سنوات تالية . فتعاليمه السياسية وما أدخل عليها من تطورات على يد مونتسكيو قد تضمنها الدستور الأمريكى ، ويمكن مشاهدتها مجسدة حيثما تكون هناك منازعة فيما بين الرئيس والكونجرس . أما الدستور البريطانى فقد ظل قائماً على أساس تعاليمه حتى وقت قريب ، وكذا فإن الشيء نفسه بالنسبة للدستور الفرنسى الذى وضع فى عام ١٨٧١ .

ولاشك فى أن تأثيره فى فرنسا خلال القرن الثامن — وقد كان تأثيراً عظيماً — إنما يعزى بالدرجة الأولى إلى فولتير ، وهو الذى قضى فى شبابه بعض الوقت فى انجلترا ، وقام بتقديم بعض الأفكار الإنجليزية إلى مواطنيه فى كتاب له بعنوان « خطابات فلسفية » . ولقد تبعه واقتفى أثره الفلاسفة والمصلحون المعتدلون . أما الثوريون المتطرفون فقد ضربوا فى إثر روسو . أما الذين ضربوا فى إثره من الفرنسيين ، سواء كانوا

على حق أم على باطل ، فإنهم اعتقدوا فى وجود روابط مباشرة فيما بين نظريته فى المعرفة وبين أفكاره السياسية .

يبدأ لوك فلسفته السياسية بزعم أن هناك ما يسمى « حال الطبيعة » ، وهى حال سبقت أى حكومة إنسانية . وفى هذه الحال يسود « قانون الطبيعة » ، ولكن قانون الطبيعة يشتمل على أوامر إلهية ، وليس مفروضاً من قِبَل أى مشرِّع إنسانى . وليس من الواضح المدى الزمنى الذى ظلت عليه هذه الحال الطبيعية ، وذلك لأن تلك الحال هى مجرد افتراض إيضاحى قدمه لوك . فهو لم يوضح المدى التاريخى الذى احتلته . ولكن يبدو من سياق كلامه أنه ذهب إلى أن تلك الحال تمثل مرحلة حقيقية فى تاريخ البشرية . وهو يذهب إلى أن الناس قد خرجوا من إطار هذه المرحلة بواسطة عقد اجتماعى قامت على إثره حكومة مدنية . وهو يعتبر أن ذلك العقد حدث تاريخى وقع بالفعل .

والواقع أن ما قاله لوك بصدد حال الطبيعة ليس شيئاً مبتكراً ، بل هو تكرار لتعاليم العصور الوسطى المدرسية . فنجد أن القديس توما الأكوينى يقول إن كل قانون قام الإنسان بصياغته إنما يستمد أصوله من قانون الطبيعة . وعندما يتعارض قانون الإنسان مع قانون الطبيعة فإنه يفقد صفته كقانون ، بل يكون مجرد انحراف عن القانون .

وبالنسبة لحال الطبيعة فإن لوك كان أقل أصولية من هوبز الذى اعتقد أن تلك الحال تتسم بحرب الجميع ضد الجميع ، وأن الحياة كانت قذرة وبهيمية وقصيرة . بيد أن هوبز قد اعتبر ملحداً . أما حال الطبيعة والقانون الطبيعى اللذين قَبِلهما لوك عن أسلافه ، فإنهما لا يخلوان من الأساس اللاهوتى .

www.dvd4arab.com

فما ذهب إليه لوك من أن حال الطبيعة كانت حالاً سعيدة فى الماضى السحيق ، فهو مستمد جزئياً من قصة التوراة عن عصر الآباء ، وجزئياً أيضاً من الأسطورة الكلاسيكية عن العصر الذهبى . أما الاعتقاد العام فى رداءة الماضى السحيق فلم تأت إلا مع مذهب التطور .

ويعتقد لوك أن الحكومة بمثابة العلاج الناجع من المتاعب التى تنشأ عن حال الطبيعة حيث يكون كل فرد هو القاضى الذى يصدر الحكم بصدد قضيته الشخصية . والحكومة هى جمعية سياسية يقدم لها الناس التنازل عن حق الحكم . إنها القانون . والمجتمع المدنى يتضمن حكم الأغلبية . ولكن بينما يبدو هذا الاتجاه ديموقراطياً ، فيجب أن نتذكر أن لوك قد استثنى النساء والفقراء من حقوق المواطنة . وبداية المجتمع السياسى موافقة الأفراد على الالتحاق بمجتمع واحد والعمل على تشكيله . والواقع أن مفهوم العقد الاجتماعى هو فكرة أسطورية ، على الرغم من أن هناك بعض الحالات وجد بها مثل هذا العقد، كما هو الحال بالنسبة لدستور الولايات المتحدة الأمريكية ، ولكنه كان عقداً بين البعض دون البعض الآخر من الأمريكيين المستوطنين .

* * *

الفصل الثالث والثلاثون

بـــركلى

BERKELEY, GEORGE

(١٦٨٥ — ١٧٥٤)

يحتل جورج بركلى أهمية فى عالم الفلسفة على الرغم من إنكاره لوجود المادة ، وهو إنكار دعمه بعدد من البراهين الحاذقة . فلقد اعتقد أن الأشياء المادية لا توجد إلا من خلال إدراكها . أما بالنسبة للاعتراض الذى وجه إليه بصدد هذا الزعم من أن الشجرة مثلاً لا بد وأن تتوقف عن الوجود إذا لم يقم أحد بمشاهدتها، فإنه يجيب بأن الله يدرك دائماً كل شىء . ولو لم يكن هناك إله ، فإن ما نعتقد أنها أشياء مادية ، كانت إذن لتتخذ حياة متقلبة ، وكانت إذن تقفز إلى الوجود لدى نظرنا إليها . بيد أن الأشجار بفضل المدركات الإلهية تتخذ لها وجوداً مستمراً كما تشير البداهة إلى ذلك . وفى رأيه أن هذا الرأى يشكّل برهاناً قوياً على وجود الله .

كان بركلى إيرلندياً وصار زميلاً بكلية الثالوث بدبلن وهو فى الثانية والعشرين . ثم رسم خطة لإنشاء كلية فى برمودا ، ومن ثم فقد توجه إلى أمريكا حيث قضى ثلاث سنوات عاد بعدها إلى بلاده وقد أغضى نهائياً عن مشروعه . وفى عام ١٧٣٤ صار أسقفاً لكلوين ، وفى أواخر أيامه هجر الفلسفة .

أكد بركلى فى فلسفته أن البصر لا يدرك بذاته مقادير الأشياء

Looloo
www.dvd4arab.com

وأوضاعها ومسافاتها ، إذ أن المسافة أياً كانت ما هى إلا خط أفقى يقع على نقطة واحدة من الشبكية . وكل ما يدركه البصر إن هو إلا علامات أو دلائل على المسافات والأوضاع والمقادير ، ذلك بأن إدراك الكيفيات الأولية يرجع فى الأصل إلى اللمس وحده ، وبتكرار التجربة ينشأ اقتران بين مدركات اللمس وبين الإحساسات البصرية ، وهى اختلافات الأضواء والألوان ، أو بعض الإحساسات العضلية الناجمة عن حركات العينين ، فتصير هذه كافية لتقدير مسافات الأشياء وأوضاعها ومقاديرها ، ولا تدعنا العادة نشعر بذلك ، بل نعتقد أننا نبصر الكيفيات الملموسة ونحن نستنتجها استنتاجاً من الكيفيات المبصرة التى هى علامات عليها . وإذا افترضنا أننا خلو من هذه التجربة ، فإننا نشبه عندئذ الأكمه الذى يستعيد البصر ، فلا يستطيع التمييز بين مكعب وكرة بالبصر وحده قبل لمسهما ، إذ لا تبدو المبصرات إلا كسلسلة جديدة من المعانى أو الإحساسات ، فتكون بالنسبة له مثل إحساسات الألم أو اللذة ، أى أنها تكون ذاتية داخلية . وبينما تظن العامة أن هناك توازياً بين الامتداد المبصر والامتداد الملموس لشىء بعينه ، فإن الحقيقة أن معانى اللمس ومعانى البصر نوعان متمايزان ومتغايران ، وليس بينهما ارتباط ضرورى ، بل كل ما بينها تقارن تجريبى .

على أن إنكار المادة لا يعنى إنكار الأشياء . فبركلى يعتقد أننا ندرك المحسوسات ولا نستطيع الشك فى وجودها ، وندركها فى الأماكن التى تبدو فيها . على أنه يميز الإحساس من الصورة ، والموجود من المتخيل ، وهناك شاهدان يسمحان بهذا التمييز : الأول : قوة الإحساس وتميزه بالنسبة للصورة ، فهذه تبدو أثراً ضعيفاً لذاك . والثانى : أن الإحساسات أشد تماسكاً وأكثر انتظاماً من الصور ، فهى تتسلسل بنظام ، فنشعر أنها

ليست من صنعنا ، بل نعتقد بوجودها الخارجى . ذلك أن الشىء الخارجى هو مجموع من الإحساسات التى تعرضها علينا التجربة بطريقة مؤتلفة دائماً ، كما تعرض علينا علاقات بين مختلف المجموعات أو الأشياء . وبتكرار إحساسنا بالعلاقات ، تنشأ فينا عادة توقع إحساسات معينة بعد إحساسات معينة أخرى ، وينشأ لدينا الاعتقاد بدوام الأشياء حتى ولو لم ندركها دائماً . وهذا يكفى لقيام العلم الطبيعى الذى هو عبارة عن تفسير ظواهر تسمى معلولات بظواهر أخرى تسمى عللاً .

ولكن كيف نفسر التلاف الإحساسات فى مجاميع ، واطراد العلاقات بين هذه المجاميع ؟ إن بركلى يقرر أننا لا نلتمس التفسير فى المحسوسات نفسها باعتبارها أشياء قائمة خارج الذهن ، وذلك لأننا لا ندرك شيئاً خارج الذهن ، ولا نستطيع أن نتصور تفاعلاً بين جوهر مادة هو الشىء وآخر روحى هو النفس .

والواقع أن مذهب بركلى يدور كله على المبدأ الذى وضعه ديكارت حين قال إن الذهن لا يعرف الأشياء مباشرة ، بل يعرفها بواسطة ما لديه عنها من معان ، وبذا فإنه يصل إلى آراء مشابهة لآراء الديكارتيين . فلا غرابة أن نرى بركلى وقد فرغ من بيان مذهبه وتأييده على النحو المتقدم ، يجد فى الأفلاطونية والفيثاغورية مزيداً من البيان والتأييد ، فينقل عنهما نصوصاً مطوّلة يحشو بها كتابه العجيب « سيريس » وينهج فيه على منوالها . فقد كان يرمى إلى معرفة الله وتفسير صدور الموجودات (أو المعانى) عن الله . والمعرفة الحسية لا تنبئنا بشىء عن ماهية الله الروحية . فلما قرأ الكتب الأفلاطونية والفيثاغورية أدرك أن المعرفة

Looloo
www.Looloo

الحسية ناقصة وسطحية ، ورأى أن « التطهير الأفلاطونى » يرتفع بنا إلى إدراك المُثُل التى هى الله نفسه ، والتى هى قوانين الوجود ، دون أن يتصورها « معانىَ مجردة » ، ودون أن يعْدل عن رفضه للمعانى المجردة ، وإنما تصورها موجودات عقلية غير مخلوقة ، مع علمه بأن أدق عقل إنسانى إذا بذل أقصى جهده ، فإنه لا يستطيع أن يدرك من هذه المثل الإلهية إلا وميضاً خاطفاً ، لعلوّها فوق جميع الجسميات ، سواء كانت محسوسة أم كانت متخيلة . هذه المثل يخلق الله أشباهاً لها فيعلنها لنا بأن يجعل من العالم موجوداً حياً تعمل فيه نار لطيفة للغاية هى نفسه ، وهى الأداة المباشرة التى يستخدمها الله فى تنظيم الحركات الكونية ، وهى مشبعة بالحكمة الإلهية التى تنفذ إلى جميع الأشياء وتشكل الكيفيات المختلفة أو المعانى المحسوسة ، وتؤلف فيما بينها فى كل منظم ومتماسك .

ويعتقد بركلى أن علم الحساب وعلم الجبر علمان اسميان . فنحن لا نعتبر فيهما الأشياء بل العلامات . ولا نعتبر هذه لذاتها ، بل لأنها توجهنا فى استخدامنا للأشياء . فمعنى العدد ومعنى المقدار إذا ما أخذا بغض النظر عن المحسوسات ، كانا معنيين مجردين ، ومن ثمة يكونان كاذبين ويصير معنى اللامتناهى باطلاً . فمن المحال أن يوجد معنى لمكان لا متناه ، إذ أن كل مكان فهو متناه ، ومن المحال أن يوجد خط لا متناهى الصغر . ذلك أن أى خط لا بد وأن يكون قابلاً للقسمة . ومن المحال قسمة المقدار إلى ما لا نهاية ، إذ أن المكان المدرك بالحس لا بد من أن يكون متناهياً دائماً ، وأن هناك حداً أدنى ملموساً أو مبصَراً لا يُدْرك وراءه شىء . ومن ثم لا يوجد دونه شىء . وما معنى الزمان إلا معنى

تعاقب المعانى فى الذهن . وأما المكان فإن اللامادية تبين بطلانه . فما لم تكن المبادئ الرياضية معقولة ، فإن الرياضيات لا تكون علوماً إذن ، وإنما تكون فنوناً أو صناعات مفيدة فى العمل . وأما العلم الطبيعى فموضوعه قوانين الحركة وتفاعل الأجسام . ولكن اللامادية تبين أن الطبيعة جملة معان . فليس لنا أن نضيف للأجسام قوة وفاعلية ، كما أنه لا يوجد رباط ذاتى بين ما يسمى عِلّة وما يسمى معلولاً . وما نظام العالم إلا نتيجة تترتب على اعتمال الإرادة الإلهية :

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

الفصل الرابع والثلاثون

هيـــوم

HUME, DAVID

(١٧١١ – ١٧٧٦)

دافيد هيوم واحد من أكثر الفلاسفة أهمية ، وذلك لأنه قدم مساهمة منطقية هامة فى الفلسفة التجريبية ، وجمع فيها بين لوك وبركلى على السواء . وأهم مؤلفاته الفلسفية كتابه « دراسة حول الطبيعة الإنسانية » ، الذى ألفه فى أثناء إقامته بفرنسا فيما بين عامى ١٧٣٤ و١٧٣٧ ، وكان وقتئذ شاباً لم ينخرط بعد فى الثلاثينيات ، ولم يكن معروفاً على نطاق واسع . وكان من الطبيعى أن ترفض استنتاجاته فى بداية الأمر . وهو الذى كان يأمل فى أن يَلْقَى هجوماً حاداً فيصده بالبراهين القاطعة والقوية . ولكن بالأسف على العكس من هذا فإن أحداً لم يلتفت إلى كتابه ، فعلق على هذا الموقف الذى قوبل به أول كتاب له بقوله : « إنه ولد ميتاً منذ خروجه من المطبعة » . ولكنه بعد تلك الصدمة سرعان ما استفاق من جديد ، وكرس وقته لكتابة المقالات التى شكل منها الجزء الأول من كتابه الثانى فى عام ١٧٤١ . وفى عام ١٧٤٤ قام بمحاولة فاشلة للحصول على الأستاذية فى أدنبرج . وبعد فشله فى هذه المحاولة اشتغل مدرساً خصوصياً لأحد المجانين . وبعد ذلك اشتغل سكرتيراً لأحد قادة الجيش. والواقع أن كتابه « دراسة حول الطبيعة الإنسانية » هو الذى أيقظ كانط من نعاسه الدجماطيقى .

قام هيوم بزيارة فرنسا فى عام ١٧٦٣ ، ومن سوء حظه أنه بعد أن عقد صداقة مع روسو نشبت بينهما معركة شهيرة أبدى فيها هيوم تحملاً يدعو إلى الإعجاب ، بينما أصر روسو الذى كان يعانى جنون الاضطهاد على الانتقام منه .

وينقسم كتاب هيوم حول الطبيعة الإنسانية إلى ثلاثة أجزاء تتناول الفهم ، ثم العواطف ، ثم أخيراً الأخلاقيات . والأهم والجديد لديه يتبدى فى كتابه الأول .

يقوم هيوم بالتمييز فيما بين « الانطباعات » وبين « الأفكار » . فهذه تشكل نوعين من المدركات ، ولكن الانطباعات ذات قوة وعنف أكثر من الأفكار . أما الأفكار فإنها صور ذهنية ضعيفة للانطباعات فى التفكير والتعقل . والأفكار عندما تكون بسيطة فإنها تكون مثل الانطباعات ولكنها تكون أضعف منها . فلكل فكرة بسيطة انطباع بسيط يشبهها ، كما أن لكل انطباع بسيط فكرة مناظرة . وكل أفكارنا البسيطة فى مظهرها الأول إنما تكون مستمدة من انطباعات بسيطة تناظرها وتمثلها بدقة . ولكن الأفكار المعقدة من جهة أخرى لا تكون بحاجة إلى أن تتشابه مع الانطباعات . فبمقدورنا أن نتخيل حصاناً مجنحاً بغير أن يكون قد سبق لنا مشاهدة مثل ذلك الحصان . بيد أن مكونات هذا المركب الذى يتمثل فى الفكرة المركبة مستمدة جميعها من الانطباعات. أما الدليل على أن الانطباعات تتأتى أولاً ، فإنه مستمد من الخبرة . فمثلاً الشخص المولود أعمى لا تكون لديه أفكار عن الألوان . ومن بين الأفكار نجد أن تلك التى تحتفظ بقدر كبير من الحيوية تنتمى إلى مجال الذاكرة ، أما غيرها فإنه ينتمى إلى التخيل .

www.dvd4arab.com

ويضم الكتاب فصلاً عن « الأفكار المجردة » ، وهو يبدأ بالموافقة الحماسية على ما ذهب إليه بركلى من أن جميع الأفكار العامة ليست سوى أفكار جزئية محددة تترابط فيما بينها بسياق معين يمنحها دلالة قوية ، ويحملها على أن تتداعى وتستجلب الأفكار المشابهة لها . وهو يؤكد أننا عندما تأتينا فكرة إنسان ، فإن تلك الفكرة تكون حائزة على الدقائق التى يتضمنها انطباع الإنسان .

وهيوم يستبعد مفهوم الجوهر من علم النفس كما سبق أن استبعده بركلى من الفيزياء . فهو يقول : ليس هناك انطباع عن الذات ، وبالتالى فلا توجد فكرة عن الذات . ويقول أيضاً : « إنه من جهتى فإنى عندما أغوص فى دخيلتى إلى ما يسمى بذاتى ، فإنى أصطدم دائماً بإدراك ما تتضمنه الذات وليس بالذات ، فأصطدم بالإحساس بالحرارة أو بالبرودة ، أو بضوء أو بظل ، أو بالحب أو بالكراهية ، أو بالألم أو باللذة . فأنا لم يسبق لى أن أمسكت بذاتى فى أى وقت بغير أن يكون هناك إدراك ما لشىء مدرك ، ولا أستطيع بأى حال أن أدرك أى شىء سوى الإدراك » . فهو يعتقد أن الإنسان ليس سوى حزمة أو مجموعة من الإدراكات المختلفة التى يتلو بعضها بعضاً بسرعة لايمكن إدراكها وهى فى تدفق دائم وحركة مستمرة .

والواقع أن استبعاد فكرة الذات على جانب كبير من الأهمية . فالذات إذن ليست شيئاً سوى حزمة من الإدراكات ، وليست شيئاً جديداً بسيطاً . ولكن هذا لا يستتبع القول بأنه لاتوجد ذات ، بل يستتبع فقط أننا لانستطيع أن نقرر ما إذا كانت هناك ذات أم لا . ولكن ما نستطيع تأكيده — جرياً وراء ما ذهب إليه هيوم — هو أننا لا نستطيع أن نقف على الذات إلا باعتبارها حزمة من الإدراكات .

كان هيوم معجباً بقدماء الشكاك ، وكان ينعت نفسه بالشاك ، ويرى أن الفلسفة هى هذا الشك ، وأن الحياة العملية يكفيها وحى الغريزة ، فلا صلة بين الحياة الواقعية والفلسفة . من هنا فإن هيوم فى مجال الأخلاق ينقد المذهب العقلى ويسلم نفسه لوحى القلب والعاطفة كما يقول . فعنده أن الحكم الخلقى ينشأ حين نتصور فعلاً ما بجميع علاقاته ، فتنشأ لدينا عاطفة إقرار أو إنكار ، فنقول عن الفعل إنه خير أو شر ، لالكونه كذلك فى ذاته ، بل للكيفية التى أثر بها فينا . ولسنا نصدر بالإقرار أو بالإنكار عن نزعة أنانية تعتمل بدخائلنا ، بدليل أننا نقر أفعالاً لا تفيدنا شخصياً ، أو أننا ننكر أفعالاً مفيدة لشخصيتنا .

فالواقع أن الذى يصدر أحكاماً أخلاقية ينزل عن وجهته الخاصة ، ويتخذ وجهة مشتركة بينه وبين الآخرين ، فتجىء أحكامه كلية أو عامة . فالعاطفة هى أساس الأخلاق ، أو قل إن عاطفة الزمالة أو « الإنسانية » هى التى تحملنا على محبة الخير للناس جميعاً . وإذا كانت الميول الغيرية أرفع من الميول الأنانية ، وكانت هذه مذمومة وتلك ممدوحة ، فليس يرجع ذلك إلى طبيعتها ، بل يرجع إلى عموم منفعتها . ولما كانت الأخلاق صادرة عن الغريزة ، كانت أصولها واحدة عند الجميع ، وتختلف مع اختلاف الظروف . فالمحبة الأبوية مثلاً غريزة عامة فى مجتمع ما فتتبدى فيه بالحنو والرعاية ، بينما قتل الأطفال مظهر من مظاهرها فى مجتمع جدّ فقير حيث يكون القتل فى تلك الحالات لتجنيب الأطفال ألم الجوع .

ولعلنا نلاحظ مما سبق أن هناك ثنائية فى فكر وفلسفة هيوم . فهو يفصل بين المعرفة والوجود من جهة ، وبين القيم الدينية والأخلاق من

Loolo
www.dvd4arab.com

جهة أخرى . بيد أن هذا الفصل يعتبر فى الواقع قمة الشك ، أو هو الشك بعينه . ذلك أن إنكار القيم فى ضوء المعرفة والوجود ، والاعتراف بها جرياً وراء الغريزة من جهة ، أو من جهة أخرى وراء عاطفة الزمالة أو الإنسانية كما يسميها هيوم ، أو بتعبير آخر الميل للتوافق مع الآخرين ، إنما هو إطاحة بالقيم فى الصميم . ذلك أن أخلاقاً أو قيماً لاتقوم على أساس معرفى وجودى ، ليست سوى انتفاء للمعرفة أو جهل ولا وجود أو عدَم . وطالما نقول إن القيم جهل وعدَم ، فنكون قد حكمنا عليها — بمنطق هيوم — بأنها هُرَاء بغير مضمون .

* * *

الفصل الخامس والثلاثون

روســـو

ROUSSEAU, JEAN JACQUES

(١٧١٢ — ١٧٧٨)

على الرغم من أن روسو يعد فيلسوفاً بالمعنى الفرنسى خلال القرن الثامن عشر ، فإنه لايعتبر كذلك فى رأى برتراند رسل ، وذلك فى ضوء المعايير الفلسفية التى نأخذ بها اليوم . ولكن مع ذلك فقد كان له تأثير عميق فى الفلسفة ، كشأنه بصدد الأدب والتذوق والسلوكيات والسياسة . ومهما يكن رأينا بصدد فلسفته ، وبما كان يتمتع به من مزايا كمفكر ، فلابد لنا من الاعتراف بأهميته القصوى كقوة اجتماعية . وقد تأتت له هذه الأهمية بصفة رئيسية من أنه كان يخاطب القلب ، وما كان يسمى فى ذلك الوقت « الحساسية » «sensibility» . فهو أبو الحركة الرومانسية والمبدع لنظم من الفكر تستنتج حقائق غير إنسانية من العواطف الإنسانية ، وهو فى الوقت نفسه خالق الفلسفة السياسية للدكتاتوريات المتلبسة بالديموقراطية كمقابل للملَكيات التقليدية المطلقة . ومنذ أيامه فإن أولئك الذين يعتبرون أنفسهم مصلحين قد انقسموا إلى فئتين : أولئك الذين نهجوا نهجه ، وأولئك الذين نهجوا نهج لوك . وفى بعض الأحيان تتعاون هاتان الفئتان ولا يرى كثير من الناس عدم اتساق بينهما . بيد أن عدم الاتساق قد يتبدى بزيادة مطَّردة . والواقع أن هتلر كان نتاجاً لروسو ، بينما نجد أن روزفلت وتشرشل كانا من نتاج لوك .

www.dvd4arab.com

ويقدم روسو تاريخ حياته فى كتابه « الاعترافات » بتفصيل واف ، ولكنه لم يكن صادقاً كل الصدق فيما ذكره . وقد كان مغرماً بأن يقدم نفسه كشخص متمرغ فى الخطيئة ، ويبالغ فى التأكيد على ذلك فى بعض الأجزاء من اعترافاته . بيد أن ذلك لم يكن ليثنيه عن أن يذكر أن له قلباً متحمساً ، ولكن تاريخه يذكر أن قلبه الدافئ لم يكن ليثنيه عن اتخاذ تصرفات دنيئة حتى بإزاء أفضل أصدقائه .

ولد روسو فى جنيف ونُشِّئ على المذهب الكلفانى . أما والده الذى كان فقيراً فقد جمع بين مهنتى صنع الساعات وتعليم الرقص . أما أمه فقد ماتت وهو بعد فى طفولته الباكرة ، فكفلته خالته . ترك المدرسة فى الثانية عشرة والتحق بكثير من الحرف لكى يتمرس بإحداها ، ولكنه كرهها جميعاً . وفى السادسة عشرة هرب من جنيف إلى سافوى . ولما لم تكن لديه وسيلة للكسب ، قدم نفسه إلى أحد القساوسة الكاثوليك مبدياً رغبته فى الانضمام إلى الكنيسة الكاثوليكية ، فتم انضمامه الصورى إلى الكنيسة الكاثوليكية فى تورين فى معهد لتعليم الدين المسيحى حسب المذهب الكاثوليكى .

وبعد خروجه من المعهد التحق بخدمة سيدة تدعى مدام دى فرسيلى توفيت بعد التحاقه بخدمتها بثلاثة أشهر . وعند موتها عثر معه على وشاح كانت تمتلكه السيدة المتوفاة ، وكان قد سرقه بالفعل . ولكنه أكد أن خادمة معينة هى التى أعطته له . فوُقِّع عليه العقاب . وهو يؤكد فى اعترافاته أنه هو الذى سرق الوشاح وأنه كان يحب تلك الخادمة .

وبعد ثمانى سنوات لقى فى سافوى سيدة يسَّرت له شيئاً من الاستقرار فاستطاع أن يكوِّن نفسه ، إذ تعلم الموسيقى واللاتينية وقرأ جانباً من فلسفات الفلاسفة . وبعد خمس سنوات قضاها فى باريس ، غادرها إلى

البندقية ، فكان كاتباً لسفير فرنسا فيها ، وعاد إلى باريس وهو فى الثالثة والثلاثين ، وأخذ يتردد على الفلاسفة وبخاصة ديدرو . وفى صيف ١٧٤٩ قرأ فى إحدى الصحف خبراً يقول إن أكاديمية ديجون تعرض للمسابقة هذه المسألة « هل عاونت الفنون والعلوم على تصفية الأخلاق ؟ » فاهتزت نفسه وجاشت بالأفكار وخطر له الجواب بالسلب ، وشرع يكتب ، وقدم للأكاديمية ما كتبه وأحرز الجائزة . وهذا أصل كتابه الأول بعنوان « مقال فى العلوم والفنون » (١٧٥٠) الذى طيَّر صيته فى أرجاء أوربا . وتوالت كتاباته ومنها : « العقد الاجتماعى » و « إميل » ، فأنكرت السلطة الباريسية الكتاب الأخير وهمت باعتقال المؤلف ، ففر إلى سويسرا ، ولكن السلطة بها كانت قد أنكرت الكتاب أيضاً فطردته ، فلجأ إلى انجلترا بصحبة هيوم ونزل ضيفاً عليه ، ولكنه لم يلبث أن خاصمه وعاد إلى باريس ، فسمح له بالإقامة فى فرنسا ، فقضى بقية أيامه فى حالة مضطربة .

يقول روسو : إن الإنسان فى بدائيته كان سعيداً صحيح البدن قوياً ونقى السريرة ، ولكنه خرج من تلك الحياة السعيدة بأن عرضت له أولاً أسباب طبيعية ، كالجدب والبرد القارس والقيظ المحرق ، اضطرته إلى التعاون مع غيره ، ثم اضطرته الفيضانات والزلازل إلى الاجتماع بصفة مستديمة ، فاختُرعت اللغة وتغير السلوك وبرز الحسد .

على أن استمرار المجتمع صار ضرورياً ، ومن العبث محاولة فضِّه والعودة إلى حال الطبيعة . وكل ما نستطيع صنعه هو أن نصلح مفاسده بأن نقيم الحكومة الصالحة وأن نهيء لها تربية المواطنين الصالحين . ويقول روسو بالعقد الاجتماعى فيذهب فيه إلى أن هذا الفرض ممكن التحقيق بأن يحل القانون محل الإرادة الفردية

Loolee
www.dvd4arab.com

ويدعو روسو إلى الرجوع إلى الطبيعة فى التربية ، فيترك الطفل يربى نفسه بنفسه ، وبذلك ينشأ حراً جديراً بأن يكون عضواً فى دولة حرة ، إذ ما من وسيلة لتربية الطفل لأجل الحرية إلا تربيته بالحرية . وهذا يعنى أن التربية يجب أن تكون سلبية ما أمكن ، فتقتصر على معاونة الطفل فى تربية نفسه بنفسه ، وتجنب كل ما يضيِّق عليه الخناق ويقيِّده .

والواقع أن بعضاً مما ذهب إليه روسو فى تربية إميل فيه بعض الصواب وكثير الخطأ . ذلك أن الطفولة بحاجة إلى الحرية وتفتيق الشخصية والعمل على إطلاق المواهب الكامنة من مكامنها ، وإحالة الاستعدادات إلى إمكانات ، ولكنها فى حاجة أيضاً إلى ما يلجمها ويوجهها بالقسر والإجبار فى مسالك معينة . والخطأ الذى وقع فيه روسو يتبدى فى عدم تمييزه بين الرغبات والحاجات . وواضح أنه انحاز انحيازاً غير مشروط إلى رغبات الطفل وقد أغضى فى الوقت نفسه عن حاجاته . وهناك حالات كثيرة تتضارب فيها الحاجات مع الرغبات . فقد لا يرغب الطفل فى اتباع أصول النظافة وتجنب ما يقيه من الإصابة بالعدوى بالأمراض المختلفة ، فيكون من الضرورى إلزامه باتباع أصول النظافة والصحة . وقد لا يرغب الطفل فى الانتظام على المدرسة ، أو قد لا يرغب فى تعلم الكتابة ويحب أن يتعلم القراءة فقط . فهل نتركه على هواه فينشأ قارئاً فقط لا يعرف الكتابة ؟ وإذا نحن أردنا تعريف التربية بأى مجتمع ، إذن لقلنا ببساطة إن التربية هى صياغة الطفولة فى قوالب اجتماعية مناسبة بحيث يتكيف الناشئة لخطوط العريضة بذلك المجتمع . فهل ترك الطفولة لما تريد أن تكون عليه يحقق تلك الصياغة التكيفية ؟ بالطبع لا .

* * *

الفصل السادس والثلاثون

كانـــط

KANT, IMMANUEL

(١٧٢٤ — ١٨٠٤)

يعتبر إمانويل كانط أعظم فلاسفة العصر الحديث . وطوال حياته كلها عاش فى كونجسبرج أو قريباً منها فى شرق بروسيا . وحياته الخارجية كانت حياة أكاديمية وبغير أحداث تذكر ، على الرغم من أنه عاش خلال حرب السبع سنوات والتى خلالها احتل الروس شرق بروسيا ، وأيضاً خلال الثورة الفرنسية والجزء الأول من حكم نابليون.

كانت أسرته فقيرة وعلى جانب عظيم من التقوى والفضيلة ، ومنتمية إلى شيعة بروتستانتية . دخل فى الثامنة إحدى المدارس التابعة للشيعة التقوية ، وأتم برنامجها فى السادسة عشرة . وكان أظهر ما أفاده منها شيئين : إعجابه باللغة اللاتينية وما تنطوى عليه قواعدها وتراكيبها من روح الجد والنظام ، وإعجابه بالرواقية الرومانية وما تتحلى به من نبل وشجاعة . ثم تتلمذ بعد ذلك على يد أستاذ فلسفة بجامعة مدينته ، فدرس الرياضيات والفلسفة ، وكان ذلك الأستاذ من أتباع التَّفَوية ومن أتباع فولف ناشر فلسفة ليبنتز الموسومة بالعقلانية ، فعرف عن طريقه مؤلفات نيوتن ، فكانت عنصراً هاماً من عناصر فكره .

توفى والده فرأى أن يتكسب رزقه بتعليم أبناء بعض الأسر الغنية ، وزاول هذا العمل فى ثلاث أسر على التوالى من أعلى المنطقة . قضى فى

Loolop
www.dvd4arab.com

ذلك تسع سنين لم ينقطع أثناءها عن التحصيل والتفكير . قرأ بعد ذلك شفتسبرى وهاتشيسون وهيوم وروسو ، فتغير تفكيره تغيُّراً عميقاً . وكان تأثير هيوم أقوى من غيره فى تفكيره ، وقد قال كانط فيما بعد إن هيوم أيقظه من سباته الاعتقادى ، وكان ذلك رأيه فى مبدأ العِلِّية بنوع خاص ، إذ كان قد قال إن مبدأ العلية ليس قضية تحليلية ، أى أن المعلول ليس متضمناً فى العِلّة أو مرتبطاً بها ارتباطاً ضرورياً ، وأن الضرورة التى تَبين له ، ماهى إلا وليدة عادة تتكون بتكرار التجربة .

أما روسو فكان يدعو إلى الرجوع إلى الطبيعة ، أى إلى الفطرة الخاصة مما غشَّاها به المجتمع من عرف وتقاليد . فعلمه روسو أن حال الطبيعة أسمى من حال المدنية ، وأن التربية يجب أن تكون سلبية فى الأكثر ، فتقتصر على ضمان حرية الميول الطبيعية ، وتنبذ إكراه العرف المصطنع . فروسو صار بالنسبة له عالم الأخلاق المفضَّل . فكما أن نيوتن هو الذى اكتشف المبدأ الذى يربط ما بين قوانين الطبيعة المادية ، كذلك استكشف روسو الحقيقة البسيطة التى تضىء الطبيعة الإنسانية حتى أعماقها ، وهى الخلقية الصافية المصفاة من كل إضافة زائفة .

وكانط يعتقد أن الفلسفة الخلقية لاتقوم على التجربة الظاهرة ، ولا على حس باطن كما سبق أن اعتقد تحت تأثير الفلاسفة الإنجليز وروسو ، بل تقوم على العقل وحده . فالعقل هو الذى يمدنا بمعنى الواجب الذى هو الركن الركين فى الأخلاق . أما معانى الله والنفس والحرية والخلود التى كانت الفلسفة السلفية تقيم الأخلاق عليها ، فلا سبيل إلى اعتبارها أساساً لها بعد أن بيَّن نقد العقل النظرى استحالة العلم بها ، على أنه يمكن الإيمان بها إذا أدى بنا إليها تحليل المعانى

الأخلاقية نفسها ، فتبنى الميتافيزيقا على الأخلاق بدل أن تبنى الأخلاق على الميتافيزيقا .

وفى كتابه « نقد الحكم » أو فلسفة الجمال والغائية ، فإنه يذهب إلى القول بوجود قوة أخرى حاكمة بالجمال والغائية ، أى واضعة نسبة بين ماهو كائن وما يجب أن يكون ، وبين الضرورة الطبيعية والحرية ، فوضوع هذه القوة يحتل مكاناً وسطاً بين الحق والخير . فهذه القوة نفسها متوسطة بين العقل والإرادة ، وتسميتها بالحكم آتية من المماثلة بين مظاهرها وبين الحكم المنطقى . فهى كالحكم ، لأنها تحدد نسبة بين شيئين متغايرين ، فالحكم بالجمال آنى تلقائى ، أما الحكم بالغائية فهو وليد التجربة والاستدلال . والحكمان ذاتيان ، وليس لهما قيمة موضوعية ، ولكنهما صادران بموجب تركيب الفكر .

كان الجدل وقت كانط حول الدين شديداً ، فضلاً عما للدين فى ذاته من أهمية لدى الفيلسوف ، فقام بتأليف كتاب بعنوان « الدين فى حدود العقل الخالص » يرجع فيه الدين إلى مجرد عاطفة ، ويؤول العقائد تأويلاً رمزياً ، جرياً وراء المذهب التقوى الذى نشأ عليه .

وكان قد انقطع منذ زمن طويل عن الاختلاف إلى الكنائس وعن كل عبادة خارجية . فلما ظهر الكتاب وجهت إلى المؤلف رسالة ملكية تعرب عن عدم رضا الملك ، لأنه يشوه فى ذلك الكتاب وفى بعض رسائله الأخرى بعض العقائد الجوهرية فى المسيحية أو يحط من قدرها ، وطلب منه الملك الكف عن نشر مثل هذه الأضاليل وإلا عرَّض نفسه لإجراءات صارمة . فأجاب بأن موقفه الفلسفى يحترم المسيحية ، وتعهد بعدم الكتابة أو التعليم فى الدين بصفته تابعاً أميناً لجلالته . ولكن كانط قال فيما بعد أنه تعمَّد وضع هذا التحفظ ، لأنه أراد أن يؤقت تعهده

www.dvd4arab.com

بحياة الملك . وبالفعل عاد إلى الكتابة فى المسائل الدينية بعد وفاة ذلك الملك .

وعندما يعرض كانط للحرية والخلود والله ، فإنه يرى أنها أمور يؤدى إليها العقل العملى ، حتى وإن عجز العقل النظرى عن البرهنة عليها . فهى مسلمات العقل العملى، وهى عقائد غير شخصية وغير ذاتية، بل هى عقائد موضوعية كلية، لأن العقل العملى نفسه هو الذى يفرضها . فهى عقائد مشروعة والتسليم بها إقرار بتفوق العقل العملى على العقل النظرى . غير أن هذا التفوق لا يعنى العلم بواسطة العقل العملى بما لا يستطيع العقل النظرى العلم به ، بل يعنى فقط أننا نثبت باسم العقل ما يقتضيه العمل ، فنؤمن به إيماناً خلقياً أو عملياً قائماً على حاجة العقل العملى .

وفى السنة التى ظهر فيها كتاب كانط « ميتافيزيقا الأخلاق » أى عام ١٧٩٧ شعر بانحطاط قواه العقلية ، فاعتزل التعليم بالجامعة بعد أن زاوله نيفاً وأربعين سنة، محاضراً أثناءها فى شتى العلوم، فضلاً عن فروع الفلسفة . فقد كان متوفراً بكليته على العلم، ولم يتزوج، ولم يكن له مع أقرب أقربائه سوى علاقات متباعدة ، وإن كان يحلو له الاجتماع بالأصدقاء حول مائدة الطعام، وبخاصة غير الجامعيين منهم، والتبسط معهم فى أحاديث الأسفار والأدب والاقتصاد ، فيفيد منهم معارف لم يكن يصادفها بنفسه . ولكن أخذت حالته الجسمية والعقلية تسوء بمرور الزمن ، حتى فقد البصر والذاكرة . ولما وافته المنية كانت كلمته الأخيرة قوله : « حسناً » .

* * *

الفصل السابع والثلاثون

هجـــل

HEGEL, GEORGE GRIEDRICH

(١٧٧٠ – ١٨٣١)

كان هجل التعبير الحقيقى عن ذُرْوة النشاط فى الفلسفة الألمانية التى بدأت منذ كانط . وبالرغم من أنه كثيراً ما كان يوجَّه النقد إلى كانط ، فإن نظامه لم يكن ليبزغ إلى الوجود لولا وجود كانط . أما تأثيره فقد كان عظيماً جداً ، ليس فقط فى ألمانيا ، بل فى ربوع كثيرة أيضاً ، وإن كان ذلك التأثير قد أخذ حالياً فى الاضمحلال . ففى أواخر القرن التاسع عشر كان الفلاسفة الأكاديميون المتزعمون للحركة الفلسفية فى كل من أمريكا وبريطانيا هجليين إلى حد بعيد . وحتى خارج نطاق الفلسفة البحتة ، فإن كثيراً من اللاهوتيين البروتستانت كانوا هجليين ، كما أن فلسفة التاريخ لديه قد تركت أثرها بعمق فى النظرية السياسية . وكما هو معروف فإن ماركس كان تلميذاً لهجل فى شبابه ، وقد استقى جانباً من نظامه الفلسفى من الملامح الهلجية الهامة .

أما حياة هجل فإنها لا تتضمن سوى أحداث قليلة هامة . وفى شبابه كان شغوفاً بالنزعة النسكية ، بل إن آراءه المتأخرة قد تعتبر إلى حد ما بمثابة صَبْغ ما تبدى له فى البداية بصبغة نسكية بالعقلانية . ولقد عمل أستاذاً فى هيدلبرج وانتهى به المطاف قائماً على برلين منذ عام ١٨١٨

Lolee
www.dvd4arab.com

حتى وفاته ، وكان فى أواخر حياته بروسياً متحمساً وخادماً موالياً للدولة التى رحبت به بفضل ما كان له من مكانة فلسفية رفيعة ، على الرغم من أنه فى شبابه كان يحتقر بروسيا ومعجباً بنابليون .

أما فلسفة هجل فهى صعبة جداً . لقد استبقى من نزعته النسكية فى أوائل نشاطه الفكرى الاعتقاد فى بطلان انفصال الأشياء بعضها عن بعض . فالعالم فى نظره ليس مجرد تجميع لوحدات جامدة ، سواء كانت ذرات أم أرواح يستقل كل منها بذاته . فالواقع كما تبدى له ، هو أن الأشياء المحدودة التى تبدو مستقلة بنفسها إنما هى خداع فى تفسير الوجود . فليس هناك شىء حقيقى بالكلية وتماماً إلا الكل . بيد أنه اختلف عن كل من بارمنيدس وسبينوزا فى تصورهما للكل كمادة بسيطة ، بل تناوله كنظام معقد من النوع الذى نسميه كائناً حياً . فالأشياء التى تبدو فى ظاهرها منفصلة بعضها عن بعض والتى يبدو أن العالم يتكون منها ليست ببساطة سوى خداع إدراكى . فكل منها يتضمن درجة ما من الواقع ، وحقيقتها تتبدى فى جانب ما من الكل . وفى ضوء هذا أنكر هجل حقيقة الزمان والمكان ، لأن الاعتراف بهما يعنى الفصل والتركيب .

ويطلق هجل على الكل فى تعقده اسم « المطلق » ، والمطلق روحانى . أما وجهة نظر سبينوزا القائلة بأن المطلق يشتمل الامتداد بالإضافة إلى الفكر فقد نبذها هجل . فهو يؤكد أن الواقع عقلانى ، وأن العقلانى واقع . وهناك شيئان يميزان هجل من غيره من فلاسفة كانت لهم نظرة ميتافيزيقية . الشىء الأول : تأكيده على المنطق ، فهو يذهب إلى أن طبيعة الواقع لا يمكن أن تكون متناقضة . أما الملمح الثانى الذى يميز هجل فهو الحركة الثلاثية التى تسمى بالديالكتيك .

والمعرفة ككل تسير وفق الديالكتيك ، فهى تبدأ بالإدراك الحسى حيث لا يكون هناك سوى معرفة الموضوع . وبعد ذلك ومن خلال النقد الشكى للحواس ، فإنها تصير معرفة ذاتية . وفى النهاية تصل تلك المعرفة إلى مرحلة تجمع بين الذاتية والموضوعية بحيث لا يكون ثمة تمييز أو تفرقة فيما بين هذين الطرفين .

وتبعاً لهجل فإن أفضل تفكير إنما يتسم بالتدفق والتداخل . فالحق والباطل لا يمكن أن يوصفا بأنهما متناقضان كما يفترض عادة . فليس هناك فى الواقع شىء زائف برُمَّته ، كما أنه لا يوجد شىء مما نعرفه يمكن أن يوصف بأنه حقيق برُمَّته . فإذا ما سأل سائل : « أين ولد قيصر ؟ » فإن الإجابة عن هذا السؤال تكون مباشرة وصحيحة ، ولكن الصحة فى هذه الحالة ليست صحة فلسفية . ذلك أن الحقيقة الفلسفية لا تنسب إلا للكل ، وليس هناك شىء جزئى يمكن أن يكون حقيقياً بصورة مطلقة .

يقول هجل : إن العقل لدى الفرد هو التعبير بيقين . ولكن هذا لا يعنى أن المرء وهو فى حالة انفصال يمثل الحقيقة بعقله . إنه يكون فى هذه الحالة مجرد مشارك فى الحقيقة الكلية . ومعنى هذا أنه كلما زدنا عقلانية ازدادت نسبة مشاركتنا فى تلك الحقيقة الكلية .

والدولة عند هجل هى حقيقة الفكرة الخلقية . إنها الروح الخلقية ، وهى الإرادة الجوهرية المنظورة البيِّنة بذاتها ، فهى تفكر وتعرف نفسها ، كما أنها تنجز وتتى بما تعرفه بالقدر الذى تصل إليه معرفتها . والدولة لديه موجودة لتحقيق مصالح الأفراد فحسب ، كما يزعم اللبراليون . فالواقع — كما يزعم هجل — أن للدولة علاقة مختلفة بالفرد . فطالما أنها هى الروح الموضوعية ، فإن الفرد لا يستطيع أن يحصل على

Loolo
Loolo.com

الموضوعية والحق والروح الخلقية إلا بقدر ما يكون عضواً بالدولة ، علماً بأن مضمونها الحقيقى وهدفها هو الوحدة فى حد ذاتها . صحيح هناك دول رديئة ، ولكن مثل تلك الدول توجد فحسب ، وليس لها واقع حقيقى ، بينما نجد أن الدولة العقلانية لا نهائية فى ذاتها .

واضح أن هجل يطالب للدولة بما سبق أن طالب به القديس أوغسطين للكنيسة ، بيد أن ما زعمه هجل للدولة لايقوم على أساس متين كما هو حال أوغسطين . فبينما تنتمى الكنيسة إلى فكرة روحانية ، فإن الدولة مجرد تجمع بشرى لا يرتكز على أسس روحية . ناهيك عن أن هناك دولاً كثيرة ، بينما لم تكن هناك سوى كنيسة واحدة فى عهد القديس أوغسطين ، أعنى الكنيسة الكاثوليكية .

ويناهض هجل فكرة قيام أى اتحاد بين الدول لتكوين دولة عالمية واحدة . كما أنه يناهض فكرة عصبة الأمم مع استقلال كل دولة فيها . فواجب المواطن أن يكون موالياً لدولته وألا يتعدى ولاؤه ذلك النطاق. ومن هنا فإنه يقر بأن الحرب ليست شراً صرفاً ، أو أنها شىء ينبغى علينا أن نسعى للاشاته . ذلك أن واجب الدولة لا ينحصر فى مجرد الحفاظ على حياة مواطنيها وممتلكاتهم ، بل عليها أن تحمى ذاتها من الأعداء الخارجيين باعتبارها مركب أو فرد ، وباعتبار الأفراد مجرد خلايا زائلة فى نطاق ذلك المركب . ويرى هجل أن من الخير أن تنشب الحروب من حين لآخر . ويرى أيضاً أن الحرب تحسّن الصحة الخلقية للجماهير ، بينما يعمل السلام الدائم على خنقها . فالدول بمثابة أفراد فى حال الطبيعة ، ومن ثم فمن حق وواجب كل منها أن تدافع عن وجودها وأن تطهر نفسها بالحروب .

* * *

الفصل الثامن والثلاثون

شـــوبنهور

SCHEPENHAUER, ARTHUS

(١٧٨٨ — ١٨٦٠)

يعتبر شوبنهور شخصية غريبة فى أنحاء كثيرة بين الفلاسفة . فهو متشائم ، بينما ينحو جميع الفلاسفة تقريباً إلى التفاؤل إلى حد ما . وهو ليس أكاديمياً تماماً مثل كانط وهجل ، كما أنه فى الوقت نفسه ليس خارج دائرة الأكاديميين تماماً . وهو مبغض للمسيحية مفضلاً عليها دينين من ديانات الهند هما الهندوسية والبوذية . وهو رجل واسع الثقافة ، كما أنه فى الوقت نفسه مغرم بالفن والأخلاقيات . وهو فى الأغلب متحرر من النزعة القومية ، فكان يحس بأنه مع الكُتّاب الإنجليز والفرنسيين مثلما هو مع كُتّاب بلده. ولم يكن غرامه بالفلاسفة المحترفين بحثاً وراء فلسفة يمكن أن يعتقدوا فى صحتها وأهميتها كغرامه بالشخصيات الفنية والأدبية . ولقد بدأ بالتأكيد على الإرادة ، شأنه فى ذلك شأن فلاسفة القرنين التاسع عشر والعشرين . ولكن الإرادة لديه بالرغم من أن أساسها كان ميتافيزيقياً ، فإنها كانت شراً من الناحية الخلقية . وهو يعترف بأن مصادر فلسفته كانت كانط وأفلاطون .

ينتمى والداه إلى أسرتين شهيرتين فى مجال التجارة فى دانزج حيث ولد . وقد كان والده فولتيرياً ، إذ كان يعتبر انجلترا بلد الحرية والذكاء . كره اعتداءات بروسيا على دانزج المستقلة والحرة ، وقد زاد غيظه عندما ضمت إلى روسيا فى عام ١٧٩٣ ، مما حدا به إلى الانتقال إلى هامبورج متحملاً فى ذلك خسارة مالية فادحة . عاش

Loolaa
www.dvd4arab.com

شوبنهور هناك مع والده بين عامى ١٧٩٣ و ١٧٩٧ ، وبعد ذلك قضى سنتين فى باريس ، وقد فرح والده لأن ابنه قد نسى اللغة الألمانية تقريباً وفى عام ١٨٠٣ ألحق بمدرسة داخلية بانجلترا حيث كره الرياء والنفاق. وبعد سنتين صار كاتباً بإحدى المؤسسات التجارية فى هامبورج إرضاء لوالده ، بينما كان يهفو بقلبه إلى الاشتغال بالأدب والمسائل الأكاديمية ، وقد تحقق له ذلك بعد وفاة والده الذى يقال إنه انتحر . وكانت والدته راغبة فى أن يترك التجارة ويلتحق بالمدرسة والجامعة . وكان من المتوقع كنتيجة لذلك أن يفضل والدته على والده ، ولكن الذى حدث بالفعل كان على العكس من ذلك تماماً . فقد أضمر قلبه بالبغض لوالدته ، بينما احتفظ بذكريات مفعمة بالحب لوالده .

يرى شوبنهور أن الإرادة الكلية هى جوهر الوجود يتجلى فى مختلف الموجودات . فهى تدفع إلى حب البقاء الذى ينشأ عنه تعارض الموجودات وتصارعها : يفترس البشر والعجاوات بعضهم بعضاً ، ويفترسون جميعاً النبات ، ويستهلك النبات الهواء والماء وغيرها من المواد . الحياة إذن شر ، وكل ما نصادفه من خير هو زائف . وإذا كنا نتصور الحياة خيراً ونحرص عليها ونسعى إلى الاستزادة منها ، فهذا راجع إلى ما تبهرنا به الإرادة الكلية من خيرات مظنونة وما تثيره فينا من آمال كاذبة لنستطيع البقاء بوسائل جديدة . فبنو الإنسان يعتقدون أنهم يختارون غاياتهم اختياراً ، وهم فى الحقيقة مدفوعون من حيث لا يشعرون . والحياة شر تشهد بذلك التجربة ، ويشهد به النظر فى ماهية الألم واللذة . فالألم انفعال إيجابى . إنه ترجمة عن حاجة مفيدة للحياة ، واللذة إشباع هذه الحاجة وتلطيف مؤقت لها . فهى انفعال سلبى ، وإن بدت حالة إيجابية . فتلك وسيلة من وسائل خداع الإرادة الكلية .

* * *

الفصل التاسع والثلاثون

نيتشـــه

NIETZSCHE, FRIEFRICH WILHELM

(١٨٤٤ — ١٩٠٠)

اعتبر نيتشه نفسه بحق خليفة شوبنهور ، ولكنه فى الواقع متفوق عليه من عدة جوانب ، وبخاصة فيما يتعلق باتساع مذهبه . فما دعا إليه شوبنهور من تشاؤمية بصدد الإرادة الكلية فى مجال الأخلاقيات يبدو متنافراً مع ميتافيزيقا تلك الإرادة . وعلى الرغم من أن نيتشه كان أستاذاً فإنه كان فى الواقع أديباً أكثر منه فيلسوفاً أكاديمياً. فهو لم يخلق نظريات تقنية جديدة فى الوجود أو المعرفة ، فأهميته تتبدى بالدرجة الأولى فى مجال الأخلاق ، وبالدرجة الثانية فى نقده التاريخى الحاد .

كانت حياته بسيطة . كان والده قسيساً بروتستانتياً ، وكانت أم نيتشه مفعمة بالتقوى الشديدة . لقد كان نابغة فى الجامعة فى الكلاسيكيات وفى دراسة الفيلولوجيا ، لدرجة أنه فى عام ١٨٩٦ قبل حصوله على الدكتوراه عُرضت عليه أستاذية الفيلولوجيا فى جامعة باسل فقبلها . أما صحته فلم تكن جيدة على الإطلاق ، وبعد فترات من المرض وحصوله على الأجازات المرضية المستمرة ، اضطر للاستقالة فى النهاية فى عام ١٨٧٩ ، وبعد ذلك عاش فى سويسرا وإيطاليا . وأصيب بالجنون فى عام ١٨٨٨ ، وظل على تلك الحال حتى وفاته . وقد كان معجباً جداً بفاجنر ولكنه تشاجر معه . وبعد تلك المشاجرة

www.dvd4arab.com

قام بنقده بفظاعة ، للدرجة أنه اتهمه باليهودية . بيد أن نظرته العامة ظلت مشابهة جداً لنظرة فاجنر ، وبخاصة فيما يتعلق بالسوبرمان .

ونقد نيتشه للديانات والفلسفات مسوق بكليته ببواعث خلقية . فهو معجب ببعض الخصائص الأخلاقية التى يعتقد أنها لا تتسنى إلا لقلة أرستقراطية . أما الأغلبية فى رأيه فليسوا سوى أدوات لرفاهة وسمر القلة ، ويجب ألا تكون لهم مطالب لنوال السعادة أو الرفاهة . وهو لا يعترض بحال على ما يمكن أن يقاسوا منه من عذاب إذا كان ذلك مما يُفضى إلى إنتاج رجل عظيم .

ونيتشه مغرم أيضاً بإضفاء التناقضات الظاهرية على كتاباته ، وذلك حتى يصيب القارئ التقليدى بصدمة . وهو يفعل ذلك باستخدامه لكلمتى « خير » و « شر » بما يتضمناه من معنى مألوف ، وبعد ذلك يقول إنه يفضل « الشر » على « الخير » . وكتابه « ما بعد الخير والشر » يستهدف بالفعل تغيير رأى القارئ ، وذلك بالثناء على ما هو شر والنعى على ما هو خير . فهو يقول مثلاً : « إن من الخطإ أن نعتبر أن من الواجب تحقيق الانتصار للخير والقضاء على الشر » .

والفضيلة الحقيقية — وهى فى تعارض كامل مع الفضيلة التقليدية — يجب ألا تناط بالجميع ، بل يجب أن تستأثر بها القلة ، ومن الضرورى بالنسبة للصفوة أن يشنوا حرباً ضد الجماهير ، وأن يقاوموا الميول الديموقراطية الشائعة ، وذلك لأن الناس المتوسطين يتعاونون بعضهم مع بعض لكى يحيلوا أنفسهم إلى سادة . فكل ما يعمل على التذليل وعلى التخنث . وهو ما يسمح « للجمهور » أو « للمرأة » بأن تتقدم الصفوف ، إنما يساعد على تحقيق الاقتراع العام ، وهو ما يعنى سيطرة الناس « المستضعفين » . ولقد كان روسو فى رأيه هو الذى أشاع ذلك الضلال ،

وهو الذى جعل المرأة ذات قيمة ، ثم تلاه الاشتراكيون بمناصرتهم للعمال والفقراء . فجميع هؤلاء يجب مقاومتهم .

والواقع أن المذهب الأخلاقى عند نيتشه لا يتسم بالدعة وتحقيق الرغبات واللذات الشخصية بأى معنى من المعانى المألوفة . فهو يؤمن بصرامة التربية الأسبرطية وبالقدرة على تحمل الألم والدعوة إلى إيقاع الألم على الآخرين من أجل تحقيق أهداف هامة . وهو يجل قوة الإرادة فوق أى شىء آخر . يقول نيتشه فى هذا الصدد : « إنى أقيس قوة الإرادة فى ضوء كمية المقاومة التى يمكن أن توفرها وكمية الألم والعذاب التى يمكن أن يتحملها المرء ويعرف كيف يحولها لمصلحته . وإنى لا أشير إلى الشر والألم بإصبع الاتهام ، بل إنى أتمنى أن تصير الحياة فى يوم ما أكثر شراً وأكثر امتلاءً بالعذاب عما بلغته حتى الآن » . ونيتشه ينظر إلى العطف باعتباره ضعفاً يجب مقاومته . والشىء الذى يجب العمل على بلوغه تلك الطاقة الهائلة للعظمة التى يمكن أن تشكل إنسان المستقبل بواسطة الخضوع للنظام وأيضاً بإبادة الملايين من المستضعفين فى الأرض ، ولقد تنبأ بابتهاج أكيد بمرحلة من الحروب الطاحنة .

على أن نيتشه ليس عابداً للدولة . إنه أبعد ما يكون عن ذلك . إنه فردى متحمس للفردية إلى أقصى حد . فهو مؤمن بالبطل . وهو ليس أيضاً من دعاة القومية ، كما أنه لا يبدى إعجابه بألمانيا . إنه يهفو إلى جنس عالمى يحكم ويتشكل من أمراء الأرض . أرستقراطية جديدة واسعة النطاق تقوم على أساس إخضاع الذات لتربية قاسية . وهو غير مناهض للسامية وإن كان يذهب إلى القول بأن ألمانيا تشمل على عدد كبير من اليهود أكثر مما يمكن استيعابه .

www.dvd4arab.com

وهناك جانبان أساسيان فى فلسفة نيتشه ينبغى ألا نغفل عنهما :
الأول : احتقاره للنساء . والثانى : نقده الشديد للمسيحية .

فبالنسبة لاحتقاره للنساء نجد أنه يقول : إن النساء غير قادرات على إقامة الصداقة مع الآخرين . فهنّ ما يزلن قططاً أو طيوراً أو على الأحسن أبقاراً . وهو يزعم أن النساء مجرد مِلْكية ، ويعتقد أن احتقاره للنساء ليس بحاجة إلى حجج أو إلى شواهد من التاريخ .

أما اعتراضه على المسيحية فلأنها قبلت ماسماه « أخلاق العبيد » وهو على أى حال لا يتناول ميتافيزيقا الأديان للبرهنة على صحتها أو لدحضها ، بل يحكم على الدين بمقدار آثاره الاجتماعية . ويرى أن البوذية والمسيحية ديانتان « عَدَميتان » ، وذلك لأنهما تنكران الفرق النهائى فى القيمة . بين رجل وآخر . وهو ينعى على المسيحية لأنها تحاول استئناس قلب الرجل ، ويؤكد أن الحيوان المفترس يفقد الكثير من مزاياه إذا ما استؤنس . فالمسيحية فى زعمه تعمل على تحطيم الأقوياء وعلى تهشيم روحهم ، وذلك بإزعاج ضمائرهم وإصابتهم بالقلق . فهى تعرف كيف تسمم أنبل الغرائز ، وكيف تصيبها بالمرض إلى أن تنهار قوتهم وتتلاشى إرادة القوة لديهم ، فينكفئون على ذواتهم حيث يحسون باحتقار أنفسهم . ويدعو نيتشه إلى إحلال الرجل «النبيل» محل القديس . والرجل النبيل سوف يكون قادراً على إبداء القسوة وعلى الإقدام على ماأصطلح على تسميته بارتكاب الجرائم . وهو يتهم المسيحية بأنها تزعم أنها تدعو إلى المحبة ، بينما هى تغرس الخوف فى القلوب .

* * *

الفصل الأربعون

كارل مـــاركس

MARX, KARL

(١٨١٨ — ١٨٨٣)

ينظر إلى كارل ماركس عادة باعتباره الرجل الذى عمل على جعل الاشتراكية عِلْماً ، ومن المعروف أنه العامل الرئيسى فى خلق الحركة الشيوعية القوية التى سيطرت على التاريخ الحديث لأوربا . ويمكن اعتبار ماركس نتاجاً للمتطرفين من الفلاسفة ، شأنه شأن هودجشكن الذين ينافحون عن النزعة العقلانية ويعارضون الرومانسية . ومن جهة أخرى يمكن اعتباره الباعث للحياة من جديد للمادية ، مضفياً تفسيراً جديداً وارتباطاً جديداً بالتاريخ الإنسانى . ومن جهة ثالثة يمكن اعتباره آخر شخصية فلسفية استطاعت أن تنشئ نظاماً فلسفياً ضخماً ، وهو خليفة هجل ، إذ ضرب فى إثره ، ولكنه قدم فلسفته فى صيغة عقلانية تلخص تطور البشرية .

والواقع أن الأحداث التى غلّفت حياته تلقى الضوء على فلسفته . لقد ولد فى عام ١٨١٨ فى تريفز مثل القديس امبروز . وكانت تريفز متأثرة بعمق بالفرنسيين خلال الثورة وخلال عهد نابليون ، وكانت على جانب كبير من اتساع الأفق والتلبس بالنظرة العالمية أكثر من معظم أجزاء ألمانيا . أما أسلافه فكانوا حاخامات ، ولكن والديه صارا مسيحيين عندما كان بعدُ طفلاً ، ثم تزوج من شابة مسيحية من أسرة

Loolo
www.dvd4arab.com

أرستقراطية وظل وفياً لها خلال حياته كلها . وفى دراسته الجامعية تأثر بالمجلية التى كانت ما تزال سائدة ، كما تأثر أيضاً بثورة فيورباخ ضد هجل ، وهى الثورة التى تنحو إلى المادية .

وحاول ماركس أن يشتغل بالصحافة ، ولكن المجلة التى كان يشترك فى تحريرها أغلقت السلطات أبوابها بسبب تطرفها . وبعد ذلك فى ١٨٤٨ توجه إلى فرنسا الاشتراكية . وهناك قابل إنجلز الذى كان مديراً لأحد المصانع فى مانشستر . ومن خلاله استطاع أن يقف على ظروف العمال الإنجليز والاقتصاد الإنجليزى . وبهذا الشكل استطاع قبل ثورة عام ١٨٤٨ أن يحصل على ثقافة عالمية غير عادية .

شارك ماركس فى الثورتين الفرنسية والألمانية عام ١٨٤٨ ، ولكن الانتكاسة اضطرته للجوء إلى انجلترا فى عام ١٨٤٩ ، وقضى باقى حياته باستثناء فترات قصيرة فى لندن ، وقد اضطربت حياته بسبب الفقر والمرض وموت أطفاله ، ولكنه مع ذلك ظل يكتب ويجمع المعلومات من هنا وهناك بغير هوادة أو كلل . وكان الباعث عنده دائماً هو الأمل فى إشعال ثورة اشتراكية ، إن لم يكن خلال حياته ، فليكن فى المستقبل غير البعيد بعد مماته .

وأهم كتبه « رأس المال » وهو يتضمن أربع قضايا :

الأولى : إن القيمة الحقة لكل سلعة تعادل كمية العمل المتحقق فيها ، بحيث يعتبر العامل المصدر الوحيد لهذه القيمة ، ومن ثم فإنه يحق المالك الوحيد للسلعة .

القضية الثانية : إن الرأسمالية تستولى على جزء من قيمة عمل العامل ، وهذا الجزء هو الزيادة المضافة إلى قيمة الخامة أو السلعة ويستولى عليها صاحب المال ، وهذا الربح يتكدس لديه فيكوّن رأس المال .

القضية الثالثة : إن من شأن الصناعة الآلية متى استغلها صاحب المال وهو متلبس بالطمع المطلق المتحرر من حيث كل قيد ، فإنها تعمل على زيادة التعارض عنفاً بين رأس المال والعمل .

القضية الرابعة : إن الطبقة العاملة ستنتصر حتماً على أصحاب الأموال فتنزع الملكيات منهم وتجعل الثروات والمرافق ملكية مشاعة بين الجميع .

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

الفصل الحادى والاربعون

برجســـون

BERGSON, HENRI

(١٨٥٩ – ١٩٢٩)

ولد هنرى برجسون فى باريس من أسرة يهودية قدمت فرنسا من انجلترا . كان فى المدرسة الثانوية تلميذاً نابهاً أظهر استعداداً نادراً للعلوم ، ولكنه اختار الفلسفة وتخرج فى مدرسة المعلمين العليا على أيدى أساتذة معروفين : منهم إميل برترو ، ونجح فى مسابقة الأجريجاسيون عام ١٨٨١ ، فعين مدرساً للفلسفة فى مدارس ثانوية بالأقاليم ، ثم بباريس عام ١٨٨١ ، فذاع صيته بعد حصوله على الدكتوراه ، فعين أستاذاً فى الكوليج دى فرانس عام ١٩٠١ حيث قضى خمس عشرة سنة يلقى خلالها المحاضرات أمام جمهور عديد معجب أشد الإعجاب به . ولما أعلنت الحرب العالمية الأولى أرسل فى مهمة إلى أمريكا ، ولما كونت جمعية الأمم لجنة للتعاون الفكرى مؤلفة من اثنى عشر عضواً انتخب هو رئيساً لها ، وظل يشغل منصبه هذا حتى عام ١٩٢٥ ، ثم أصابه مرض أقعده إلى آخر حياته دون أن يحول ذلك بينه وبين ممارسة نشاطه الإبداعى الفلسفى .

ويعتبر برجسون رائد الفلسفة الفرنسية خلال القرن العشرين ، وقد ترك أثره فى وليم جيمس وهويتهيد ، كما أن تأثيره كبير فى الفكر الفرنسى . وفلسفته تتسم بالثنائية . فالعالم فى نظره منقسم إلى قسمين

متباينين : فثمة الحياة من جهة ، والمادة من جهة أخرى . والكون كله يتسم بصدام وصراع بين حركتين متعارضتين . فالحياة تصعد إلى أعلى ، والمادة تهبط إلى أسفل . والحياة عبارة عن قوة هائلة أو دفع حيوى بعيد المدى ، دفع بها مرة واحدة منذ بداية العالم ، فقوبلت بمقاومة المادة ، وأخذت تناضل من أجل شق طريق خلال المادة ، فتعلمت تدريجياً استخدام المادة عن طريق التنظيم ، فعملت العوائق التى تجابهها على توزيعها فى تيارات متباينة ، شأنها شأن الريح عند اصطدامه بناصية أحد الشوارع ، فهى تخضع جزئياً لضغط المادة بواسطة التكيفات ذاتها التى تفرضها المادة عليها . ولكنها ما تفتأ أن تستعيد دائماً قدرتها على النشاط الحر ، مجاهدة باستمرار للعثور على منافذ جديدة ، وساعية باستمرار لإحراز حرية أكبر للحركة بين حوائط المادة التى تعترض طريقها .

على أن التطور لا يمكن تفسيره بُبداعة بالتكيف للبيئة . ذلك أن التكيف لا يفسر سوى حِنّيات وانحناءات التطور ، تماماً كما هو حادث بإزاء تيار الهواء بأحد الطرق قرب إحدى البلدان والسارى من خلال الهضاب . بيد أن هذا التشبيه لا يكفى تماماً . فليس هناك بلدة ولا هدف محدد فى نهاية الطريق الذى يعبره التطور . فالواقع أن النزعة الميكانيكية وأيضاً الغائية تعانيان من نفس العيب . فكلتاهما يفترضان أنه لا توجد جِدّة بالعالم . فالميكانيكية تنظر إلى المستقبل باعتبار أنه متضمن فى الماضى ، كما أن الذاتية تؤمن بأن الغاية التى يتم التوصل إليها يمكن أن تعرف مقدماً ، فهى تنكر وجود أى جدة أساسية فى النتيجة .

وبرجسون يعارض الميكانيكية والغائية معاً ، على الرغم من أنه أكثر ميلاً إلى الغائية . ذلك أنه يذهب إلى القول بأن التطور خلاق

Looloo
www.dvd4arab.com

بحق ، شأنه فى ذلك شأن عمل أحد الفنانين . فما يوجد مقدماً هو الحافز على العمل والحاجة غير المحددة لدى الفنان ، ولكن إلى أن يتم إشباع الحاجة ، فمن المستحيل أن تعرف طبيعة ما سوف يعمل على إشباعها . فعلى سبيل المثال نفترض وجود رغبة غير محددة لدى الحيوانات عديمة البصر لأن تكون قادرة على أن تقف على طبيعة الأشياء قبل أن تكون على اتصال بها . فهذا أدى إلى بذل الجهود التى أنتجت فى النهاية خلق العيون . فالإبصار أشبع الرغبة ، ولكن لم يكن من الممكن تخيله قبلياً . ولهذا السبب فإن التطور غير قابل للتنبؤ ، كما أن النزعة الحتمية لا يمكن أن تدحض الداعين للإرادة الحرة .

بعد أن قام برجسون بوضع هذا الإطار العام ، قام بعد ذلك بملئه بما اعتقد أنه التطور الواقعى الذى سلكته الحياة على الأرض . لقد كان الانقسام الأول للتيار إلى نباتات وحيوانات ، فاستهدفت النباتات تخزين الطاقة فى مخزن ، بينما استهدفت الحيوانات استخدام الطاقة فى حركات مفاجئة وسريعة . ولكن فى مرحلة متأخرة ظهر تفريع جديد بين الحيوانات : الغريزة من جهة ، والذكاء أو العقل من جهة أخرى. وقد أخذ هذان الفرعان فى الانفصال بعضهما عن بعض تقريباً ، بيد أنهما لا ينفصلان بعضهما عن بعض تمام الانفصال . ولكن من سوء حظ الإنسان أنه خضع لسيطرة العقل ، بينما تبدت الغريزة فى أحسن صورها لدى النمل والنحل . والواقع أن التقسيم إلى عقل وغريزة أساسى فى فلسفة برجسون ، وقد انحاز إلى جانب الغريزة وفضلها على العقل .

والغريزة فى أحسن أحوالها تسمى « الجنس » . وينصب نشاط الذكاء أو العقل على المادة الجامدة . فهو لا يستطيع أن يشكّل فكرة واضحة إلا بإزاء ما هو غير مستمر وساكن . والذكاء ينفصل فى

المكان ويثبت فى الزمن . فهو غير مهيأ للتفكير فى التطور ، بل هو يقدم ما سوف يأتى كسلسلة من الحالات . ويتسم الذكاء بعجز طبيعى عن فهم الحياة . من هنا فإن الهندسة والمنطق — وهما النتاجان الرئيسيان للذكاء — يطبقان بدقة بصدد الأجسام الجامدة ، ولكن خارج هذا النطاق يجب أن يساق المرء بالحس المشترك الذى يعتبره برجسون شيئاً آخر تماماً غير الذكاء أو العقل .

وتحتل نظرية الذاكرة أهمية خاصة عند برجسون . فالمادة والذاكرة تهتمان بإظهار العلاقة بين العقل والمادة . وهناك نوعان من الذاكرة : ذاكرة آلية كأن يسرد المرء قطعة من الشعر يكون قد حفظها ، وذاكرة تتعلق بتذكر المواقف . والنوع الأخير هو الخليق بلفظ ذاكرة .

أما الخير الذى يتمنى برجسون مشاهدته محققاً فى العالم ، فهو العمل أو التنفيذ من أجل التنفيذ . فكل تأمل بحت إنما هو « حلم » . فعلى المرء أن يؤدى العمل بغير أن يترسّم هدفاً يرسمه ويحدده . فالعمل أو الأداء هو الذى يحدد غاياته ، أو قل إن الغايات تتفتق من صميم الأداء . فبرجسون يقدم فلسفة مستشفّة من نشاط الفنان أو المبدع الذى يتناول القلم أو الفرشاة أو قطعة الصلصال أو الآلة الموسيقية ، فيُعمل فيها يديه ويتهمك فى العمل ، فيخرج الفن وينتج الإبداع بغير خطة مُسْبقة . فالأداء يخلق الإبداع .

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

الفصل الثانى والأربعون

وليـــم جيمس

JAMES, WILLEAM

(١٨٤٢ — ١٩١٠)

كان وليم جيمس عالم نفس بصفة رئيسية ، ولكنه يحتل مكانة هامة فى تاريخ الفلسفة لسببين : الأول : ابتكاره للمذهب الذى أطلق عليه اسم « التجريبية البحتة » ، والثانى : لأنه واحد من ثلاثة قاموا بالدعوة إلى النظرية التى تسمى « البرجماتية » أو « الذرائعية » . وفى أواخر أيامه استحق أن يعترف به كزعيم للفلسفة الأمريكية . ولقد وجد طريقه إلى علم النفس عن طريق دراسته للطب .

أما عن فلسفته فيمكن النظر إليها من زاويتين : الأولى علمية ، والثانية دينية . فبالنسبة للزاوية العلمية نجد أن دراسته للطب قد صبغت فكره بميل نحو المادية . بيد أن هذه النزعة المادية قدوجدت عائقاً أمامها بسبب عواطفه الدينية . فلقد كانت مشاعره الدينية بروتستانتية جداً وديموقراطية جداً فى الوقت نفسه ، كما كانت مفعمة بالدفء والتعاطف تجاه الإنسانية .

والشعور فى نظره مرادف للاشىء ، ويجب ألا يوضع ضمن المبادىء الأولى . أما أولئك الذين ينظرون إليه كشىء جوهرى ، إنما يحرون وراء الصدى لا وراء الحقيقة . فليست هناك خامة أصلية أو خاصية وجودية كتلك التى تتسم بها الأشياء المادية والتى صنعت منها نستطيع أن نزعم أن أفكارنا مصنوعة منها . وهو فى الوقت نفسه لا ينكر

أن أفكارنا تؤدى وظيفة هى وظيفة المعرفة ، ويمكن أن نطلق على هذه الوظيفة اسم « الحالة الشعورية » . ولكن ما ينكره جيمس هو اعتبار الشعور « شيئاً » . وهو يعتقد أنه لا توجد سوى خامة أو مادة أولى يتكون منها كل شىء فى العالم . وهذه الخامة يسميها « الخبرة البحتة » . يقول جيمس إن عملية المعرفة هى نوع معين من العلاقة بين قطبين من الخبرة البحتة . فالعلاقة بين الذات والموضوع هى علاقة اشتقاقية . فيقول : « إنى أعتقد أن الخبرة لا تتضمن تلك الازدواجية الداخلية » . فإذا ما تناولنا قسماً غير منقسم من الخبرة ، فيمكن أن يكون فى أحد السياقات عارفاً ، وفى سياق آخر شيئاً معروفاً .

وهو يعرِّف « الخبرة البحتة » بأنها [التدفق المباشر للحياة التى تمد تأملنا التالى « بمادة التأمل] . والواقع أن جيمس يحب التمييز بين العقل والمادة إذا ما نظرنا إلى كل منهما باعتباره « خامة » . ولقد يشتم من القول أيضاً « بالأحادية المحايدة » التى تعنى أن المادة التى يتشكل منها العالم ليست عقلاً ولا مادة ، بل شيئاً سابقاً على كليهما . بيد أن جيمس نفسه ينكر ذلك . وعلى العكس من هذا فإن استخدامه لعبارة « الخبرة البحتة » يشير إلى شىء أقرب إلى مثالية بركلى اللاشعورية .

والحقيقة عند جيمس نوعان ، لأن موضوع التصور إما أن يكون شيئاً خارجياً أو منهاجاً عملياً لإرضاء حاجة نفسية . ففى الحالة الأولى تكون الفكرة الحقة عن موضوع ما ، هى التى تحدونا إلى إتيان أفعال تقودنا إلى ذلك الموضوع . وفى الحالة الثانية تكون القضية الحقة هى التى تستتبع التسليم بها نتائج مرضية ، أى محققة لمطالبنا . ففى الحالتين ليست الحقيقة تصوراً مطابقاً لشىء ما كما يعتقد عامة الناس ، ولكنها التصور الذى يؤدى بنا إلى الإحساس بشىء أو إلى تحقيق غرض . وفى

Looloo
www.vvdiscuss.com

الحالتين فإن الخطأ هو الإخفاق . وبعبارة أخرى فإن الحقيقة هى التصور الذى نسيغه ونحققه فنجعله صادقاً بتصديقنا إياه . فهى ليست خاصية ملازمة للتصور كما يعتقدون ، ولكنها « حادث » يعرض للتصور فيجعله حقيقياً أو يكسبه حقيقة بالعمل الذى يحققه . فالحقيقة اختراع شىء جديد لا اكتشاف شىء يسبق وجوده . وليس يعنى هذا أنها تحكُّم وتعسُّف ، بل يعنى أنه كما أن الاختراع الصناعى يتقدم بفضل فائدته العملية فقط ، كذا فإن القضية الصادقة هى التى تزيد فى سلطاننا على الأشياء . ونحن نبتكر الحقائق لنستفيد من الوجود ، كما نخترع الأجهزة الصناعية لنستخدم القوى الطبيعية .

وإلى جانب التجارب العلمية ، هناك فى رأى جيمس نوعان آخران من التجارب هما التجربة النفسية والتجربة الدينية ، وكل منهما تجربة مؤكدة وواجبة الاحترام . وللتجربة النفسية خصائص ذاتية مباينة لخصائص الجسم المتصلة به ولخصائص سائر الأجسام . أما التجربة الدينية فلها خاصيتان مشتركتان : إحداهما قلق من الألم أو الشر ، والأخرى شعور بالنجاة من الألم أو الشر بفضل « قوة عليا » تشهد نتائجها الحسنة بفعلها فى حياة النفس .

ويتساءل جيمس : ألا تكون التجربة الدينية حالة مَرَضية فتكون عبارة عن اضطراب عصبى واختلال يصيب التوازن الجسمى؟ ويجيب جيمس على تساؤله بالنفى . ذلك أن الشجرة تعرف بثمارها ، وليست تفقد الحقيقة العلمية شيئاً من قيمتها متى كان المكتشف لها مرهف الإحساس حاد المزاج ، وليس يغض من قيمة العبقرية وأثرها فى تقدم الإنسانية اقترانها بحالات مَرَضية ، وثمرة التجربة الدينية هى القداسة ، أى الوداعة والمحبة والإيثار . وهذه فضائل جِدّ نفيسة للأفراد والجماعات .

وليس خصب هذه التجربة هو السبب الوحيد الذى يحملنا على اعتبارها صادقة ، بل هناك أيضاً اتفاقها مع وقائع التجربة النفسية التى تَطْمئِننا على أنه يوجد تحت المجال الضيق للشعور منطقة عميقة تعتمل فيها الحياة الباطنة ، وأن هذا التيار السفلى يشتمل على عواطف وإلهامات تهبط على المرء بطريقة فجائية تتبدى فى الشعور . وعلى هذا فيمكن تفسير ظواهر ما تحت الشعور فى الحالات المَرَضية بأحوال الجسم ، ولكن هناك نوعاً غالباً ما يعتمل تحت الشعور يرتفع بالنفس إلى ما فوق الحياة الجسمية ، أعنى إلى مراقى حياة روحية ممتنعة على الارتقاء إلى آفاقها بواسطة العقل والإرادة . فالفنان العبقرى لا يشعر أنه خالق آياته الفنية ، بل يميل إلى أن يعزوها إلى كائن روحى يستحوذ عليه ويوحى إليه . فيمكن أن نفترض إذن أن فى المنطقة اللاشعورية يتم الاتصال بيننا وبين الله ، بل وبيننا وبين سائر النفوس .

وعلى هذا يلوح أن خصائص التجربة الصادقة التى تتوافر للتجربة الدينية إنما تقوم على أساس اعتمال حدس أصيل يُفْضى إلى آثار نافعة ، وأنها تتصل بطائفة من الظواهر غير المعلومة بما تحت الشعور . على أن الشك يظل قائماً ، إذ أن التجربة الدينية تجربة فردية غير عادية وغير قابلة للتحقق بملاحظة محايدة . وقد نستطيع ملاشاة الشك إذا نحن استطعنا الخروج من الذاتية وأبرزنا حالات يكون فيها التصور هو الفعال ، لا الاعتقاد بالتصور ، أى إذا استطعنا وصف التجربة الدينية ، ليس فقط بالتجربة النفسية ، بل أيضاً بالتجربة الفيزيقية ، والمضى من فكرة عالم الأرواح وتفاعلها إلى ظاهرة فيزيقية محسوسة من جانب جميع الناس ، كالإحساس عن بُعْد ، وحضور الأرواح ، والرؤيا وقت الوفاة ، وما إلى ذلك من شواهد روحانية .

www.dvd4arab.com

الفصل الثالث والأربعون

جـــون ديوى

DEWEY, JOHN

(١٨٥٩ — ١٩٥٢)

هو أعظم الفلاسفة الأمريكيين إنتاجاً وتأثيراً . فلقد امتد نشاطه ككاتب وكمدرس لأكثر من سبعين سنة ، واعتملت أفكاره وتأثيره بعمق فى الحياة الأمريكية . والواقع أن تطبيق فلسفة ديوى بصدد مشكلات الناس والعالم الذى عاش فيه ، يتمشى تماماً وينسجم مع المفهوم الطبيعى والذرائعى للفلسفة التى دعا إليها بشجاعة . فليس من أحد فى العالم طالب بتطبيقات عملية للفلسفة أكثر من ديوى ، وليس من أحد أكد هكذا بعمق على أن الفلسفة لا يمكن أن ترتبط بأى حال إلا بالعالم الطبيعى مثلما فعل ديوى . ولذا فيجب أن ينظر إلى جهده برمته باعتباره فيلسوفاً كمحاولة لإظهار أن خبرات الإنسان وأفعاله تتلبس بمعنى متزايد كلما فهمت فى ضوء فهم متصل بالواقع ، وعندما ينظر إليها كوظائف أو كذرائع لحل مشكلاته ولإثراء حياته .

ولا شك أن موضوعَىْ النزعة الطبيعية والنزعة الذرائعية — وهما المكملان بعضهما لبعض — يحتلان مركز البؤرة فى فكر ديوى بأسره . فكل ما يوجد ، أو كل ما له معنى أو قيمة ، يكون له مضمون طبيعى ، وليس من شىء يمكن أن يكون له معنى أو يكون صدقاً أو تكون له قيمة حقيقية ما لم يتسن له أن يؤدى وظيفة أو أن يوظَّف بطريقة أداتية للملاشاة الفوضى من الحياة ، ولكى يتأتى الوضوح والنظام .

ولد جون ديوى فى بوركنجتون بفرمونت فى عام ١٨٥٩ ، وهو العام نفسه الذى قام فيه دارون بنشر كتابه « أصل الأنواع » . وبعد تخرجه فى جامعة فرمونت فى عام ١٨٧٩ قام بالتدريس بالمدرسة الثانوية لعدة سنوات قبل أن يحصل على مؤهله فى الفلسفة . وفى عام ١٨٨٢ بدأ فى نشر فلسفته . وبعد ذلك التحق بجامعة جلونز هوبكنز حيث حصل على الدكتوراه فى عام ١٨٨٤ . وبينما كان يعمل فى هذه الجامعة درس منهجين فى المنطق على يد شارلز بيرس . وكان لستانلى هول العالم النفسى وجورج موريس الفيلسوف المثالى تأثير أكبر فى مراحل تطوره الأولى . ففى ظل تأثير هول أبدى ديوى اهتماماً بعلم النفس العلمى والتجريبى ، وقد قام بنشر كتابه الأول فى عام ١٨٨٧ بعنوان « علم النفس » . وفى ظل تأثير موريس توجه ديوى إلى جامعة ميتشجان حيث صار فى النهاية رئيساً لقسم الفلسفة . وظل خلال هذه الفترة مهتماً أكثر فأكثر بمشكلات التربية وعلم النفس التطبيقى . وفى عام ١٨٨٩ قام بنشر عمل بعنوان « علم النفس التطبيقى » .

ومنذ البداية وبصفة مستمرة ظل ديوى مهتماً بمدارسة العلاقة بين النظرية والتطبيق . وخلال هذه السنوات التى كانت شخصيته تتشكل خلالها ، صار واضحاً فى رأيه أكثر فأكثر أن النظرية والتطبيق ليسا شيئين منفصلين بعضهما عن بعض ، بل هناك تفاعل حيوى حتمى بين ما هو نظرى وما هو عملى ، وبين الكيفية التى نفهم بها الأشياء ، وبين تناولها بالتوظيف والاستخدام . والواقع أن اهتمامه المتزايد بالمشكلات التربوية جعله يقف على الحاجة إلى تقديم نظرية وتطبيق متكاملين ، وأن تتوافر له سلسلة ممتازة من الحالات المعيارية لتأكيد نظرياته .

www.dvd4arab.com

وفى عام ١٩٠٥ توجه ديوى إلى جامعة كولومبيا حيث استمر فى الكتابة والتدريس ، وحيث صار أعظم فلاسفة أمريكا شهرة . وجنباً لجنب مع وليم جيمس عرف بأنه رائد فى تطوير البرجماسية الأمريكية ، وذلك بفضل نشره لمجموعة من المقالات حولها للتعريف بها .

والواقع أن نتاج ديوى الفلسفى والتربوى خلال هذه الفترة وما بعدها من المقالات والكتب يدعو للدهشة . ففى عام ١٩٠٨ نشر كتابه الشهير بالتعاون مع جيمس بعنوان « الأخلاق » . وفى عام ١٩١٠ نشر كتابه « كيف نفكر » ، وقد ترجم فيما بعد إلى الفرنسية والروسية والإسبانية والصينية والبولندية والعربية . وفى عام ١٩١٦ نشر كتابه « الديموقراطية والتربية » وأيضاً « مقالات فى المنطق التجريبى » الذى نُصِّب بفضله زعيماً للتربية والفلسفة على السواء . ولقد سمحت أعمال واهتمامات ديوى له بإقامة اتصال مباشر بالتطورات الفكرية والشئون العلمية لوقته . وهو شأنه شأن جفرسون ، إذ كان ممسكاً بعصا القيادة فى الشئون التربوية والسياسية والفلسفية وجميع الاهتمامات الإنسانية . فقد ساند ثيودور روزفلت بإيجابية للفوز بمنصب الرئاسة فى عام ١٩١٢ ، كما سافر إلى اليابان والصين وتركيا وروسيا ، حيث ترك أثره فى تيار التربية العالمية نظرياً وعملياً .

ويتضح الطابع البرجماسى لفلسفة ديوى فى إصراره على رفض جميع أشكال الثنائية التى تنتحى إلى تقسيم الأشياء أو بعثرتها ، والإصرار على أن الفلسفة البرجماسية يجب أن تطبق إلى أبعد حد ممكن . وهو يتفق مع بيرس على أن جميع المفاهيم العقلية وجميع المفاهيم التى يمكن أن نفكر فيها منطقياً ، يجب أن تتركز معانيها فى ضوء ما تسفر عنه مع نتائج تجريبية ، كما أنه يتفق مع جيمس على أن جميع الحقائق وجميع قيم الحياة

يجب أن تتبدى فى نتائج محددة بالخبرة . بيد أن ديوى امتد بالبرجماسية أكثر مما ذهب بيرس وجيمس . فلقد اشترط بأن يكون التفكير المنطق والخبرة على جانب أكبر من التكامل مما طالب به بيرس أو جيمس . فبيرس عمد إلى فصل التفكير المنطق عن الخبرة ، وذلك لأنه ذهب إلى أن بعضاً من المسائل الحيوية الهامة كالأخلاق أو الدين هى مسائل تتعلق بالشعور أو الغريزة بحيث لا يمكن تبريرها بالطرائق العقلانية أو المنطقية .

وبتعبير آخر فإن بيرس لم يتصور التفكير المنطق مناسباً لكل خبرة أو لجميع المشكلات . وبالنسبة لهذه النقطة فإن جيمس قد وافق بيرس ، ولكنه ذهب إلى مدى أبعد من بيرس بمطالبته بالفصل بين المنطق وبين الحياة ، أو بين العقل والخبرة . فجيمس لم يوافق قط على أن يكون للخبرة قطاع أكبر من الأفكار ، بل إنه أمعن فى هذا الزعم ، وذلك لأنها أعطته الفرصة لإبداء قدر أكبر من الروحانية . وبتعبير آخر فإن جيمس فصل فيما بين الفكر والتفكير من جهة ، وبين جماع الخبرة من جهة أخرى حتى يتسنى له إنقاذ الدين .

أما ديوى فإنه يرفض أى فصل فيما بين المنطق والحياة ، أو بين العقل والمنطق والخبرة ، أو بين العلم والدين . فهو لا يستطيع أن يقبل أى مفهوم عن الخبرة لا يتكامل مع التفكير المنطق ، وذلك لأنه يعتقد أن التفكير المنطق طبيعى تماماً فى مضمونه ، كما أنه أداتى فى تشغيله ، وتجريبى فى طبيعته .

Looloo
www.dvd4arab.com

الفصل الرابع والأربعون

برتراند رسل

RUSSELL, BERTRAND

(١٨٧٢ – ١٩٧٠)

ماتت أم رسل وهو فى الثانية من عمره ، وكان فى الثالثة حين مات أبوه ، فنشأ فى دار جده ، لورد جون رسل والذى صار فيما بعد « إيرل رسل » . وكانت مكتبة جده هى غرفة دراسته ، فوجد فيها من كتب التاريخ ما أثار اهتمامه ، لا سيما أن لأسرته فى التاريخ الإنجليزى مكاناً ظاهراً منذ أوائل القرن السادس عشر .

وفى الحادية عشرة بدأ فى دراسة إقليدس . وفى الخامسة عشرة انتهى إلى نظرية شديدة الشبه بنظرية الديكارتيين ، إذ شعر باعتقاد الواثق أن حركات الأجسام الحية إنما تنظمها قوانين الديناميكا تنظيماً تاماً . وإذن فحرية الإرادة وَهْم ، ولكنه سلم بوجود الشعور الواعى عند الإنسان على أنه حقيقة قائمة لا شك فى صدقها .

وفى الثامنة عشرة ذهب إلى كمبردج ، فأكثر من القراءة الموجهة وأعجب بشعر شلى ، ثم قرأ كارلايل ومل . كان هوايتهد هو الذى اختبره فى امتحان القبول وغادر كمبردج عام ١٨٩٤ ، وأنفق بعد ذلك زمناً طويلاً خارج البلاد . فاشتغل ملحقاً شرفياً فى السفارة البريطانية بباريس ثم تزوج فى عام ١٨٩٥ وقضى الشطر الأكبر من هذا العام فى برلين يدرس الاقتصاد والديموقراطية والاشتراكية الألمانية .

والواقع أن هناك تقلبات هائلة طرأت على حياة رسل وأفكاره .

فقد كان كل شىء فى حياته الأولى يؤهله لأن يكون سياسياً مرموقاً يتولى مناصب تنفيذية هامة فى بلاده . بدأت حياة رسل الفلسفية بفترة كان فيها متأثراً بالمذهب المثالى الذى كان مزدهراً فى انجلترا بفضل أعمال الفيلسوفين برادلى وماكتجارت ، ولكن هذه الفترة لم تطل ، وسرعان ما تخلى رسل عن المثالية ، وعادت الفلسفة الإنجليزية كلها معه إلى التراث التجريبى المميز لها ، وكان أهم عوامل تحوله هو تأثره باتجاه مور أبى الواقعية الإنجليزية وعدو المثالية اللدود .

وكانت أهم المراحل الفلسفية فى حياة رسل هى الفترة الواقعة بين بداية القرن العشرين وعام ١٩١٦ ، التى كان اهتمامه الأكبر خلالها منصباً على بحث الأسس المنطقية للرياضيات ، وإلى هذه الفترة ينتمى كتابه الأكبر الذى اشترك فيه مع وايتهد وهو كتاب « المبادئ الرياضية » . وبفضل هذا الكتاب أصبح رسل واحداً من أبرز الشخصيات الفلسفية فى القرن العشرين ، بل لقد وصفه البعض بأنه أهم المناطقة منذ أرسطو .

على أن نشوب الحرب العالمية الأولى قد حوّل اتجاه رسل بقوة إلى التفكير فى المشكلات السياسية والاجتماعية للإنسان ، إذ كانت هذه الحرب بما جلبته من دمار إنسانى ومادى شامل ، وبما أثبتته من نزوع إلى الهدم متأصل فى النفس البشرية ، بمثابة صدمة أليمة له ، قللت من رغبته فى متابعة المسائل الأكاديمية التجريدية فى الوقت الذى كان فيه ملايين البشر يساقون إلى المجزرة . وهكذا وقف رسل يدافع بقوة عن السلام ويهاجم الحرب فى وقت كانت فيه بلاده متورطة فى تلك الحرب بكل ما تملك من طاقات . وهكذا حوكم رسل على نزعته السلامية وحكم عليه بالسجن ستة أشهر فى عام ١٩١٨ .

www.dvd4arab.com

وتوزعت اهتمامات رسل بعد الحرب الأولى بين المشاكل الفلسفية ذات الطابع الأعم وخاصة مشكلة المعرفة ، وبين المسائل الاجتماعية والأخلاقية والتربوية ، وقد أبدى فى هذا المجال الأخير آراء غير مألوفة أثارت غضب الكثيرين من ذوى الميول المحافظة ، ولكنه من جهة أخرى أعلن عداءه للبلشفية إثر زيارة قام بها للاتحاد السوفيتى بعد سنوات قليلة من ثورته الشيوعية ، وقابل خلالها لينين وتروتسكى وجوركى ، وعاد ليعيب على النظام الجديد شموليته وتسلطه . أما فى ميدان التربية فقد تبنى رسل اتجاهات تحررية جديدة ، حاول تطبيقها عملياً ، فأنشأ لهذا الغرض مدرسة حرة فى عام ١٩٢٧ بمساعدة زوجته الثانية ، ثم أغلقت المدرسة بعد بضع سنوات عندما انفصل عن زوجته بالطلاق .

وفى عام ١٩٢٨ انتقل إلى الولايات المتحدة حيث قام بتدريس الفلسفة فى عدة جامعات فى وسط أمريكا وغربها . وعندما انتقل إلى التدريس فى نيويورك هبت ضده عاصفة عاتية أثارتها آراؤه الاجتماعية والأخلاقية غير المألوفة ، وشاركت فيها الصحافة والأجهزة السياسية والكنيسة ، ولكنه كسب فى النهاية حكماً قضائياً ضد المعترضين عليه .

ولقد كان موقف رسل من الحرب العالمية الثانية مضاداً لموقفه من الحرب العالمية الأولى ، فقد كان يرى أن هذه الحرب تستحق التضحية ، لأنها موجهة ضد قوى شريرة لا إنسانية . غير أنه أعرب بعد الحرب مباشرة عن رأى لا يتمشى مع الاتجاهات التى ظل يدافع عنها طيلة حياته ، إذ ألح على الولايات المتحدة خلال الفترة التى كانت فيها محتكرة للسلاح الذرى أن تستخدم القنبلة الذرية ضد الاتحاد السوفيتى ولكنه سرعان ما تراجع بعد عام ١٩٤٩ عن آرائه المتطرفة هذه ، وأصبح منذ ذلك الحين من دعاة نزع السلاح النووى فى العالم كله .

وازداد اقتناعاً بالموقف الجديد حتى أصبح يشتهر عالمياً بالدور الإيجابى الذى يلعبه من أجل ضمان عالم متحرر من سباق التسلح الجنونى .

وعندما نشبت حرب فيتنام ، لم يتردد حتى بعد أن تجاوز التسعين . فى أن يسير فى مظاهرات ، ويعقد اجتماعات شعبية حاشدة انتهت إلى تشكيل لجان عالمية للتفاهم بين الشرق والغرب ، ويقيم محكمة للضمير العالمى ، تحاكم مجرمى الحروب فى كل مكان ، وما زالت هذه المحاكم موجودة إلى يومنا هذا تحمل اسم مؤسسها العظيم . ولا أدل على إيجابيته الهائلة من أنه دخل السجن عام ١٩٦١ وهو فى التاسعة والثمانين لمدة أسبوع بسبب نشاطه فى محاربة التسلح النووى . وبموت رسل فى عام ١٩٧٠ انتهى عهد أحد النماذج النادرة فى تاريخ الفلسفة ، وطويت صفحة فيلسوف قضى قرناً كاملاً تقريباً من الكفاح الفكرى والعملى بلا ملل أو هوادة .

كان رسل نمطاً فريداً فى حد ذاته . نشأ أرستقراطياً ولكنه عمل الكثير من أجل الجماهير . وبدأ أكاديمياً ولكنه اندمج فى نشاط عملى لا يجاريه فيه كبار الساسة المحترفين ، وحارب أقوى المؤسسات القائمة فى عصره ، ولكنه فرض نفسه على ثقافة عصره فمنح جائزة نوبل للآداب عام ١٩٥٠ ، وهى المرة الأولى التى تمنح فيها هذه الجائزة لفيلسوف باستثناء كانى الذى كان أديباً بقدر ماكان فيلسوفاً . وتربى رسل تربية محافظة ، ولكنه تزوج أربع مرات ، واستفز مشاعر الناس بآرائه فى الحب والزواج ، وكتب أعظم المؤلفات المنطقية والرياضية وأشدها صعوبة وجفافاً فى العصر الحديث ، ولكنه كان يؤلف بكل اليسر والسلاسة والأسلوب المرح والجذاب فى المسائل الاجتماعية والتربوية والسياسية والأخلاقية .

Looloo
www.dvd4arab.com

الفهـــرس

الموضـــوع	الصفحة
☐ مقدمة	٣
الفصل الأول : هوميروس	٥
الفصل الثانى : هزيود	١٢
الفصل الثالث : طاليس	١٨
الفصل الرابع : انكسيمندريس	٢٥
الفصل الخامس : أنكسيمانس	٣٢
الفصل السادس : هرقليطس	٣٦
الفصل السابع : فيثاغورس	٤٥
الفصل الثامن : اكسينوفان	٦٠
الفصل التاسع : بارمنيدس	٦٥
الفصل العاشر : زينون الأيلى	٧٤
الفصل الحادى عشر : مليسوس	٧٩
الفصل الثانى عشر : امبادقليس	٨٣
الفصل الثالث عشر : المدرسة الذرية : ليوكوبوس وديموقريطس	٩٥
الفصل الرابع عشر : أنكساغوراس .	١١١
الفصل الخامس عشر : السوفسطائية : بروتاغوراس وغورغياس	١٢٢
الفصل السادس عشر : سقراط	١٤٤
الفصل السابع عشر : أفلاطون	١٧٢
الفصل الثامن عشر : أرسطو	٢٠٩
الفصل التاسع عشر : إيقور	٢٢٧
الفصل العشرون : زينون الرواقى ...	٢٣١
الفصل الحادى والعشرون : أفلوطين	٢٣٤
الفصل الثانى والعشرون : القديس أوغسطين	٢٣٧

الموضـــوع	الصفحة
الفصل الثالث والعشرون : الفارابى .	٢٤٠
الفصل الرابع والعشرون : ابن سينا	٢٤٣
الفصل الخامس والعشرون : ابن رشد	٢٤٥
الفصل السادس والعشرون : القديس توما الأكوينى	٢٤٧
الفصل السابع والعشرون : ماكيافيلى	٢٥٠
الفصل الثامن والعشرون : فرانسس بيكون	٢٥٣
الفصل التاسع والعشرون : هوبز ...	٢٥٧
الفصل الثلاثون : ديكارت	٢٦١
الفصل الحادى والثلاثون : سبينوزا	٢٦٥
الفصل الثانى والثلاثون : لوك	٢٦٩
الفصل الثالث والثلاثون : بركلى	٢٧٣
الفصل الرابع والثلاثون : هيوم	٢٧٨
الفصل الخامس والثلاثون : روسو...	٢٨٣
الفصل السادس والثلاثون : كانط ..	٢٨٧
الفصل السابع والثلاثون : هجل	٢٩١
الفصل الثامن والثلاثون : شوبنهور ..	٢٩٥
الفصل التاسع والثلاثون : نيتشه	٢٩٧
الفصل الأربعون : كارل ماركس ...	٣٠١
الفصل الحادى والأربعون : برجسون	٣٠٤
الفصل الثانى والأربعون : وليم جيمس	٣٠٨
الفصل الثالث والأربعون : جون ديوى	٣١٢
الفصل الرابع والأربعون : برتراند رسل	٣١٦

رقم الايداع : ٢٢٦٤

الترقيم الدولى : ٧ / ٠٦٠ / ٢٢٦ / ٩٧٧

Looloo
www.dvd4arabe.com

أدبيات
نبع الآداب والثقافة المعاصرة

يوسف ميخائيل أسعد

قادة الفكر الفلسفى

هذا الكتاب ضرورى للأديب ، وذلك لأن الأدب اليوم لاينفصل عن الفلسفة من حيث المشكلات التى يعرض لها ، وإن تباين عنها بالنسبة للمنهج الذى يتبعه ، وبالنسبة للصيغ الأدبية التى تتباين عن الصيغ الفلسفية . فالأدب إذا لم يُبن على فكر فلسفى ، فإنه يكون كلامًا أجوف خاليًا من المضمون . فقضايا الفلسفة لاتموت ، وإن تفاوت موقف كل فيلسوف فى تناولها عن غيره من الفلاسفة . وليس بخافٍ أن الشباب المثقف ، أيًا كانت ثقافته أو تخصصه ، بحاجة إلى ثقافة فلسفية تعمل على تخصيب ثقافته ، وتهيئ له طريق حياته الفكرية . فهذا الكتاب من الكتب التى تزكيها لتأخذ مكانها بين كتبك المفضلة .

الناشر

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٠٤٠ - ٢٨٨٦١٩٧
فاكس : ٢٨٢٧٠٥٢